

مختصر كتاب
الوحي المحمدي
ثبوت النبوة بالقرآن . دعوة شعوب المدنيّة
إلي الإسلام دين الأخوة الإنسانية و السلام
تأليف
الإمام محمد رشيد رضا
إختصار
د . مصطفي حلمي
صلى الله عليه وسلم • صلى الله عليه وسلم • صلى الله عليه وسلم • صلى الله عليه وسلم
الدار العربية للكتاب

مختصر
كتاب الوحى المحمدى

« ثبوت النبوّة بالقرآن، دعوة شعوب المدنيّة
إلى الإسلام دين الأخوّة الإنسانية والسلام »

تأليف

الإمام محمد رشيد رضا

منشئ المنار

اختصار

د. مصطفى حلمى

كلية دار العلوم- جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

رقم الإيداع: ٢٠١٨/١٩٢٥٣
الترقيم الدولى: 9-350-253-977

الدار العربية للكتاب
٣ ش منشــا - مــحــرم بك -
الإسكنـدرية ت/ ٠٣٣٩٠٧٩٩٨

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

رقم الإيداع: ٢٠١٨/١٩٢٥٣
الترقيم الدولي: 977-253-350-9

الدار العربية للكتاب
٣ ش منشا - محرم بك -
الإسكندرية ت/ ٠٣٣٩٠٧٩٩٨

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد: فلم أجد ما أستهلّ به هذه المقدمة للمختصر الذى قمت به بعون الله تعالى أفضل مما وُصف به الكتاب الأصلى (الوحى المحمدى) حيث (احتلّ بين جميع المؤلفات الدينية فى العصر الحاضر مكان النباهة الجهيرة وطُبع عدة مرّات فى سنة واحدة، ثم تُرجم إلى عدَّة لغات شرقية وغربية؛ لأنه يدعو الناس كافة فى شتى بقاع العالم إلى الدين الإسلامى، بالدليل العقلى والبرهان المنطقى، ويؤيد بأقوى الأسانيد ثبوت الوحى المحمدى، ونهوضه على دعائم راسخة من التفكير الصحيح، ويقارن بين رسالات من سبق محمداً من الأنبياء والمرسلين ورسالة خاتم المرسلين ﷺ، معتمداً على أحدث قوانين العلم ومكتشفاته فى دنيا الاجتماع والتاريخ والعمران، وعائداً إلى أقوى دلائل الملحدين، وأعنف شبه المغرضين من ذوى الاستشراق، مفنداً مبدداً ما يحوكون به فى مجال «الوحى المحمدى» والرسالة النبوية من اعتراض وافتراض . . . والكتاب وحده معجزة رشيد ومفخرة نبوغه، وهو وحده لسان صدق للإسلام وصيحة حق فى آذان الغافلين)[1].

● **وللقارئ نبذة من ترجمة حياة الإمام رشيد رضا:**

نشأ فى أسرة شريفة بقرية (القلمون) ١٨/ ١٠/ ١٨٦٥م وهى إحدى قرى لبنان على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وترعرع فى بيئة دينية تحترم التقاليد الإسلامية . .

---

(١) د. رجب البيومى (النهضة الإسلامية جـ١ ص٢٤٩ : ٢٥٠ وقد حرصت فى المختصر على الاحتفاظ بمقدمات الطبعات الثلاث وكذا الخاتمة. مع استبعاد القضايا التى لم تعد تحتل المكانة البارزة فى الجدل، والنصوص المكررة فى القضية الواحدة. وينبغى التنويه بأن هذا المختصر لا يغنى عن الرجوع إلى الكتاب الأصلى.

وعندما التحق بالمدرسة الوطنية بطرابلس الشام وجد من ضمن أساتذتها عالمًا فذًا، وهو الشيخ حسين الجسر الأزهرى صاحب «الرسالة الحميدية»، التى امتازت بمناقشة آراء الغربيين فى الإسلام، والرد على مفتريات الخصوم، وبذلك فتح الشيخ الجسر عيون تلاميذه -ومنهم رشيد رضا- على مواجهة الخصوم، ودفعهم إلى الذّود عن حقيقة الإسلام.

وكان فى عنفوان صباه مائلاً إلى التصوف حيث قرأ كتاب «الإحياء» للغزالى، وكادت روح التصوف تميل به إلى الانزواء، لولا أن وقعت فى يده إحدى صحائف «العروة الوثقى» فرجّت شعوره النفسى رجًا عنيفًا، وأطلعته على حقيقة العالم الإسلامى المتخلف عن ركب الحضارة، الغريق فى ظلام الجمود والاحتلال، وأرته ما يبثه أعداء الإسلام من نيّات غادرة بهذا الدين وأشياعه، وما يحاولون أن يلصقوه من مفتريات.

وبعد تخرّجه من مدرسته ونيله الشهادة العالمية ليصبح أستاذًا للدين بلبنان، رأى بعد اطلاعه لأعداد (العروة الوثقى) أن رسالته لا تنحصر فى التدريس بمعهد إقليمى صغير، ولكن رسالته الحقيقية أن يدرس الحقائق الإسلامية للعالم الإسلامى بأجمعه، وسبيله الالتحاق بركب الإصلاح والقافلة التى يقودها الأفغانى والإمام محمد عبده، أى لا بد من مهاجرة لبنان. ولم يفت فى عضده حينذاك وفاة جمال الدين الأفغانى بل دفعه إلى الإسراع بالهجرة ليرى محمد عبده فى مصر ليأخذ مكانه جواره.

وتم اللقاء سريعًا بين الرجلين، فتلقى الإمام محمد عبده ضيفه اللبنانى هاشًا مسرورًا، ولمح بفراسته ما يعتلج فى نفس رشيد رضا من آمال فى الإصلاح وكلفه الهائم بنصرة الإسلام، وإعادة مجد المسلمين.

وأسفرت اللقاءات بينهما عن ارتباط الرجلين وتعلّق التلميذ بأستاذه. . وكان من نتيجة هذه الأبوة الروحية أن دفعت الإسلام خطوات إلى التقدم بما هيّأت من أذهان وصححت من أخطاء[1].

---

(١) نفسه باختصار من ص ٢٣٨ إلى ص ٢٤٢.

• التعريف بمجلة «المنار» وأهدافها:

وهكذا رأينا أنه فى التأريخ لحركة النهضة الإسلامية فى العصر الحديث يقترن اسم الإمام محمد عبده بالإمام رشيد رضا، ففى الحديث عن الأوّل يذكر الأمير شكيب أرسلان أن من حسناته الكبرى أخذه بيد الأستاذ العلاَّمة السيد رشيد رضا فى نشر مجلّة «المنار» التى هى لسان حال ذلك المصلح العظيم وترجمان أفكاره؛ فهى والحق يقال أحسن مجلّة ظهرت فى باب الإصلاح الدينى وتطهير الإسلام من شوائب البدع وإعادته سيرته الأولى فى عهد السلف. وتأليفه مع المدنية الحاضرة، كما أن الأستاذ السيد رشيد رضا المشار إليه هو الأوْلى بأن يخلف الأستاذ الشيخ محمد عبده فى مشروعه، وفّقه الله وسدَّد خطاه[1].

وكان الإمام رشيد رضا قد أصدر مجلة المنار لسدٍّ الفراغ الذى تركته «العروة الوثقى» وحدّد فى العدد الأول أهداف المنار، وتتلخص فى إصلاح كتب العلم وطريقة التعليم، والتنشيط على مجاراة الأمم المتمدّنة فى الأعمال النافعة، وشرح الدخائل التى مازجت العقائد للأمة والأخلاق الرديئة، وبيان حقيقة التأويلات الباطلة التى شبّهت الحق بالباطل، حتى صار الجبر توحيداً، وإنكار الأسباب إيمانًا. والتسليم بالخرافات صلاحًا. والذلّة والمهانة تواضعًا، والخشوع للظلم والاستسلام للضيم رضًا وتسليمًا، والتقليد الأعمى لكل متقدّم علمًا وإيقانًا[2].

وكان لمواقف الشيخ رشيد رضا صداها فى نفس خديوى مصر: عباس الثانى، وضاق به ذرعًا فأرسل للأستاذ محمد شاكر للسعى إلى إبعاد رشيد رضا عن الإمام محمد عبده، ولكنه لم يكترث وقال له مباهيًا:

---

(١) شكيب أرسلان (حاضر العالم الإسلامى جـ١ ص ٢٨٣، دار الفكر- ط٣ ١٣٩١هـ- ١٩٧١م وتاريخ كتابة المقدّمة ١٥ ذو القعدة سنة ١٣٥١هـ.

(٢) د. محمد رجب البيومى (النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين) جـ١ ص٢٤٣، دار القلم - دمشق الدار الشامية - بيروت ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

(إن الله بعث لى بهذا الشاب ليكون مدداً لحياتى ومزيداً من عمرى، إن فى نفسى أموراً كثيرة أريد أن أقولها أو أكتبها للأمة، وقد ابتليت بما شغلنى عنها، وهو يقوم ببيانها كما أعتقد وأريد، وقد رأيت فى سفرى من آثار عمله، وتأثير (مناره) ما لم أكن أظن ولا أحسب، فهو قد أنشأ لى أحباباً لى تلاميذ وأصحاباً . . . فكيف أرضى بإبعاد صاحب المنار عنّى، وهو ترجمان أفكارى؟!)[1].

تفسير (المنار):

يرجع سبب هذا التفسير إلى ما قام به الإمام رشيد رضا من إلحاح على الإمام محمد عبده لحثه على تفسير القرآن الكريم تفسيراً عصريًّا، والرجل لا يجد فى زحمة أعماله وخصومه ما ييسّر له الوقت الهادى للتفسير والتحليل، فكان يكتفى بإلقاء دروس فى التفسير يتجه بها وجهة الإصلاح، بعيداً عن مشكلات اللغة ومنازع القواعد والاصطلاحات، وكان رشيد رضا يسجّل ما يقول، ثم يضيف إليه ما يستلزمه البحث من نقاط، ويبادر بعرضه على الأستاذ الإمام فيأذن بنشره بالمنار، حتّى إذا لحق بربّه تصدر السيد لإكمال تفسيره، فجلّى معجزة الإسلام فى عصر المدنية والضياء[2].

ويرى الدكتور محمد رجب البيومى أنه بمقارنة ما وصل إلينا من تفسير الإمام محمد عبده بما كتب من بعده الأستاذ محمد رشيد رضا نجد أن صاحب «المنار» قد وُفّق أكثر من أستاذه، لأن الشيخ محمد عبده كان ذا عقل مستنير وذهن مفكر، وروح شفّاف، ولكنه مع ذلك لم يتبحّر تبحر السيد رشيد فى دراسة الحديث النبوى، وكتب الفقه والتشريع، فجاء تفسيره مرآة لعقله اللامع وذوقه البصير وأسلوبه الرائق، وجاء تفسير رشيد رضا بحراً خضماً يموج بمختلف الحقائق الإسلامية ويستند إلى شتى النصوص الدينية، مما يشفى غلّة الصدور ويروى ظمأ الباحثين، وكانت العقول المعاصرة فى حاجة ماسة إليه؛ لأن كتاب الله عز وجل هو: كتاب الزمن، ولا بد أن يفسّر فى كل عصر بما يكشف إعجازه وينبئ عن أسراره[3].

---

(١) نفسه ص ٢٤٤.

(٢) نفسه ص ٢٤٧.

(٣) نفسه ص ٢٤٨.

ثم يقول فى النهاية (لم يفتر السيد لحظة عن الكفاح، حتى لقى ربه، بعد أن فرغ من تفسير قول الله تعالى فى سورة يوسف ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، فكان وقوفه النهائى عند هذا الادعاء الربانى دليل القبول، وإرهاص النجاة، ومسك الختام... رضى الله عنه وأرضاه)[1].

وفى مجال المقارنة بين منهجى الإمامين محمد عبده ورشيد رضا أيضًا يذكر الدكتور مصطفى السباعى أن الإمام محمد عبده كان بلا شك من أكبر رواد الإصلاح فى عصرنا الحديث. وأنه كان فى عصره فيلسوف الإسلام ولسانه الناطق وعقله المفكر وسلاحه الذائد عن حماه كل عدو وكل مفتر من الغربيين وخاصة المستعمرين منهم، ونوره المشرق تجاه الجمود الذى ران على العالم الإسلامى من مئات السنين.

ولكنه -مع هذا- كان قليل البضاعة فى الحديث، وكان يرى أن فى الاعتماد على المنطق والبرهان العقليين خير سلاح للدفاع عن الإسلام...

أما السيد رشيد رضا فيظهر أنه كان فى أول أمره متأثرًا بوجهة أستاذه الشيخ محمد عبده. وكان مثله فى أول الأمر قليل البضاعة من الحديث قليل المعرفة بعلومه، ولكنه منذ استلم لواء الإصلاح بعد وفاة الإمام محمد عبده، وأخذ يخوض غمار الميادين الفقهية والحديثية وغيرها وأصبح مرجع المسلمين فى أنحاء العالم فى كل ما يعرض لهم من مشكلات، كثرت بضاعته من الحديث وخبرته بعلومه حتى غدا آخر الأمر حامل لواء السنة، وأبرز أعلامها فى مصر خاصة؛ نظرًا لما كان عليه علماء الأزهر فى إهمال لكتب السنة وعلومها، وتبحرهم فى المذاهب الفقهية والكلامية واللغوية وغيرها.

ويقول الدكتور مصطفى السباعى فى النهاية (لقد أدركته رحمه الله فى نهاية حياته،

---

(١) نفسه ص ٢٥٠. وقد توفى رحمه الله تعالى فى يوم ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤هـ = ٢٢/ ٨/ ١٩٣٥م عن عمر قارب السبعين، ودفن فى قرافة المجاورين فى قبر بجوار أستاذه محمد عبده (إبراهيم العدوى، رشيد رضا»، ص ٢٨١/ ٢٨٣.

وكنت أتردد على بيته، فأستفيد من علمه وفهمه للشريعة ودفاعه عن السنة ما أجدنى من حق تاريخه علىّ أن أشهد بأنه كان من أشد العلماء أخذًا بالسنة (القولية)، وإنكاراً لما يخالفها فى المذاهب الفقهية)[١].

هذا، وقد سجل الإمام رشيد رضا بقلمه كيفية اختلاف منهجه فى التفسير عن منهج أستاذه بعد وفاته بقوله (هذا، وإنى لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة سواء كان تفسيراً لها أو فى حكمها، وفى تحقيق بعض المفردات، أو الجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفى الإكثار من شواهد الآيات فى السور المختلفة، وفى بعض الاستطرادات لتحقيق وسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها)[٢].

ويرى الأمير شكيب أرسلان أن مجموعة «المنار» جديرة بأن تكون المعلمة الإسلامية الكبرى التى لا يستغنى مسلم فى هذا العصر عن اقتنائها، كما أن (التفسير) الذى وفقه الله به لكشف أسرار كتابه العزيز هو من آياته الباهرة التى خلدت اسمه فى هذه الأمة، وقرنته بكبار الأئمة[٣].

● اتّباع الشيخ رشيد رضا لمنهج السلف:

أجمع كل من كتب عن رشيد رضا أنه كان متبعًا لمذهب السلف: يقول الشيخ محمد مصطفى المراغى (كان مبدؤه مبدأ جميع علماء السلف فى كل ما يتعلق بذات الإله -سبحانه وتعالى- وصفاته، وكل ما يتعلق باليوم الآخر، فهو رجل سنى سلفى يكره التقليد، وينادى بالاجتهاد ويراه فرضًا على نفسه وعلى كل من قدر عليه)[٤].

---

(١) د. مصطفى السباعى (السنّة ومكانتها فى التشريع الإسلامى) ص ٣٧ الدار القومية للطباعة والنشر بمصر ١٩٦٦/١/٥م.

(٢) تفسير المنار جـ١ ص ١٦.

(٣) حاضر العام الإسلامى جـ١ ص ٢٨٤.

(٤) البيومى (النهضة الإسلامية) جـ١ س٢٣٦.

وكان للشيخ رشيد رضا اهتمام بابن تيمية حيث نشر (الرسائل والمسائل) له ورسالة (التوسل والوسيلة). وقد =

ويقول الأمير شكيب أرسلان (ولما كان الأستاذ السيد رشيد من كبار المحدثين وله فى هذا الفن من الطول ما ليس خافيًا عن أحد، فقد امتزج خلق التمحيص بدمه ولحمه وأصبح لا ينشرح صدره إلى الخبر إلا إذا وثق بأسانيده وآمن بأمانة رجاله.

وقد يسوق الرواية من جملة طرق إلى أن يثلج بها الصدر ويطمئن لها الفكر.

وهذه طريقة السلف عندنا، لا يردون شيئًا من الأحاديث النبوية وأخبار الصحابة فحسب بل لا يردون شيئًا من الأشعار والآداب وسير البشر والحكايات إلا عنعنوه مسلسلاً، وربما أشاروا إلى درجة رجاله فقووا ولينوا كما لا يخفى على من طالع كتبهم وكانت له ألفة بطريقتهم... ثم أجرى موازنة بين طريقتهم وطريقة الأوروبيين اليوم أيضًا الذين لا يروون خبرًا ولا ينقلون جملة إلا قاموا بتوثيقها[1].

وكان من المتوقع -وهذا منهجه- أن يقف معارضًا للبدع، فوصف الأستاذ محمد فريد وجدى ثورة رشيد رضا على البدع بأنه لا يوجد لها نظير، إلا فى أفراد من السلف الصالح، فقد صمد لها صمودًا أشفق عليه منه حتى الذين كانوا يشاطرونه رأيه من العارفين، ولكنهم لم يؤتوا الشجاعة التى أوتيها، وبسبب هذا الصمود تبعه جمهور غفير ممن كانوا لا يجرؤون على مواجهة البدع ومن ثم أصبح للسنة الصحيحة أنصار مجاهدون، وحيال البدع خصوم مجاهدون[2] وله تلاميذ كثيرون: منهم الشيخ محمد حامد الفقى ويوسف ياسين، ومحمد فؤاد عبد

= عبّر عن تقديره وإعجابه البالغ بشيخ الإسلام ابن تيمية حيث علّق على رسالته بعنوان (قاعدة أهل السنة والجماعة فى رحمة أهل البدع والمعاصى ومشاركتهم فى صلاة الجماعة) فقال (هذه الرسالة من أنفس ما كتبه شيخ الإسلام وأنفعه فى التأليف بين أهل القبلة الذين فرّق الشيطان بينهم بأهواء البدع وعصبيات المذاهب على كونه أقوى أنصار السنّة برهانًا، وأبلغ المفندّين للبدع قلمًا ولسانًا، ومنهاجه فى الرد على المبتدع ببيان الحق بالأدلة وحكم ما خالفه من شرك وكفر وبدعة، مع عدم الجزم بتكفير شخص معيّن له شبهة تأويل، فضلاً عن تكفير فرقة تضم أركان الدين، فجزاه الله أفضل الجزاء على إرشاده ونصحه للمسلمين) مطبعة المنار بمصر الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ.

(١) شكيب أرسلان (حاضر العالم الإسلامى) جـ١ ص ٢٨٥.

(٢) د. البيومى (النهضة الإسلامية..) جـ١ ص ٢٤٥.

الباقي ومحمد عبد الرزاق حمزة، وأحمد محمد شاكر . . وغيرهم ممن درس المنار وتأثر به .

هذا، وبالله تعالى التوفيق، ومنه نستمد الهداية إلى أقوم طريق، وصل اللهم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الإسكندرية في:

١٨ من ذي القعدة ١٤٣٩ هـ

٢٠١٨/٧/٣١م

مصطفى بن محمد حلمي

●●●

تصدير الطبعة الثانية

نحمد الله جل ثناؤه أن جعل قبول هذا الكتاب وتأثيره فوق ما كنا نقدر ونحتسب، على ما نظن من دقة اختبارنا للعالم الإسلامى، فإنه لم يكن إلا خلاصة عامة من تفسير المنار للقرآن الحكيم، وأكثر المسلمين قد هجروا القرآن هجراً غير جميل؛ إذ باتوا يجهلون أن فيه كل ما يحتاجون إليه من حياة روحية وأدبية، وقوة سياسية وحربية، وثروة وحضارة ونعمة معيشة، بَلْهَ ما يلزم ذلك من الفوائد السلبية كدفع طغيان الأجانب عليهم، وصد عدوانهم عن بلادهم، وإنقاذهم من استذلالهم لشعوبهم.

فى القرآن كل ما ذكرت وما هو أكثر منه وأكبر، ولا يطلبونه منه، ومنهم من يطلبه من غيره -حتى الحياة الروحية يعتقدون أنه هو ينبوعها الأعظم، ويوجد فيهم من يطلبها من غيره (كالأوراد والأحزاب) بناءً على أنها مستمدة منه ويقل فيهم من يزيد عليها تلاوة ألفاظه، وإنما يتلوها تاليها منهم ومن غيرهم لأن لقارئها على كل حرف منها عشر حسنات، لا للتدبر والادكار الذى أنزل لأجله القرآن ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨، ٦٩]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٥].

إن أكثر المسلمين يجهلون أن للقرآن تأثيراً صالحًا ما فى حياتهم المعاشية والمدنية والسياسية وهى أكبر همومهم ولا مرشد لهم فيها، ويجهلون البرهان العقلى المقترن بالشعور الوجدانى، على أنه وحى الله لنبيه ورسوله ﷺ، وأن فى اتباعه سعادتهم فى دينهم ودنياهم، ولا يجدون أحداً من الذين يتولون تربيتهم وتعليمهم فى بيوتهم ولا

فى مدارسهم يقنعهم به، ويربى فيهم ملكة الوازع النفسى لاتباعه، ولا يعرفون كتابًا من كتب عقائدهم أو تفاسيره يهديهم إلى هذا، والمجهول المطلق لا تتوجه إليه النفس، فلا عجب إذا هجروا القرآن وأعرضوا عن تدبره.

إن تفسير المنار قد ألف لاستدراك هذا التقصير فى كتب التفسير، ولكنه لا يدرس فى المدارس[1] ولا يعتمد عليه فى التربية، ولا يخطر فى باب من لم يقرأه أنه يجد فيه بيان كل ما تحتاج إليه الأمة لتجديد حياتها ومجدها، ولا لدفع الغوائل عنها، ويوشك أن يكون أكثر من اطلعوا عليه لا ينوون بقراءته ما ألف لأجله من الإصلاح والهدى، وتجديد ثورته الأولى «وإنما لكل امرئ ما نوى»..

كل ما يحتاج إليه المسلمون من إصلاح وتجديد حضارة وملك متوقف فيهم على هداية القرآن وتنفيذ النبى ﷺ وخلفائه الراشدين (رضى الله عنهم) له، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها كما قال الإمام مالك (رحمه الله) وكيف السبيل إلى إقناعهم بذلك ونحن ندعوهم إلى هذا منذ ثلث قرن، وقلَّ منهم من سمع فاستجاب، واستغفر ربه وخر راكعًا وأناب، حتى أهابت بهم صيحة هذا الكتاب باسم «الوحى المحمدى» وإعجاز القرآن للبشر بما تقتضيه حضارة هذا العصر وعلومه ومشكلاته السياسية والقومية، وتحدى علماء الإفرنج بعلومه وإصلاحه؛ ودعوتهم إلى الإسلام به، لإنقاذ العالم المدنى من أخطاره، وانتياشهم من تياره، فكانت أول صيحة صخت الأسماع: فأصغت الآذان، وأشخصت الأبصار وأهطعت الأعناق، بالقرآن للقرآن، فبادر أهل الغيرة إلى ترجمته بما اختلف من اللغات. وبث دعوته فى الأقطار، فأسر ما سرنى من تأثيره إنما هو توجيه القلوب إلى هداية القرآن، وروح القرآن، وأن اشترك فيه العربى والعجمى، والسنى والشيعى والأباضى، ولا غرو فالقرآن فوق المذاهب والأجناس والأوطان، ومن آياته المحكمات ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥] ومن خطابه للرسول ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

---

(١) ولكن بعض المدرسين في الأزهر وغيره يقتبسون منه مادة لدروسهم.

وإنما مزية هذا الكتاب أنه بين إعجاز القرآن للبشر بالدلائل العلمية العصرية التى يفهمها كل قارئ، وأبرز لهم خلاصة إصلاحه للبشر مفصلة فى عشرة مقاصد، مؤيدة بالشواهد، وذكرهم بما كان من إحداثه أعظم ثورة عالمية وانقلاب دينى مدنى فى الأرض وعرض على أبصارهم ما لامراء فيه من فساد حال شعوب الحضارة الغربية، وعجز علومهم وفنونهم عن تلافى شرها وتدارك خطرها، بعبارة مختصرة. تعلوها عناوين كبيرة وفنونهم عن تلافى شرها وتدارك خطرها، بعبارة مختصرة، تعلوها عناوين كبيرة أو صغيرة، تشير إلى ما تحتها من كنوز، وما وراءها من ركاز إسلامى مركوز، فلا تتعب القارئ الكسول، ولا تنفر السامع الملول.

من الدلائل على تقبل جميع المسلمين له بقبول حسن ما أثبتناه فى التقاريظ الملحقة بهذه الطبعة، من كتب أئمة الفرق الثلاث الكبرى التى تضم الملايين من أهل القبلة، وما يرجى من مساعدتهم لنا على تعميم نشره. فأما إمام أهل السنة فإنه أبدى لنا عزمه على ذلك وكانت نسخ الطبعة الأولى قد نفدت[1] وأما إمام العترة والشيعة الزيدية فإنه عندما رآه كتب إلينا يستأذننا بطبعه فى اليمن لتعميم نشره فيه، فكتبنا إليه بأننا سنعيد طبعه منقحًا مزيدًا فيه، فكتب ثانيًا ما يراه القراء فى أول التقاريظ.

وكان قد بادر إلى المساعدة على نشره من أول وهلة صاحب السعادة السرى، عزيز عزت باشا المصرى فتبرع بثلاثين جنيهًا وزعنا بها نسخًا كثيرة فى أوربا وغيرها، وتبرع صاحب السعادة محمد صادق المجددى وزير الأفغان المفوض فى مصر بمائة نسخة منه للمؤتمر الإسلامى فى القدس ليوزعها رئيسه على فروعه فى الأقطار، وتبرع آخرون بعشرات من النسخ على من يظنون انتفاعهم بالكتاب. دع من انتدبوا للترغيب فيه، وبيعه لمن يشتريه؛ احتسابًا لوجه الله عز وجل[2].

وأما التقاريظ فقد نشرنا طائفة مما حفظناه منها لبيان آراء المسلمين فى الكتاب من

(١) قد تفضل بأخذ مئات من نسخ الطبعة الثانية ولم يقف بره عندها.

(٢) وقد وزع صاحب السعادة هارون باشا سليم أبو سحلى خمسمائة نسخة على وجهاء المنوفية إذ كان مديراً لها بإرشاده لهم وأودعه فى جميع مدارس المديرية، وتبرع صديق العرب والإسلام مستر كراين الأمريكى بثمن مئات من النسخ توزع عىى خزائن الكتب العامة، والأندية العلمية والأدبية (اهـ من الطبعة الثالثة).

تصدير الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد والشكر، إياه نعبد وإياه نستعين . .

أما بعد؛ فقد أصدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى موعد ذكرى مولد النبى ﷺ من ربيع الأول سنة ١٣٥٢ تيمنًا بظهور نوره المشرق الذى أضاء الكون كله، وإنما أضاءه بزوغ شمس هذا الوحى الإلهى ونزوله عليه، فما أتى على صدوره بضعة أشهر إلا وكانت نسخه قد نفدت . فأعدت طبعه فى تلك السنة منقحًا مزيدًا فيه قدر الثلث ونيفًا، ولولا خوف الملل على القارئين لزدته ضعفًا أو أضعافًا؛ ولذلك وعدت بأن أجعل له ثانيًا، وأصدرت الطبعة الثانية فى يوم عرفة الذى أنزل الله عليه ﷺ فى حجة الوداع ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، تفاؤلاً بتجديد هذا الكتاب لدعوته ﷺ فما جاء يوم عرفة الثانى (سنة ١٣٥٣) إلا وكانت نسخ الطبعة الثانية قد نفدت، وشرعت فى الطبعة الثالثة، وتعمدت تأخير إتمامها كالتى قبلها، لنشرها فى موعد الأولى من هذه السنة (١٣٥٤).

وفى غضون السنة الماضية تمت ترجمة الكتاب باللغة الأوردية ونشرت فى الهند وهى مترجمة من الطبعة العربية الأولى . وتمت ترجمته باللغة الصينية فيها أيضًا مرتين، ويتولى طبع الأولى فى قبو دان مترجمها الأستاذ صاحب مجلة ضياء الهلال، وحمل الثانية مترجمة الأستاذ بدر الدين الصينى من الهند إلى مصر وعرضها علىّ، وكان يريد إرسالها إلى بلد آخر فى الصين لطبعها فأشرت عليه بأن يزيد فيها كل ما زدته فى الطبعة الثانية لأنها أجمع وأنفع، ولعلها لا تطبع إلا وقد نفدت نسخ الترجمة الأولى، ولعله يعيد تنقيحها بمعارضتها على هذه الطبعة الثالثة فإنها أصح وأكمل . ولم يبلغنى أن أحدًا غير هؤلاء قد أتم ترجمته بلغة أخرى .

زدت في هذه الطبعة قليلاً من الفوائد، وإيضاحًا لبعض المسائل، وجعلت أكثرها في الحواشي كما ترى في الحاشية الثانية من ص ١٥٧ والأولى من ص ١٥٨ والحاشية (٢) من ص ١٨١ وما جعلته في الصلب أشرت إليه غالبًا كشرعية عتق الرقيق من غير المؤمنين، وليس فيها شيء من المقاصد الأصلية المقصودة بذاتها.

علمنا إذن أنه أتى على ظهور الكتاب سنتان كاملتان، فأما انتشاره بالعربية فهو فوق المعتاد في الكتب الدينية، وقد قررت وزارة المعارف العمومية المصرية في هذه السنة صرفه لطلبة دار العلوم العليا وهو يدرس في بعض المدارس الإسلامية في دمشق وبيروت.

ويرجى نشره في السنة المدرسية الجديدة أيضًا بين طلاب الأزهر والمعاهد الدينية بمصر، وقد تولى رياستها شيخ الإسلام وخليفة الأستاذ الإمام (الشيخ محمد مصطفى المراغي) الذي كان أول من قدر الكتاب قدره، وقرأ نصفه في جلسة واحدة وأتمه في جلسة أخرى، ثم كتب في وصفه تلك الكلمة البليغة التي يراها قراؤه في صدر التقاريظ، وقد تنبأ -أو بشر- بأنه سيطبع في كل عام.

ترجمة الكتاب باللغات الإفرنجية:

ولكن قصر المسلمون فيما يجب عليهم من ترجمته بسائر لغاتهم وبلغات شعوب الحضارة التي دعوناها به إلى الإسلام، وهي الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وهو واجب كفائي صرح بتمنيه كثير من أهل العلم والغيرة، وصرح بوجوبه بعض مقرظي الكتاب، فمنهم من تعسف وطالبني بهذه الترجمة أو بالسعي لها، ومنهم من أنصف وطالب به الأمة الإسلامية أو جمعياتها.

أما الأمة فلا تنهض بالأعمال العامة إلا بزعمائها أو جمعياتها، وأما هذه الجمعيات عندنا فلا تزال في سن الطفولة، ولا يرجى من أمثالها عمل عظيم كهذا، فهي أفقر وأضعف همة من جمعيات المرتدين عن الإسلام جملته وتفصيله كالبهائية، والملاحدة المدعين للنبوة، والمسيحية فيه كالقاديانية، دع جمعيات النصارى التعليمية والتنصيرية التي تملك مئات الملايين من الجنيهات، وقد بثوا تعاليمهم في جميع أقطار الأرض وهم

يطمعون فى تنصير المسلمين، على حين تتسلل شعوبهم من النصرانية سراعًا بسلطان ونظام كالشعب الجرمانى، أو لو إذا بدون سلطان دولى ولا نظام كسائر الشعوب، وهى تمهد السبيل لنسخ الإسلام لها، وحلوله محلها.

ولقد كان أرجى الجمعيات الإسلامية لهذا فى مصر «جمعية الدفاع عن الإسلام» التى هدمت باسم أقوى معول من معاول الإسلام قبل أن يتم بناؤها، وإنما كان هذا الرجاء فيها منوطًا برئيسها الشيخ محمد مصطفى المراغى، وما كان السعى لهدمها إلا سعيًا لهدم اسمه، وحرمان المسلمين من استعداده، ولكن الله نصره، وخذل من ناهضه، وجعل معول الهدم الذى كان بأيديهم سيفًا لنصر الإسلام بيده، فإذا بعصى موسى تلقف ما يأفك سحر فرعون ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨]، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

فإن كان أهلاً للرجاء بأن يسعى لترجمة كتاب الوحى المحمدى ببعض لغات العلم الغربية تمهيدًا لتبليغ الدعوة الإسلامية للناطقين بها -وتلك القوة الرسمية تكيد له- فأجدر به أن يكون أقدر على تحقيق ذلك بالفعل، وتلك القوة الرسمية وما وراءها من القوة الحقيقية طوع يده، ولن تكون ترجمة هذا الكتاب فى موضع الثقة بها عند جميع الشعوب كما إذا كانت من قبل شيخ الإسلام وتحت إشرافه، وكان نشره وبث الدعوة به بإرشاده أو إجازته، مع العلم بأن مؤلفه قلم من أقلامه، وعلم من أعلامه، وأحمد الله عز وجل أن جدد لى وللأمة بعودته إلى مشيخة الأزهر ذلك الأمل بالزعامة الإسلامية العاملة التى فقدناها بوفاة الأستاذ الإمام منذ ثلاثين سنة[1].

إن الأمة لم تفقد بوفاة ذلك الإمام شيئًا من علم الإسلام، وإنما فقدت زعيم الإصلاح العارف بحاجة زمانه، الذى نال الزعامة بسمو عقله، واستقلال رأيه وفهمه، وعلو همته وشجاعته، وإنصافه بإعطاء كل ذى حق حقه من العلم الصحيح والإخلاص فيه، وما كان يعوده للنهوض بالإصلاح العام إلا الاستقلال بالزعامة التى تمكنه من العمل؛ ولهذا كنا نسعى، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب.

---

(١) ذلك كان ظن السيد رحمه الله بالشيخ المراغى وقد تبين لكليهما الحق.

إذن لقد كان من حكمة الله أن «كتاب الوحى المحمدى» لم يترجمه بلغات الإفرنج من ليسوا أهلاً لترجمته حتى لا أضطر إلى تخطئتهم، فيكون ذلك محبطًا لعملهم أو مضعفًا للثقة بترجماتهم، وادخرها العليم الحكيم لمن هو أحق بها وأهلها.

بلوغ الدعوة لأحرار الإفرنج، والمستشرقون منهم:

لن يكون بلوغ الدعوة صحيحًا مرجوًا إلا بوصولها إلى الأحرار مستقلى الفكر من هذه الشعوب بلغاتهم، وأكثر أفراد المستشرقين الذين تعلموا العربية ليسوا من هؤلاء الأحرار المستقلين المنصفين، فإنهم ما درسوا العربية ولا مارسوا كتب الإسلام ليعرفوا حقيقته ويعرفوا غيرهم بها، بل ليبحثوا عن عورات يتلمسونها فيها لينفروا أقوامهم عنه بتصويرها لهم بالصور المشوهة التى ينكرونها، كما نرى فيما اطلعنا عليه من كتبهم وفى معجمهم العلمى الذى وسموه بدائرة المعارف الإسلامية، ومن خيبة الآمال بعلمهم ومصنفاتهم أن وجدت كتاب (مفتاح كنوز السنة) على غير ما كنت ظننت وخلاف ما قلت فى التعريف به، فإننى لم أستفد منه أدنى فائدة.

وأما المستقلون منهم وهم الأقلون فقد غلبتهم الأفكار المادية على عقولهم فقضاياها عندهم مسلمات كأنها لا مجال للبحث فيها، وقد قربنا مسافة الخلف بيننا وبينهم بما أقمناه فى هذا الكتاب من البينات العلمية القطعية، على أن القرآن لا يمكن أن يكون من كلام محمد ﷺ ولا من مدارك عقله الظاهر ولا ما يسمونه العقل الباطن، فإذا فرضوا أن للإنسان عقلاً باطنًا لا تُعرف حقيقته يدرك به من علم الغيب والشهادة ما هو خفى وخارق للعادة فى السنن المعروفة لكسب العلم من الحواس والفكر، وعللوا به ما يسمونه قراءة الفكر ومراسلة الأفكار، وإدراك المنوم بالاستهواء المغناطيسى -وقد بينا لهم أنه لا يكفى لتعليل الوحى المحمدى- فأى بعد بين هذا العقل الخفى المفروض فى باطن الإنسان وبين وجود عقل خفى مثله فى خارجه (وهو ما نسميه الملك كما نسمى الأول الروح) يكون الوحى الحقيقى باتصال أحدهما بالآخر كاتصال الكهربائية الإيجابية بالسلبية وتولد النور من اتصالهما، فإن ما زعموه من انقداح وحى القرآن من عقل محمد ﷺ الباطن

وحده محال كما قررنا، وهذا أقرب التعليلين، والفرق بينهما قريب جداً فما ثم إلا اختلاف الأسماء.

وفوق هذا وذاك قيام البراهين الكثيرة على وجود الله الخالق لكل شيء الذى دون الإيمان به لا يمكن القطع بشيء من مسائل الكون وسننه، فإنهم كلما أثبتوا شيئًا عادوا فنفوه، وكلما أبرموا أمرًا نقضوه.

لقد قرب ظهور الحق لأحرار هذه الشعوب وسنراهم بعد ترجمة هذا الكتاب يدخلون إن شاء الله فى دين الله أفواجًا، وقد بطلت ثقتهم بكل ما عداه من الأديان.

ولعل كتاب الوحى المحمدى قد وصل إلى جميع هؤلاء المستشرقين الذين يعرفون العربية؛ فإننى أهديته إلى من عرفت عناوينهم وأرسله غيرى إلى أناس منهم، ومن عاداتهم أن يبحثوا عن كل كتاب جديد له شأن، وقد شكر لى بعضهم هذه الهدية بكلمة لم يزد عليها (كصاحب مفتاح كنوز السنة الدكتور فنسنك) وانفرد العلامة الدكتور موريتس الألمانى منهم بإبداء رأى فيه، فأنشر هنا نص كتاب الشكر الذى تفضل به وهو:

برلين ٨ سبتمبر سنة ١٩٣٣.

جناب الشيخ العلامة السيد محمد رشيد رضا المحترم.

بعد التحية والاحترام فتفضلتم بإرسال إلىَّ نسخة كتابكم الجديد «الوحى المحمدى» فالرجاء قبول جزيل الشكر على هذه الهدية النادرة القيمة وبالخصوص على ما أظهرتم بها من عدم نسيان شخصى، ولا حاجة للتأكيد لكم أنى اطلعت عليه بغاية الاهتمام ولا ريب عندى أنه يجد كمثله فى عالم العلماء.

وفى أثناء هذا الاطلاع قد عثرت على جملة مسائل ونقط تستحق ملاحظات، لكن نظرًا لحجم هذا الجواب الذى لا يتسع أن أدخل فى جميعها أقتصر بواحدة منها أى فى معنى كلمة نبيء الأصلى «ص ٢١» عند العبرانيين القدماء فكان (نبيئًا) فى أوائل عصرهم المتكلم بصوت عال ثم الناطق فى أمور أمته القضائية والسياسية أى مثل ناصح ومستشار لإرشادها، لكن شيئًا فشيئًا تتبعًا لتقدم الدين الإسرائيلى تغير موقعه وصفته

فصار واعظًا وناصحًا فى الأمور الدينية؛ لأنه كان معتقدًا أن هذه الوظيفة صارت له بناءً على أمر من الله بذلك، وأنه المتكلم باسم الله، والدليل على ذلك أنه يستعمل فى أول كلامه أى نبوته هذه الكلمات: هكذا قال ياهو (وهو اسم إله بنى إسرائيل وغيرها من الأمم الشرقية المنتشرة بين الحجاز وبين سوريا الشمالية) إلخ.

وفى الختام أكرر لكم الشكر الواجب مع تمنياتى الصميمة.

المخلص

دكتور موريتس

يقول هذا العلامة الكبير: إن هذه الهدية نادرة القيمة، وإنه اطلع على الكتاب بغاية الاهتمام، وأنه لا يرتاب فى أنه يجد فى عالم العلماء ما ينبغى لكتاب مثله، فهؤلاء العلماء قد بلغتهم دعوته، وفهموا ما تحديتهم به من الآية الكبرى على نبوة محمد ﷺ وما نزل عليه من وحى القرآن، ولم يقدر أحد منهم أن ينقضها، أو يأتى بتعليل لهذه المعجزة الدالة على إتيان محمد ﷺ بهذا القرآن فى أسلوبه ومعانيه وما فيها من العلوم العالية التى لخصتها فى المقاصد العشرة ولتأسيس أقوم دين وأقوى دولة وأمة فى عشر سنين قلبا أعظم دول الأرض وأديانه فى ثلث قرن.

وما ذكره الدكتور من الملاحظة على بعض مدلول لفظ النبى عند اليهود فهو منقول من قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوسط، وقد ذكرت المعنى الذى أشار إليه فى كلامه على النبوة من الطبعة الثانية (ص ٢٥) وهو فى (٤١) من الطبعة الثالثة.

ولا أزال أتمنى لو يتفضل علىّ بغير هذه الملاحظة وأخص بالذكر ما عساه ينتقده من جوهر الموضوع ولبابه، وإذن أرويه عنه بنصه وأبلغه جوابى عنه.

تعادى الأمم والدول وحاجتها إلى الإسلام:

لا تزال دول أوربا وأمريكا وشعوبهما على ما وصفتهما به فى مقدمة هذا الكتاب من الشقاء والشقاق، والرياء والنفاق، وقد عقدوا فى هاتين السنتين مؤتمرًا بعد مؤتمر واتفاقًا بعد اتفاق، ولا يزالون كحمار الرحى يدور ولا يبرح مكانه، ليس للحق ولا

للصدق عندهم قيمة، فقد ظلوا منذ عقدوا عهد (فرسايل) يجرون فيه مع ألمانية على قاعدة البرنس بسمارك «المعاهدات حجة القوى على الضعيف» حتى اضطروها إلى نقضها سرًا كما نقضوها جهرًا وتجديد قوة حربية جوية يرهبونها أذعنوا لمساواتها لهم فى الحقوق والكرامة الدولية كرهًا، وكانوا يمارون فيها ويأبونها طوعًا، بل صاروا يخافونها أن تسطو عليهم، ويجددون المخالفات الدفاعية التى أفضت إلى الحرب العامة السابقة. حتى ذلوا لمحالفة الدولة الشيوعية عدوتهم كلهم، وأنى لهم الفرار من حكم كتاب الله فى الأمر بالوفاء بالعهود والنهى عن جعلها دخلاً وخداعًا لأجل أن تكون أمة هى أقوى من أمة، فتكون المعاهدات أنكاثًا لا مندوحة عن نقضها كما بينا ذلك فى محله[1].

بغوا واستعلوا على ألمانية وهم يعلمون أنها تعلوهم علمًا وصناعة ونظامًا، وفرائصهم ترتعد فرقًا من استعدادها السرى للحرب، وقد ذاقوا بطشتها القاهرة التى كادت تفتك بهم كلهم من قبل، ولكنهم اتكلوا على خداع معاهدتهم الخاطئة الكاذبة، وعلى تجديد محالفاتهم التى قصدوا بها أن يكونوا إلبًا واحدًا عليها، وأن تكون فى عزلة لا تجد فيها وليًا ولا نصيرًا.

صاح زعيمها المجدد (هتلر) صيحة ينقض تلك المعاهدة، وتجديد السلام الجوى والبحرى والتعبئة، فراعتهم كزئير الأسد يجفل الغنم، وقالوا إن سلم أوربا وحربها رهن يديه، وعمرانها وخرابها بين شفتيه، وظلوا يصيخون السمع لما سيقوله فى خطابه السياسى العام، حتى إذا ما ألقاه كان حجة بالغة له دامغة لخصومه، وصادعة لآخر حصن لدول الاتحاد الثلاث فى وجهه (اتفاق ستريزا). فعادت إنكلترا تفاوض ألمانية فى قواتها الجوية والبحرية وكانت تستكبر عن هذا، وكشرت عن أنيابها لإيطاليا فيما تحشره من جيوش وذخائر للعدوان على دولة الحبشة المعتصمة معهم بعهد عصبة الأمم، الذى هو فى نظرها كسائر العهود الأوربية حجة القوى على الضعيف، وقد رأوا كيف رفضته بل رفسته كل من اليابان وألمانية برجلها، ولكن البلية كل البلية فى تعارض

---

(١) راجع ص ١٤٨ طبعة أولى، و٢٥٢ طبعة ثانية، وص ٢٧٠ طبعة ثالثة.

مطامع الأقوياء، فزعيم إيطاليا مغتر بقوتها جامح لفتح الحبشة أو نقصها من أطرافها، وانكلترا أعز منها وأقوى، وإن هذا لصدع فى اتحاد هؤلاء الأحلاف لا يلتئم، فهذا الزعيم المعتز بسلطانه الشخصى يرى خيبته بعد الشروع فى وسائل الزحف قضاء على نفوذه، وأمته فى اضطراب لا ينقذها منه إلا فوزه فيه. وألمانيا لا بد لها من استعادة جميع مستعمراتها، وهى أقدر على إخضاع انكلترة فى الهواء والماء، وماذا تفعل فرنسا إذا تركتها انكلتره؟

وجملة القول إن هذه الدول وشعوبها لا تزال ولن تزال على ما وصفناها به فى مقدمة الطبعة الأولى للكتاب من فساد لا علاج له إلا هداية الإسلام، دين الأخوة الإسلامية والعدل والرحمة والسلام، فيجب المبادرة إلى تبليغ دعوته، وإقامة حجته، وهو قد أعد عقلاء المسلمين لتعميم هذه الدعوة عندما ينهض زعيم مسلم لكفالتها وتوحيد النظام لها، ويرى قارئه الشواهد على هذا فيما نشرناه من التقاريظ فى آخره، وفى مقدمتها قول شيخ الإسلام المراغى لمؤلفه «إنكم وفقتم لفتح جديد فى الدعوة إلى الدين الإسلامى» إلخ. وسائرها مؤيد لقوله، يدل على استعداد فى الأمة لتنفيذه.

استعداد المسلمين لدعاية الإسلام:

ذكرت فى آراء شيخنا الأستاذ الإمام من تاريخه (ص ٩٣٩ ج ١) أن أمم الحضارة فى الغرب سيذوقون من فتن مدنيتهم ومفاسدها السياسية ما يضطرهم إلى طلب المخرج منها فلا يجدونه إلا فى الإسلام -إسلام القرآن والسنة لا إسلام المتكلمين والفقهاء- وأنه صرح بهذا مراراً فى دروسه فى الأزهر وفى غيره.

وأقول الآن: لكنه ما سمع لقوله هذا صدى، ولا وجد على نار المسلمين هدى. فكان يرجح أن هداية القرآن ستظهر فى غيرهم من الشعوب الحية، وأن هؤلاء المسلمين الجغرافيين سيطلبون إسلام القرآن والسنة منهم تقليداً لهم كما يقلدونهم فى الزينة والإباحة والإسراف فى الشهوات الذى أفسدهم جميعًا.

وسمعت مثل هذا الرأى من الأستاذ المراغى وغيره من الأفراد، ولعلى أوسع علمًا واختباراً لمسلمى الأقطار من كل هؤلاء وأجدر منهم بسوء الظن فيهم، ولكن ظهر لى

بتقبل عقلائهم لكتاب «الوحى المحمدى» بما تقبلوه به من إيمان وشهادة ورجاء وثناء ودعاء، أن استعدادهم لهداية القرآن والدعاية له قد دخل فى طور جديد.

ألم تر كيف تجاوبت أصوات المقرظين له فى مصر وسوريا والعراق وغيرها من الأقطار بقول القائلين: إنهم كانوا يفكرون ويتمنون ويتساءلون قبله عن كتاب يصلح للدعوة إلى الإسلام فلا يجدون، حتى إذا رأوه وجدوه الضالة التى ينشدون؟ أو لم تر كيف شاركهم فيها أئمة المسلمين وملوكهم المتقون؟

فعلم من هذا أن المسلمين لا يمكن أن تعود إليهم الحياة إلا بمثل ما بدأت به سلفهم من روح القرآن وهدى الرسول ﷺ كما قال الإمام مالك: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وما ذلك إلا أن يكونوا على علم بالقرآن يوقنون به أنه مصلح لجميع البشر. وأن حملته يجب أن يكونوا أئمة البشر وهداتهم، والمصلحين لما أفسدته المدنية المادية من عقائدهم وأخلاقهم. فإن لم يملكهم هذا اليقين فلا رجاء فى دينهم ولا دنياهم، ولكن نشر هذا اليقين فيهم يتوقف على نظام، وزعامة يثق بها الخاص والعام، وسيرون الدعوة له تبث فى هذا العام، وسنرى قدر استعدادهم لتأييدها بأموالهم وأنفسهم فيسرنا إن شاء الله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

●●●

مقدمة الطبعة الأولى

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٨ - ٢٠].

ارتقاء البشر المادى، وهبوطهم الأدبى، وحاجتهم إلى الدين:

إن من المعلوم اليقينى الثابت بالحواس أن علوم الكون المادية تثب فى هذا العصر وثوبًا يشبه الطفور، وتؤتى من الثمار اليانعة بتسخير قوى الطبيعة للإنسان ما صارت به الدنيا كلها كأنها مدينة واحدة، وكأن أقطارها بيوت لهذه المدينة، وكأن شعوبها عشائر وفصائل لأمة واحدة فى هذه البيوت (الأقطار) يمكنهم أن يعيشوا فيها إخوانًا متعاونين، سعداء متحابين، لو اهتدوا بالدين.

وإن من المعلوم اليقينى أيضًا أن البشر يرجعون القهقرى فى الآداب والفضائل على نسبة عكسية مطردة لارتقائهم فى العلوم المادية واستمتاعهم بثمراتها، فهم يزدادون إسرافًا فى الرذائل، وجرأة على اقتراف الجرائم، وافتتانًا فى الشهوات البهيمية، ونقض ميثاق الزوجية، وقطيعة وشائج الأرحام، وعقوق الوالدين، ونبذ هداية الأديان، حتى كادوا يفضلون الإباحة المطلقة على كل ما يقيد الشهوات من دين وأدب وعرف وعقل، بل رجع بعضهم إلى عيشة العرى فى أرقى ممالك أوربا وأمريكا علمًا وحضارة، كما يعيش بعض بقايا الهمج السذج فى غابات أفريقيا وبعض جزائر البحار النائية عن العمران.

وإن من المعلوم اليقيني أيضًا أن الدول الكبرى لشعوب هذه الحضارة أشد جناية عليهم وعلى الإنسانية من جنايتهم على أنفسهم -بإغرائها أضغان التنافس بينهم، وباستعمالها جميع ثمرات العلوم ومنافع الفنون في الاستعداد للحرب العامة التي تدمر في أشهر أو أيام معدودة، صروح العمران التي شيدتها العصور الكثيرة. وتفنى الملايين فيها من غير المحاربين كالنساء والأطفال والشيوخ، ويصرفها معظم ثروات شعوبها في هذه السبيل، وفي سبيل ظلمها للشعوب الضعيفة التي ابتليت بسلطانها، وسلبها لثروتهم وحريتهم في دينهم ودنياهم. فالعالم البشري كله في شقاء من سياسة هذه الدول الباغية الخبيثة الطوية. وكل ما عقد من المؤتمرات لدرء أخطارها لم يزد نارها إلا استعارًا، ولو حسنت نياتها وأنفقت هذه الملايين التي تسلبها من مكاسب شعوبها وغيرهم في سبيل الإصلاح الإنساني العام، لبلغ البشر بها أعلى درجات الثراء والرخاء.

كل ما ذكر معلوم باليقين، فهو حق واقع، ما له من دافع.

وإن من المعلوم من استقراء تاريخ هذه الحضارة المادية أن هذه الشرور كانت لازمة لها، ونمت بنمائها، فكان هذا برهانًا على أن العلوم والفنون البشرية المحض غير كافية لجعل البشر سعداء في حياتهم الدنيا، فضلاً عن سعادتهم في الحياة الآخرة، وإنما تتم السعادتان لهم بهداية الدين، فالإنسان مدني بالطبع، ومتدين بالطبع، أو بالفطرة كما يقول الإسلام.

من أجل ذلك فكّر بعض عقلاء أوربا وغيرهم في اللجوء إلى هداية الدين وأنه هو العلاج لأدواء هذه الحضارة المادية والترياق لسمومها، وتمنوا لو يُبعث في الغرب أو في الشرق نبي جديد بدين جديد يصلح الله بهدايته فسادها، ويقوِّم بها منآدها؛ لأن الأديان المعروفة لهم لا تصلح لهذا العصر وقد فسد حال جميع أهلها[1] وكان من يسمون دينهم دين المحبة، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [المائدة: ١٤].

(١) أول من نقل لنا هذا الرأي جريدة السياسة منذ سنين ثم تكرر نقله.

بيد أن هؤلاء المفكرين لا يعرفون حقيقة دين القرآن، وهو الدين الإلهى العام، والمانع لهم من معرفته ثلاثة حجب تحول دون النظر الصحيح فيه، وعدم فهمهم للقرآن كما يجب أن يفهم. فأما الحجب دونه فهذا بيانها بالإيجاز:

الحجب بين الإفرنج وحقيقة الإسلام:

- (الحجاب الأول): الكنيسة أو الكنائس التى عادته منذ بلغتها دعوته؛ وطفقت تصوره بصور مشوهة باطلة، بدعاية عامة فيها من افتراء الكذب وأقوال الزور والبهتان ما لم يعهد مثله فى أهل ملة من البشر فى زمن من الأزمان، وألفت فى ذلك من الكتب والرسائل، والأغانى والأناشيد والقصائد، ما يعرف بطلانه كل مؤرخ مطلع على الحقائق ثم إنها جعلت تشويهه ووجوب معاداته ركنًا من أركان التربية والتعليم فى جميع مدارسها والمدارس التى يتولى خريجوها تعليم الناس فيها، فما من أحد يتعلم فيها من أتباعها إلا وهو يعتقد أن جميع المسلمين أعداء للمسيح والمسيحيين كافة. فيجب عليه عداوتهم ما استطاع. والحق الواقع أن الإسلام هو صديق المسيحية المتمم لهدايتها، وأن محمداً ﷺ هو الفارقليط روح الحق الذى بشر به المسيح عليه السلام[1].
- (الحجاب الثانى): رجال السياسة الأوربية؛ فإنهم ورثوا عداوة الإسلام من الكنيسة وتلقوا مفترياتها فى الطعن عليه بالقبول، وضاعف هذه العداوة له والضراوة بحربه، طمعهم فى استعباد شعوبه واستعمار ممالكهم.

وإذا كان رجال الدين قد ملأوا الدنيا كذبًا وافتراءً على الإسلام -ومن أسس الدين الصدق وقول الحق والحب والرحمة والعدل والإيثار- فأى شىء يكثر فعله على رجال السياسة وأساس بنائها الكذب وأقوى أركانها الجور والظلم والعدوان، والقسوة والأثرة والخداع، وهو ما نراه بأعيننا ونسمع أخباره بآذاننا كل يوم فى المستعمرات الأوربية؟ بل نحن نعلم أن سبب افتراء رجال الدين على الإسلام هو السياسة لا الدين نفسه، وأن قاعدتهم المشهورة «الغاية تبرر الواسطة» سياسة لا إنجيلية، فما كان لدين أن يبيح الجرائم والرذائل باتخاذها وسيلة لمنفعة أهله وإن دينية.

(١) راجع آخر الفصل (١٥) وأوائل (١٦ : ١٢-١٤) من إنجيل يوحنا.

- (الحجاب الثالث): سوء حال المسلمين فى هذه القرون الأخيرة؛ فقد فسدت حكوماتهم وشعوبهم، واستحوذ عليهم الجهل بحقيقة دينهم ومصالح دنياهم، حتى صاروا حجة لأعدائهم فيها على أنه لا خير فيهم ولا فى دينهم، وأمكن هؤلاء الأعداء أن يفتنوا بهذه الحجة الداحضة أكثر من يتخرج فى مدارسهم السياسية الإلحادية، والدينية التنصيرية، من أبناء ملتهم أو جلدتهم ومن غيرهم، حتى نابتة المسلمين أنفسهم أيضًا، وهم يختارون من هذه النابتة الأفراد التى تتولى أعمال الحكومة والتعليم فى مدارسها فى كل قطر خاضع لنفوذ دولهم الفعلى بأى اسم من أسمائه. من فتح وامتلاك وحماية واحتلال وانتداب، أو لنفوذهم السياسى والتعليمى كما فعلوا فى بلاد الترك وإيران؛ لتساعدهم على هدم كل شىء إسلامى فيها من اعتقاد وأدب وتشريع.

وقد كان السيد جمال الدين الأفغانى حكيم الإسلام وموقظ الشرق يرى أن هذا الحجاب أكثف الحجب الحائلة بين شعوب أوربة الحرة والإسلام، ونقل لى الثقة عنه أنه قال: إذا أردنا أن ندعو أحرار أوربا إلى ديننا فيجب علينا أن نقنعهم أولاً أننا لسنا مسلمين، فإنهم ينظرون إلينا من خلال القرآن هكذا -ورفع كفيه وفرج بين أصابعهما- فيرون وراءه أقوامًا فشا فيهم الجهل والتخاذل والتواكل... فيقولون لو كان هذا الكتاب حقًا مصلحًا لما كان أتباعه كما نرى.

لا ننكر أن بعض أحرار الإفرنج قد عرفوا من تاريخ الإسلام ما لم يعرفه أكثر المسلمين، فأنصفوه فيما كتبوا عنه من تواريخ خاصة، ومن مباحث عامة فى العلم والحضارة والدين، وأن منهم من اهتدى به عن بصيرة وبينة؛ ولكن ما كتبه هؤلاء كلهم لم يكن مبينًا لحقيقته كلها، ولم يطلع عليه إلا القليل من شعوبهم، وكان جل تأثيره فى أنفس من اطلعوا عليه أن بعض الناس أخطأوا فى بيان تاريخ المسلمين فانتقد عليهم آخرون، فهو لم يهتك الحجب الثلاثة المضروبة بينهم وبين حقيقة الإسلام.

وأما عدم فهمهم للقرآن كما يجب -وأعنى به الفهم الذى تُعرف به حقيقة إعجازه وتشريعه وأدبه وإصلاحه، وكونه هو دين الله الأخير الكامل الذى لا يحتاج البشر معه

إلى كتاب آخر ولا إلى نبى آخر- فلعله أربعة أسباب خاصة، وراء تلك الحجب العامة وهى:

الأسباب العائقة عن فهم الأجانب للقرآن:

جهل بلاغة القرآن:

(أولها) جهل بلاغة اللغة العربية التى بلغ القرآن فيها ذروة الإعجاز فى أسلوبه ونظمه وتأثيره فى أنفس المؤمنين والكافرين به جميعًا، فأحدث بذلك ما أحدث من الثورة الفكرية والاجتماعية فى العرب والانقلاب العام فى البشر كما شرحناه فى هذا الكتاب. وقد كان من إكبار الناس لهذه البلاغة أن جعلها أكثر علماء المسلمين موضوع تحدى البشر بالقرآن دون غيرها من وجوه إعجازه، وجعلوا عجز العرب الخلص عن معارضته بها، ثم عجز المولدين الذين جمعوا بين ملكة العربية العملية وملكة فلسفتها من فنون النحو والبيان، هو الحجة الكبرى على نبوة محمد ﷺ وقد فقد العرب الملكتين منذ قرون كثيرة إلا أفرادًا متفرقين منهم - فما القول فى غيرهم؟ فعلماء المسلمين فى هذه القرون يحتجون بعجز أولئك ولا يدعون أنهم يدركون سر هذا الإعجاز أو يذوقون طعمه، بل قال بعض علماء النظر المتقدمين منهم إن الإعجاز واقع غير معقول السبب فما هو إلا أن الله تعالى صرف الناس عن معارضته بقدرته. والصواب أن منهم من حاول المعارضة فعجزوا؛ إذ ظنوا أن إعجازه بفواصل الآيات التى تشبه السجع فقلدوها فافتضحوا، ومن متأخرى هؤلاء من ادعى النبوة كمسيح الهند القاديانى الدجال، ومن ادعى الألوهية (كالبهاء) وقد أخفى أتباع هذا كتابه الملقب بالأقدس لئلا يفتضحوا به بين الناس وأضعف منه وأسخف بيان أستاذه الباب.

قصور ترجمات القرآن وضعفها:

(ثانيها) أن ترجمات القرآن التى يعتمد عليها علماء الإفرنج فى فهم القرآن كلها قاصرة عن أداء معانيه التى تؤديها عباراته العليا وأسلوبه المعجز للبشر، وهى إنما تؤدى بعض ما يفهمه المترجم له منهم إن كان يريد بيان ما يفهمه، وإنه لمن الثابت عندنا أن

بعضهم تعمدوا تحريف كلمه عن مواضعه، على أنه قلما يكون فهمهم تامًا صحيحًا، ويكثر هذا فيمن لم يكن به مؤمنًا، بل يجتمع لكل منهم القصوران كلاهما: قصور فهمه وقصور لغته. وقد اعترف لى ولغيرى بهذا مستر مارماديوك بكتل عن (محمد) ﷺ الذى ترجمه بالإنكليزية وجاء مصر منذ ثلاث سنوات فعرض على بعض علماء العربية، المتقنين للغة الإنكليزية ما رأى أنه عجز عن أداء معناه منه، وصحح بمساعدتهم ماذا كرهم فيه[1].

واعترف بذلك قبله الدكتور ماردريس المستشرق الفرنسى الذى كلفته وزارتا الخارجية والمعارف الفرنسية لدولته ترجمة ٦٢ سورة من السور الطوال والمئين والمفصل التى لا تكرار فيها ففعل، فقد قال فى مقدمة ترجمته التى صدرت سنة ١٩٢٦ ما معناه بالعربية:

«أما أسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق جل وعلا، فإن الأسلوب الذى ينطوى على كنه الكائن الذى صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهيًا، والحق الواقع أن أكثر الكتّاب ارتيابًا وشكًا قد خضعوا لسلطان تأثيره (فى الأصل: لتأثير سحره -يعنى تأثيره الذى يشبه السحر فى كونه لا يُعرف له سبب عادى) وأن سلطانه على الثلمائة الملايين من المسلمين المنتشرين على سطح المعمورة لبالغ الحد الذى جعل أجانب «المبشرين» يعترفون بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن[2].

«ذلك أن هذا الأسلوب الذى طرق فى أول عهده آذان البدو[3] كان نثرًا جد طريف، يفيض جزالة فى اتساق نسق، متجانسًا مسجعًا، لفعله أثر عميق فى نفس كل سامع يفقه العربية. لذلك كان من الجهد الضائع غير المثمر أن يحاول الإنسان أداء تأثير

(١) ولا تزال ترجمته ناقصة ويلغنى أنه سيصححها مرة أخرى.

(٢) ما يسمع من تنصر بعض المسلمين ما هو إلا إكراه لبعض العوام الجاهلين أو استمالة لبعض الفقراء منهم بالمال، أو تربية لبعض الأطفال.

(٣) يعنى العرب الذين كانت تغلب عليهم البداوة حتى في حواضرهم كمكة ويثرب.

هذا النثر البديع «الذى لم يُسمع بمثله» بلغة أخرى، وخاصة اللغة الفرنسية الضيقة (التى لا سعة فيها للتعبير عن الشعور) المرثة[1] «التى لا تتنازل عن حقوقها» والقاسية. وزد على ذلك أن اللغة الفرنسية ومثلها جميع اللغات العصرية ليست لغة دينية، وما استعملت قط للتعبير عن الألوهية» اهـ.

ثم تكلم عن عنايته هو مدة تسع سنوات متواليات بمحاولة نقل شىء من القرآن إلى اللغة الفرنسية على شرط المحافظة على بلاغة الأصل، وتساءل: هل أمكنه التغلب على هذه الصعوبة أم لا؟ يعنى أنه يشك فى ذلك.

أسلوب القرآن المخالف لجميع أساليب الكلام.

(ثالثها) أن أسلوب القرآن الغريب المخالف لجميع أساليب الكلام الغربى وغيره، وطريقته فى مزج العقائد والمواعظ والحكم والأحكام والآداب بعضها ببعض فى الآيات المتفرقة فى السور -وهو ما بيّنا سببه وحكمته فى هذا الكتاب- قد كان حائلاً دون جمع كبار علماء المسلمين من المفسرين وغيرهم لكل نوع من أنواع علومه ومقاصده فى باب خاص به، كما فعلوا فى آيات الأحكام العملية من العبادات والمعاملات، دون القواعد والأصول الاجتماعية والسياسية والمالية التى يرى القارئ نموذجها فى هذا الكتاب؛ إذ لم يكونوا يشعرون بالحاجة إليها كما نشعر فى هذا العصر.

وقد عُنى بعض الإفرنج[2] بوضع كتاب باللغة الفرنسية جمع فيه آيات القرآن بحسب معانيها، ووضع كلا منها فى باب أو أبواب خاصة بقدر فهمه، ولكنه أخطأ فى كثير من هذه المعانى وقصر فى بعض مما علمه، وما جهله منها عظيم، ذلك بأن أخذ القواعد والأصول العامة[3] من هذه الآيات يتوقف على العلم بسيرة النبى ﷺ وسنته

(١) مؤنث المرث كتعب: الصبور على الخصام، الذى لا يتنازل عن حقه.

(٢) هو المستشرق العلامة المسيو جول لابوم.

(٣) أى لا يكفى فى فهمها العلم بمتن اللغة العربية، وقواعدها وبلاغتها وفقهها.

في بيان القرآن وتنفيذه لشرعه، وآثار خلفائه وعلماء أصحابه ﷺ من بعده، كما يعلم من يراجع في ذلك الكتاب الآيات الدالة على ما بيناه في كتابنا هذا من مقاصد القرآن بالاختصاص، وما فصلناه منها في تفسير المنار.

(رابعها) الإسلام ليس له دولة ولا جماعات:

إن الإسلام ليس له دولة تقيم القرآن وسنة الرسول ﷺ بالحكم وتتولى نشره بالعلم، ولا جماعات دينية تتولى بحمايتها الدعوة إليه بالحجة، وليس لأهله مجمع ديني علمي يرجع إليه في بيان معاني القرآن وهدايته في سياسة البشر ومصالحهم العامة التي تتجدد لهم بتجدد الحوادث ومخترعات العلوم والفنون وفيما يتعارض بين العلوم ونصوص الدين، فيرجع إليها علماء الإفرنج في استبانة ما خفي عليهم من نصوصهما.

وأعجب من هذا وأغرب أن المسلمين أنفسهم قد تركوا من بعد خير القرون الأولى أخذ دينهم من القرآن المنزل ومن بيان الرسول ﷺ له كما أمره الله تعالى فيه بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] وما زالوا يهجرون الاهتداء بهما حتى استغنوا عنهما استغناءً تامًا بأخذ عقائدهم من كتب المتكلمين، وأخذ أحكام عباداتهم ومعاملاتهم عن كتب علماء المذاهب غير المجتهدين، وهذه الكتب لا تقوم بها حجة الله تعالى على البشر، ولا سيما أهل هذا العصر الذي ارتقت فيه جميع العلوم العقلية والتشريعية، حتى صار المسلمون منا، يأخذون عنهم العلم كما كان أجدادهم يأخذون عنا، بل فيها من آراء المتكلمين والفقهاء، وروايات الكذابين والضعفاء، ما قد يعد حجة على الإسلام وأهله، كما أن سوء حال المسلمين في فشو الجهل في شعوبهم، والفساد والانحلال في حكوماتهم، قد اتخذ حجة على دينهم، فصاروا فتنة للذين كفروا به[1].

وإذا كان هذا حال المسلمين في فهم القرآن وهدايته، فكيف يكون حال الشعوب

(١) أي صاروا منفرين للكافرين عن الإسلام وصادين عنه لئلا يكونوا مثلهم، واقرأ قوله تعالى ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة: ٥].

التى نشأت على أديان أخرى ألفتها، ولها رؤساء يربونهم عليها ويصدونهم عن غيرها، ودول حربية قد عادت الإسلام منذ بضع قرون، بما لو وجهوه إلى الجبال لاندكت وزالت من الوجود، ولكنه دين الله الحى القيوم، فهو باق ما دام البشر فى الأرض لا يزول أو يزولون أجمعون.

هذه أظهر الأسباب لخفاء حقيقة الإسلام الكاملة على علماء الحضارة العصرية من الأجانب ومن المسلمين أيضًا وتمنيهم لو يبعث نبى جديد بهداية إلهية عامة كافية لإصلاحهم.

ولما كان الإسلام هو دين الإنسانية العامة الدائم الجامع لكل ما يحتاج إليه جميع الشعوب من الهداية الدينية والدنيوية، وجب على العقلاء الأحرار والعلماء المستقلين الذين يتألمون من المفاسد المادية التى تفاقم شرها فى هذا العهد، أن يعنوا بهتك تلك الحجب التى تحجبهم عن النظر فيه، وإزالة الموانع التى تعوقهم عن فهم حقيقته، وأن يدعوا جميع الشعوب إلى أخوّته، وتكميل الحضارة الإنسانية بهدايته.

نتيجة هذه المقدمات:

بيان هذا الكتاب لحقيقة الإسلام، بما تقوم به الحجة على جميع الأنام.

أما بعد فإننى أقدم لهم هذا الكتاب الذى صنفته فى إثبات **(الوحى المحمدى)** وكون القرآن كلام الله عز وجل، وكونه مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه البشر من الإصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى والمالى والحربى، وقد أطلت فى بيان هذه المقاصد الأساسية بعض الإطالة لأنها مثار جميع الفتن والمفاسد التى يشكو منها عقلاء هذا العصر، وأما توفية هذا الموضوع حقه فلا يكون إلا فى سفر كبير أو أسفار يجمع فيها مقاصد القرآن كلها مع بيان حاجة البشر إليها فى أمور معاشهم ومعادهم، وهو ما أبينه فى تفسير المنار بإجمال قواعد كل سورة وأصولها فى آخر تفسيرها، بعد بيانها بالتفصيل فى شرح آياتها.

على أننى لم أكتب هذا البحث أول وهلة لهذا الغرض وإنما بدأت منه بفصل استطرادى لتفسير آية ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢] إلخ بينت به الدلائل القطعية على أن القرآن وحى من الله تعالى كان محمد ﷺ يعجز كغيره عن مثله بعلمه ولغته وتأثيره، وأنه ليس وحيًا نفسيًا نابعًا من نفسه كما يزعم بعض الباحثين من الإفرنج وغيرهم، وأنه أعم وأكمل وأثبت من كل وحى كان قبله، وأن حجته قائمة على المؤمنين بالوحى التشريعى وعلى غيرهم.

ثم بدا لى فى أثناء كتابته أن أجرده فى كتاب خاص أدعو به شعوب الحضارة المادية من الإفرنج واليابان إلى الإسلام، بتوجيهه أولاً إلى علمائهم الأحرار، حتى إذا اهتدوا به تولوا دعوة شعوبهم ودولهم إليه بلغاتهم؛ ولهذا زدت فيه على ما كتبته فى التفسير، ووضعت له الخاتمة التى صرحت فيها بالدعوة وجعلتها هى المقصودة بالذات منه.

ولو أننى قصدت هذا منذ بدأت بالكتابة لوضعت له ترتيبًا آخر يغنينى عن بعض ما فيه من الاستطراد والتكرار بتحقيق كل مسألة فى موضعها، على أن بعض التكرار متعمد فيها، ولكننى كتبته فى أوقات متفرقة، وحالات بؤس وعسرة، لا أراجع عند موضوع منه ما قبله، ولا أعتمد إلا على ما أتذكره من القرآن نفسه، على صعوبة استحضار المعانى المتفرقة فى سوره، وإلا بعض الأحاديث فى مواضعها من كتبها لتخريجها والثقة بصحتها، وإنى أحيل القارئ له فى كل إجمال على مراجعة تفسير المنار فى تفصيله، وفى كل إشكال على مراجعة محرره.

محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

وحررت هذه المقدمة فى ليلة ذكرى المولد المحمدى من شهر ربيع الأول سنة ١٤٣٨ (وهى على الأرجح عند المحدثين التاسعة من هذا الشهر - ونشر الكتاب فى اليوم ١٢ منه وهو يوم المولد المشهور).

الفصل الأول:

في تحقيق معنى الوحي والنبوة والرسالة وحاجة البشر إليها، وأصولها وعدم إغناء العقل والعلم الكسبي عنها

بعد أن عرَّف الإمام رشيد رضا الوحى لغة وشرعًا، خلص إلى القول الجامع فى معنى الوحى اللغوى بأنه الإعلام الخفى السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره. ومنه الإلهام الغريزى كالوحى إلى النحل. وإلهام الخواطر بما يلقيه الله فى روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح كالوحى إلى أم موسى عليه السلام، ومنه ضده وهو وسوسة الشيطان، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١] وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢].

والله تعالى يوحى إلى ملائكته ما يأمرهم بفعله كقوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال: ١٢] ويوحى إلى ملك الوحى ما يوحيه الملك إلى الرسول كقوله: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠] أى أوحى إلى عبده جبريل عليه السلام ما أوحى جبريل إلى محمد ﷺ.

ثم يلخص دور الأنبياء عليهم السلام إذا أرسلهم الله تعالى إلى البشر لأجل هدايتهم إلى تزكية أنفسهم بما تصلح به أحوالهم فى دنياهم، ويستعدون به لحياة أعلى من هذه الحياة الدنيا فى نشأة أخرى، وجملة القول: إن تهذيب البشر بالدين مبنى على الإيمان بالغيب والوقوف فيه عن خبر الأنبياء عليهم السلام، ولا يمكن تهذيبهم بالعلوم المادية الكسبية وحدها.

العقل والعلم البشرى لا يغنيان عن هداية الرسل:

(فإن قيل) إن الإيمان بالغيب ووجود الرب غريزى فى الفطرة البشرية كما حققتم أو إلهام من إلهاماتها يلقى فى روع أفرادها عند نمو إدراكهم، وأن بعض الحكماء المفكرين قد ارتقوا فى معارفهم العقلية إلى حيث أقاموا البراهين على وجود واجب الوجود وعلمه وحكمته، ووجوب تعظيمه وشكره وعبادته، وقد قرر بعضهم بقاء النفس بعد

الموت وخلودها فى نعيم مقيم أو عذاب أليم، ووضعوا للناس أصول الفضائل والتشريع والآداب التى تصلح بها الإنسانية وروابط الاجتماع.

(قلت) نعم لكل ذلك أصل يثبته التاريخ الماضى، ويشهده العصر الحاضر. ولكن بين هداية الأنبياء وحكمة الحكماء وعلومهم فروقًا فى مصدر كل منهما، وفى الثقة بصحته، وفى الإذعان لحقيقته، وفى تأثيره فى أنفس جميع طبقات المخاطبين.

فحكمة الحكماء وعلومهم آراء بشرية ناقصة، وظنون لا تبلغ من عالم الغيب إلا أنه موجود مجهول، وهى عرضة للتخطئة والخلاف، ولا يفهمها إلا فئة مخصوصة من الناس، وما كل من يفهمها يقبلها، ولا كل من يقبلها ويعتقد صحتها يرجحها على هواه وشهواته؛ إذ لا سلطان لها على وجدان العالم بها، فلا يكون لها تأثير الإيمان وإسلام الإذعان والتعبد؛ لأن النوع البشرى يأبى طبعه وغريزته أن يدين ويخضع خضوع التعبد لمن هو مثله فى بشريته وإن فاقه فى علمه وحكمته، وإنما يدين لمن يعتقد أن له سلطانًا غيبيًا عليه بما يملكه من القدرة على النفع والضر بذاته، دون الأسباب الطبيعية المبذولة لجميع الناس بحسب سنن الكون ونظامه.

وأضرب لهذا مثلاً: أنه كان للفيلسوف الرئيس ابن سينا خادم متعلم معجب بعلومه وفلسفته، وكان يعجب منه كيف يدين بملة محمد ﷺ ويتبعه وهو فى رأيه أعلم منه وأرقى، وكان يكاشفه بذلك فيعرض عنه أو يوبخه، فاتفق أن كانا فى مدينة أصفهان فى ليلة شديدة البرد كثيرة الثلج، فأيقظ الرئيس خادمه فى وقت السحر وطلب منه ماء ليتوضأ به، فاعتذر بشدة البرد وبقاء الليل، ثم أيقظه الرئيس فى وقت أذان الصبح وطلب منه الماء فاعتذر بشدة البرد، حتى إذا قال المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله -ﷺ- قال الرئيس لخادمه: اسمع ماذا يقول المؤذن؟ قال إنه يقول أشهد أن محمداً رسول الله. قال الرئيس: الآن قد آن لى أن أبين لك ضلالك القديم. إنك خادمى لا عمل لك غير خدمتى. وإنك أشد الناس إعجابًا وإجلالاً وتعظيمًا لى.

حتى إنك تفضلنى على رسول الله ﷺ وتنكر علىّ أن أومن به وأتبعه. وأنك على هذا كله تخالف أمرى فى أهون خدمة أطلبها منك فى داخل الدار معتذراً بشدة البرد. وإن هذا المؤذن الفارسى يخرج من بيته قبل الفجر ويصعد هذه المنارة وهى أشد مكان فى البلد برداً. حتى إذا لاح له الفجر أشاد فى أذانه بذكر محمد العربى ﷺ بعد مرور أربعة قرون ونيف على بعثته، إيمانًا وإذعانًا، وتعبداً واحتسابًا. فتأمل هذا وتدبره فى نفسك يظهر لك الفرق بين سلطان النبوة على الناس وسلطان العلم والفلسفة.

فمن أعظم مزايا هداية الوحى الدينية على العلمية الكسبية أن جميع طبقات المؤمنين بها يذعنون لها بالوازع النفسى التعبدى، فبذلك تكون عامة ثابتة لا مجال للخلاف والتفرق فيها ما دام الفهم لها صحيحًا. والإيمان بها راسخًا. ولذلك نرى الشعوب التى ساء فهمها للدين، وتزلزل إيمانها به أو زال. لا ينفعها من دونه علوم العلماء. ولا حكمة الحكماء وقد ارتقت العلوم والحكمة فى هذا العصر، وعم انتشارهما بما لم يعرف مثله فى عصر آخر. وهم لا يذعنون فى أنفسهم لإرادة ملك أو أمير، ولا لرأى عالم نحرير. ولا فيلسوف شهير ولا مشترع خبير. بل صاروا إلى فوضى فى الأخلاق والآداب والاجتماع، واستباحة الأموال والأعراض وكذا الدماء لم يعهد لها فى البشر نظير. صارت بها الأمم والدول عرضة لفتنة فى الأرض وفساد كبير.

أكثر البشر المؤمنون بوجود الله وعلمه وحكمته. والمثقفون بالتعليم العصرى يؤمنون بوحدانيته، ولم يبق للشرك به تعالى بقية إلا فى جهال المتبعين لتقاليد الأديان المنسوبة إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وما هى من أديانهم فى شىء. بل هى هادمة لأساسها الأعظم وهو التوحيد المطلق. فكان فشو الشرك بعبادة الأولياء والقديسين وما ترتب عليه واقترن به من الخرافات وفساد الأخلاق، من أكبر الشبهات على صحة هذه الأديان والمنفرات عن اتباعها، وصار أكثر البشر إما مؤمنين بالأنبياء دائنين بالخرافات، وإما كافرين بهم منكرين أن الدين وحى من الله تعالى، وتعين إرجاع الفريقين إلى هداية الدين الصحيح وما هو إلا دين الإسلام.

إن الدين الذى ينتمى إليه أكثر شعوب الحضارة فى هذا العصر هو النصرانية، وإنما سبب بقائه فيهم أن دولهم قد جعلته من نظام حياتهم الاجتماعية ولكنه لم يبق له

سلطان روحى إلا فى قلوب النساء والعوام الخرافيين، وقد جاءتنا الأنباء قبل طبع هذا الفصل بأن زعماء الشعب الألمانى وهو أرقى شعوب الأرض علمًا وفنًا وحضارة قد ثار على هذا الدين ثورة جديدة يريد بها هدم أساسه من كتب العهد القديم، وتنقيح تعاليم العهد الجديد وجعل ما يبقون منه وطنيًا ألمانيًا خاصًا بالجنس الآرى الهندى الفارسى الأصل والبراءة من كل ما هو سامى منه، وما أنبياؤهم ورسلهم ومسيحهم ومعبودهم إلا من الساميين، بل يريدون تقديس شهداء الحرب وعظماء أسلافهم الألمانيين، وإن هذه إلا وثنية كوثنية اليابانيين. تذكى سعير العداوة بينهم وبين سائر الأوربيين.

فلا سبيل إلى إنقاذ البشر فى هذا العصر إلا بإثبات الوحى المحمدى الموحد لإنسانيتهم المزكى لأنفسهم، المكمل لفطرتهم، الذى فيه السعادة الدنيوية والأخروية لهم فى جملتهم، وقد بينا فى هذا الكتاب أن محمدًا رسول الله وخاتم النبيين، وهو ﷺ النبى المرسل إلى كافة الناس رحمة للعالمين، وأنه هو الذى أكمل الله به الدين، وأزال العصبيات الجنسية والوطنية؛ لتوحيد الأخوة الإنسانية، فاتباعه هو الترياق المجرب لهذه السموم الروحية الاجتماعية القاتلة، راجين أن يفتح الله تعالى به أبواب الهدى لكل من يعقله ويتدبره من مستقلى الفكر، وطالبى معرفة الحق، وإصلاح الخلق المعنيين بقول الله عز وجل: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ⁽¹⁵⁾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

●●●

الفصل الثاني:

في إقامة الحجة على مثبتي الوحي المطلق في إثبات نبوة محمد ﷺ

آية نبوة محمد ﷺ العقلية العلمية وسائر آياته الكونية

إن ما رواه المحدثون بالأسانيد المتصلة تارة والمرسلة[1] أخرى من الآيات الكونية التى أكرم الله تعالى بها رسوله محمداً ﷺ هى أكثر من كل ما رواه الإنجيليون وأبعد عن التأويل، ولم يجعلها برهانًا على صحة الدين ولا أمر بتلقينها للناس.

ذلك بأن الله تعالى جعل نبوة محمد ورسالته ﷺ قائمة على قواعد العلم والعقل فى ثبوتها وفى موضوعها؛ لأن البشر قد بدءوا يدخلون بها فى سن الرشد والاستقلال النوعى الذى لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف فى سنن الكون بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم العقلى مع هذا الخضوع، بل هو من موانعه، فجعل حجة نبوة خاتم النبيين ﷺ عين موضوع نبوته، وهو كتابه المعجز للبشر بهدايته وبعلومه، وبإعجازه اللفظى والمعنوى، وبأنباء الغيب الماضية والحاضرة والآتية فيه[2] ليربى البشر على الترقى فى هذا الاستقلال، إلى ما هم مستعدون له من الكمال.

هذا الفصل بين النبوات الخاصة الماضية، والنبوة العامة الباقية، قد عبر عنه النبى ﷺ بقوله«**ما من الأنبياء من نبى إلا وقد أُعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إلىَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**» متفق عليه من حديث أبى هريرة (رضى الله عنه).

وقص الله تعالى علينا فى كتابه: أن المشركين اقترحوا الآيات الكونية (العجائب) على رسوله ﷺ، فاحتج عليهم بالقرآن فى جملته، وبما فيه من أخبار الرسل والكتب

(١) الرواية المرسلة للحديث: هى التى لم يذكر فيها اسم الصحابى الذى رفعه إلى النبى ﷺ.

(٢) قد بينا ذلك فى تفسير آية التحدى من سورة البقرة من بضعة وجوه. وسنزيده بيانًا فى هذا الكتاب. وإنما موضوعنا هنا بيان الفرق بين نبوة نبينا ﷺ ونبوة من قبله.

السابقة التى لم يكن يعلمها هو ولا قومه، وبهدايته وبعلومه وبإعجازه، وعدم استطاعة أحد ولا جماعة ولا العالم كله على الإتيان بمثله ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨] وسيأتى تفصيله.

وأما ما أكرمه الله تعالى به من الآيات الكونية فلم يكن لإقامة الحجة على نبوته ورسالته بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه فى الشدائد، كنصرهم على المعتدين عليهم من الكفار الذين يفوقونهم عدداً وعدداً واستعداداً بالسلاح والطعام، وناهيك بغزوة بدر والنصر فيها، ثم بغزوة الأحزاب إذ تألب المشركون واليهود على المسلمين وأحاطوا بمدينتهم فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال.

من تلك الآيات: شفاء المرضى، وإبصار الأعمى، وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل فى غزوة الأحزاب وفى غزوة تبوك، كما وقع للمسيح عليه السلام. ومنها: تسخير الله السحاب لإسقاء المسلمين وتثبيت أقدامهم التى كانت تسيح فى الرمل ببدر، ولم يصب المشركين من غيثها شىء. ومثل ذلك فى غزوة تبوك إذ نفد ماء الجيش فى الصحراء والحر شديد حتى كانوا يذبحون البعير ويخرجون الفرث من كرشه ليعتصروه ويبلوا به ألسنتهم على قلة الرواحل معهم، وكان يقل من يجد من عصارته ما يشربه شربًا، فقال أبو بكر يا رسول الله إن الله عودك فى الدعاء خيراً فادع لنا، فرفع يديه ﷺ فدعا، فلم يرجعهما حتى كانت السماء قد سكبت لهم ما ملأوا ما معهم من الروايا ولم تتجاوز عسكرهم(١).

تأثير العجائب فى الأفراد والأمم:

لقد كانت آيات المرسلين حجة على الجاحدين المعاندين، استحقوا بجحودها عذاب الله فى الدنيا والآخرة، ولم يؤمن بها ممن شاهدوها إلا المستعدون للإيمان

(١) رواه ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى فى كتابيهما «دلائل النبوة» والضياء فى الأحاديث المختارة. والروايا جمع رواية وهو البعير الذى يحمل عليه الماء. وكذا غيره من الدواب.

بها : إن فرعون وقومه لم يؤمنوا بآيات موسى ، وإن أكثر بني إسرائيل لم يعقلوها[1] وقد اتخذوا العجل وعبدوه بعد رؤيتها ورؤية غيرها في برية سيناء . وقال اليهود في المسيح : لولا أنه رئيس الشياطين لما أخرج الشيطان من الإنسان . وقالوا : إن إبليس أو بعلزبول[2] يفعل أكبر من فعله ، وما كان أكثرهم مؤمنين . وقال المنافقون وقد رأوا بأعينهم سحابة واحدة في إبان القيظ قد مطرت عسكر المؤمنين وحده عند دعاء النبي ﷺ : إننا مطرنا بتأثير النوء لا بدعائه .

وقد كان أكثر من آمن بتلك الآيات إنما خضعت أعناقهم واستخدمت أنفسهم لما لا يعقلون له سببًا ، وقد انطوت الفطرة على أن كل ما لا يعرف له سبب ، فالآتي به مظهر للخالق سبحانه ، إن لم يكن هو الخالق نفسه ، وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة والمشعوذين والدجالين ولا يزالون كذلك .

وقد نقلوا عن المسيح عليه السلام أنه سيأتي بعده مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضًا (متى ٢٤ : ٢٤) وقد ذكر في قاموس الكتاب المقدس عددًا كثيرًا منهم وأسماء بعضهم وأقول : إن منهم القادياني الذي ظهر من مسلمي الهند ، وتذكر صحف الأخبار ظهور هندي آخر يريد إظهار عجائبه في أمريكا في هذا العام . ونقلوا عن المسيح أنه قال : «الحق أقول لكم : ليس كل نبي مقبولاً في وطنه» وجعل القاعدة لمعرفة النبي الصادق تأثير هدايته في الناس لا الآيات والعجائب فقال : «من ثمارهم تعرفونهم» ولم يظهر بعده - ولا قبله - نبي كانت ثماره الطيبة في هداية البشر كثمار محمد ﷺ ، ولا أحد يصدق عليه قوله في إنجيل يوحنا (١٦ : ١٢ إن لي أمورًا كثيرة أيضًا ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك «أي البارقليط» روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق) إلخ وما جاء بعده نبي أرشد الناس إلى جميع الحق في الدين ، من توحيد وتشريع وحكمة وتأديب : غير محمد رسول الله وخاتم النبيين ﷺ .

---

(١) قال تعالى : ﴿ آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس : ٨٣] الذرية صغار النسل ، والمتبادر أن تنكيرها هنا للتقليل .

(٢) بعلزبول : من أسماء الشيطان عندهم .

ومن استقرأ تواريخ الأمم على أن أهل الملل الوثنية أكثر اعتماداً على العجائب من أهل الأديان السماوية، ورأى الجميع ينقلون منها عمن يعتقدون قداستهم من الأولياء والقديسين، أكثر مما نقلوا عن الأنبياء المرسلين، ورأى أن أكثر المصدقين بها من الخرافيين.

ثبوت نبوة محمد ﷺ بنفسها وإثباتها لغيرها:

وجملة القول: إن نبوة محمد ﷺ قد ثبتت بنفسها، أى بالبرهان العلمى والعقلى الذى لا ريب فيه، لا بالآيات والعجائب الكونية، وأن هذا البرهان قائم ماثل للعقول والحواس فى كل زمان، وأنه لا يمكن إثبات آيات النبيين السابقين إلا بثبوت نبوته ﷺ وهذا القرآن الذى جاء به، فالحجة الوحيدة عليها فى هذا الطور العلمى الاستقلالى من أطوار النوع البشرى هو شهادته لها. فإن الكتب التى نقلتها لا يمكن إثبات عزوها إلى من عزيت إليهم؛ إذ لا يوجد نسخ منها منقولة عنهم باللغات التى كتبوها بها لا تواتراً ولا آحاداً، ولا يمكن إثبات عصمتهم من الخطأ فيما كتبوه على اختلافه، وتناقضه، وتعارضه، ولا إثبات صحة التراجم التى نقلت بها، كما قلنا آنفًا وبيناه بالتفصيل مراراً.

إن الكتاب الإلهى الوحيد الذى نقل بنصه الحرفى تواتراً عمن جاء به بطريقتى الحفظ والكتابة معًا هو القرآن، وأن النبى الوحيد الذى نقل تاريخه بالروايات المتصلة الأسانيد حفظًا وكتابة هو محمد ﷺ؛ فالدين الوحيد الذى يمكن أن يعقله العلماء المستقلون فى الفهم والرأى وبينوا عليه حكمهم، هو الإسلام:

وأما خلاصة ما يمكن الاعتراف به من الأديان السابقة لثبوت قضاياه الإجمالية بالتواتر المعنوى، فهو أنه وجد فى جميع أمم الحضارة القديمة دعاة إلى عبادة الله تعالى وحده، وإلى العمل الصالح، وإلى ترك الشرور والرذائل، منهم أنبياء مبلغون عن الله تعالى مبشرين ومنذرين، كما أنه وجد فيهم حكماء يبنون إرشادهم على الاحتجاج بما ينفع الناس ويضرهم بحكم العقل والتجربة - ووجد فى جميع ما نقل عن الفريقين

أمور مخالفة للعقل ولما ينفع الناس، وأمور خاصة بأقوامهم وبزمانهم وخرافات ينكرها العقل وينقضها العلم.

وإذا كان الإسلام ونبيه ﷺ هو الدين الوحيد الذى عرفت حقيقته وتاريخه بالتفصيل فإننا نذكر هنا شبهة علماء الإفرنج الماديين ومقلدتهم عليه، بعد مقدمة فى شهادتهم الإجمالية له؛ تمهيداً لدحض الشبهة، ونهوض الحجة، فنقول:

●●●

الفصل الثالث:

في شبهة منكري عالم الغيب على الوحي الإلهي وتصويرهم لنبوة محمد ﷺ بما يسمونه الوحي النفسي

خلاصة رأى هؤلاء الماديين:

أن الوحى إلهام كان يفيض من نفس النبى الموحى إليه لا من الخارج، ذلك أن منازع نفسه العالية وسريرته الطاهرة، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية، وتقاليد وراثية رديئة، يكون لها فى جملتها من التأثير ما يتجلى فى ذهنه ويحدث فى عقله الباطن الرؤى والأحوال الروحية فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشادًا إلهيًا نازلاً عليه من السماء بدون وساطة، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب، وقد يسمعه يقول ذلك، وإنما يرى ويسمع ما يعتقده فى اليقظة، كما يرى ويسمع مثل ذلك فى المنام الذى هو مظهر من مظاهر الوحى عند جميع الأنبياء، فكل ما يخبر به النبى كلام ألقى فى روعه، أو عن ملك ألقاه على سمعه، فهو خبر صادق عنده.

يقول هؤلاء الماديون: نحن لا نشك فى صدق محمد ﷺ فى خبره عما رأى وسمع وإنما نقول: إن منبع ذلك من نفسه، وليس فيه شىء جاء من عالم الغيب الذى يقال إنه وراء عالم المادة والطبيعة، الذى يعرفه جميع الناس، فإن هذا (الغيب) شىء لم يثبت عندنا وجوده، كما أنه لم يثبت عندنا ما ينفيه ويلحقه بالمحال، وإنما نفسر الظواهر غير المعتادة بما عرفنا وثبت عندنا دون ما لم يثبت.

ويضربون مثلًا لهذا الوحى: قصة جان دارك الفتاة الفرنسية التى قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها بعد موتها بزمن، وهذا التصوير الذى يصورون به ظاهرة الوحى قد سرت شبهته إلى كثير من المسلمين المرتابين الذين يقلدون هؤلاء الماديين فى نظرياتهم المادية أو يقتنعون بها.

وإننى أفتتح الكلام فى إبطال هذه الصورة الخيالية بالكلام على (جان دارك) فقد ألقى إلى سؤال عنها نشرته فى الجواب عنه فى صفحة ٧٨٨ من المجلد السادس من المنار (سنة ١٣٢١) وهذا نصه:

درس علماء الإفرنج للسيرة المحمدية وشهادتهم بصدقه ﷺ:

درس علماء الإفرنج تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده على طريقتهم فى النقد والتحليل ودرسوا السيرة النبوية المحمدية وفلوها فليًا ونقشوها بالمناقيش، وقرؤا القرآن بلغته وقرؤا ما ترجمه به أقوامهم، وكانوا على علم محيط بكتب العهدين القديم والجديد، وتاريخ الأديان ولا سيما الديانتين اليهودية والنصرانية. وبما كتبه المتعصبون للكنيسة من الافتراء على الإسلام والنبى والقرآن مما أشرنا إلى بعضه آنفًا، فخرجوا من هذه الدروس كلها بالنتيجة الآتية:

[إن محمداً ﷺ كان سليم الفطرة، كامل العقل، كريم الأخلاق، صادق الحديث، عفيف النفس، قنوعًا بالقليل من الرزق، غير طموع بالمال، ولا جنوح إلى الملك، ولم يعن بما كان يعنى به قومه من الفخر، والمباراة فى تحبير الخطب ولا قرض الشعر، وكان يمقت ما كانوا عليه من الشرك وخرافات الوثنية، ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية، كالخمر والميسر وأكل أموال الناس بالباطل، وبهذا كله وبما ثبت من سيرته ويقينه ﷺ بعد النبوة جزموا بأنه كان صادقًا فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنه من رؤية ملك الوحى، وإقرائه إياه هذا القرآن، وإنبائه بأنه رسول من الله لهداية قومه فسائر الناس].

وزادهم ثقة بصدقه أن كان أول الناس إيمانًا به واهتداء بنبوته أعلمهم بدخيلة أمره وأولهم زوجه خديجة المشهورة بالعقل والنبل والفضيلة، ومولاه زيد بن حارثه الذى اختار أن يكون عبداً له على أن يلحق بوالده وأهل بيته ويكون معهم حراً، ثم إن كان الذين آمنوا به من أعظم العرب حرية واستقلالاً فى الرأى ولا سيما أبى بكر وعمر[(١)].

فأما المؤمنون بالله وملائكته وبأن للبشر أرواحًا خالدة من هؤلاء الإفرنج فقد آمنوا بنبوة محمد ﷺ على علم وبرهان، وهم يزيدون عامًا بعد عام، بقدر ما يتاح لهم من العلم بالإسلام. وأما الماديون فلم يكن لهم بد من تفسير لهذه الحادثة أو الظاهرة التى

(١) سننقل طائفة من شهادات العلماء الأحرار فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

لا ريب فى صحتها وثبوتها، وتصويرها بالصورة العلمية التى يقبلها العقل، الذى لايؤمن صاحبه بما وراء المادة أو الطبيعة من عالم الغيب.

قدحوا زناد الفكر، واستوروا به نظريات الفلسفة.. فلاح لهم منه سقط أبصروا فى ضوئه الضئيل الصورة الخيالية التى أجملها الأستاذ مونتيه فى عبارته التى نقلناها عنه آنفًا وفصلها أميل درمنغام وغيره بما نشرحه ههنا (فى الفصل الثالث من هذا الكتاب).

شبهة على الوحى:

حضرة الأستاذ الرشيد:

عرضت لى شبهات فى وقوع الوحى (وهو أساس الدين) فعمدت إلى رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده - حيث وقع اختيارى عليها - وقرأت فيها بابى (حاجة البشر إلى الوحى) و(إمكان الوحى) فوجدت الكلام وجيهًا معقولاً، غير أن الحاجة إلى الشىء لا تستلزم وقوعه، وكذا إمكانه وعدم استحالته عقلاً لا يقتضى حصوله. ثم ما ذكر بعد من أن حالة النبى ﷺ وسلوكه بين قومه وقيامه بجلائل الأعمال وبوقوع الخير للناس على يديه وهو دليل نبوته وتأييد بعثته، فليس شيئًا، فإنه قد يكون (كون) النبى حميد السيرة فى عشيرته، صادقًا فى دعوته - أعنى معتقدًا فى نفسه- سببًا فى نهوض أمته، ولا يكون كل ذلك مدعاة إلى الاعتقاد به، والتسليم له.

وقد حدث بفرنسا فى القرن الخامس عشر الميلادى إذ كانت مقهورة للإنكليز أن بنتًا تدعى (جان دارك) من أجمل النساء سيرة وأسلمهن نية، اعتقدت-وهى فى بيت أهلها بعيدة عن التكاليف السياسية- أنها مرسلة من عند الله لإنقاذ وطنها ودفع العدو عنه، وصارت تسمع صوت الوحى، فأخلصت فى الدعوة للقتال، وتوصلت بصدق إرادتها إلى رياسة جيش صغير، وغلبت به العدو فعلاً، ثم ماتت غب نصرتها ميتة الأبطال من الرجال إذ خذلها قومها، ووقعت فى يد عدوها، فألقوها فى النار حية، فذهبت تاركة فى صحائف التاريخ اسمًا يعبق نشره وتضوع رياه، وهى الآن موضع إجلال القوم وإعظامهم فلقد تيسرت لهم النهضة بعدها، وجروا فى العلم والرقى بعيدًا.

فهل نجزم لذلك أن تلك البنت نبية مرسلة؟ ربما تذهبون إلى أن عملها لا يذكر مقارنًا بما أتت به الرسل وما وصل للناس من الخير بسببهم، فأقول: هل هناك من ميزان يزن به الأعمال النافعة لنعلم إن كانت وصلت إلى الدرجة التي يجب معها أن نصدق دعوة صاحبها؟ وهل لو ساعدت الصدف (كذا) رجلاً على أن يكون أكبر الناس فعلاً، وأبقاهم أثرًا، واعتقد برسالة نفسه لوهم قام (عنده) يفضي بنا ذلك إلى التيقن من رسالته؟

أظن أن هذا كله- مضافًا لغيره- يدعو إلى الترجيح ولا يستلزم اليقين أبدًا على أننى أنتظر أن تجدوا فى قولى هذا خطأ تقنعوننى به أو تزيدوننى إيضاحًا. ينكشف به الحجاب، وتنالون به الثواب. هذا وإنى أعلم من فئة مسلمة ما أعلمه من نفسى ولكنهم يتحفظون فى الكتمان، ويسألون الكتب خشية سؤال الإنسان، ولكنى لا أجد فى السؤال عاراً وكل عقل يخطئ ويصيب، ويزل ويستقيم.

(أحد قرائكم)

جواب المنار:

لقد سرنا من السائل أنه على تمكن الشبهة من نفسه لم يذعن لها تمام الإذعان فيسترسل فى تعدى حدود الدين إلى فضاء الأهواء والشبهات التى تفسد الأرواح والأجسام، بل أطاع شعور الدين الفطرى، ولجأ إلى البحث فى الكتب، ثم السؤال ممن يظن فيهم العلم، بما يكشف الشبهة، ويقيم الحجة، وإن كثيراً من الناس لينصرفون عن طلب الحق عند أول قزعة من الشبه تلوح فى فضاء أذهانهم؛ لأنهم شبوا على حب التمتع والانغماس فى اللذة، ويرون الدين صاداً لهم عن الانهماك والاسترسال فيها فهم يحاولون إماتة شعوره الفطرى، كما أمات النشوء فى الجهل برهانه الكسبى.

أرى السائل نظر من رسالة التوحيد فى المقدمات ووعاها ولكنه لم يدقق النظر فى المقاصد والنتائج. لذلك نراه مسلماً المقدمات دون النتيجة مع اللزوم بينهما، فإذا هو عاد إلى مبحث (حاجة البشر إلى الرسالة) وتدبره وهو مؤمن بالله، وأنه أقام الكون على أساس الحكمة البالغة والنظام الكامل، فإننى أرجو له أن يقتنع. ثم إننى آنست منه أنه لم يقرأ مبحث (وقوع الوحى والرسالة) أو لعله قرأه ولم يتدبره، فإنه لم يذكر

البرهان على نفس الرسالة ويبنى الشبهة عليه، وإنما بناها على جزء من أجزاء المقدمات، وهى القول فى بعض صفات الرسل عليهم السلام. وإننى أكشف له شبهته أولاً فأبين أنها لم تصب موضعها، ثم أعود إلى رأيى فى الموضوع.

إن (جان دارك) التى اشتبه عليه أمرها بوحى الأنبياء لم تقم بدعوة إلى دين أو مذهب تدعى أن فيه سعادة البشر فى الحياة وبعد الموت كما هو شأن جميع المرسلين، ولم تأت بآية كونية ولا علمية لا يعهد مثلها من كسب البشر تتحدى بها الناس ليؤمنوا بها، وإنما كانت فتاة ذات وجدان شريف هاجه شعور الدين، وحركته مزعجات السياسة فتحرك، فنفر، فصادف مساعدة من الحكومة، واستعداداً من الأمة للخروج من الذل الذى كانت فيه، وكان التحمس الذى حركته سببًا للحملة الصادقة على العدو وخذلاته. وما أسهل تهييج حماسة أهل فرنسا بمثل هذه المؤثرات وبما هو أضعف منها، فإن نابليون الأول كان يسوقهم إلى الموت مختارين بكلمة شعرية يقولها ككلمته المشهورة عند الأهرام.

وأذكر السائل الفطن بأنه لم يوافق الصواب فى إبعاد الفتاة عن السياسة ومذاهبها فقد جاء فى ترجمتها من دائرة المعارف العربية (للبستانى) ما نصه:

«كانت متعودة الشغل خارج البيت كرعى المواشى وركوب الخيل إلى العين ومنها إلى البيت. وكان الناس فى جوار دومرى (أى بلدها) متمسكين بالخرافات ويميلون إلى حزب أورليان فى الانقسامات التى مزقت مملكة فرنسا، وكانت جان تشترك فى الهياج السياسى والحماسة الدينية، وكانت كثيرة التخيل والورع، تحب أن تتأمل فى قصص العذراء وعلى الأكثر فى نبوة كانت شائعة فى ذلك الوقت، وهى أن إحدى العذارى ستخلص فرنسا من أعدائها، ولما كان عمرها ١٣ سنة كانت تعتقد بالظهورات الفائقة الطبيعية وتتكلم عن أصوات كانت تسمعها ورؤى كانت تراها، ثم بعد ذلك ببضع سنين خيل لها أنها قد دعيت لتخلص بلادها وتتوج ملكها، ثم وقع البرغنيور تعديًا على القرية التى ولدت فيها، فقوى ذلك اعتقادها بصحة ما خيل لها».

ثم ذكر بعد ذلك توسلها إلى الحكام وتعيينها قائدة لجيش ملكها، وهجومها بعشرة آلاف جندى ضباطهم ملكيون على عسكر الإنكليز الذين كانوا يحاصرون أورليان.

وأنها دفعتهم عنها حتى رفعوا الحصار فى مدة أسبوع، وذلك سنة ١٤٢٩ ثم ذكر أنها بعد ذلك زالت أخيلتها الحماسية؛ ولذلك هوجمت فى السنة التالية سنة ١٤٣٠ فانكسرت وجرحت وأسرت.

فمن ملخص القصة، يعلم أن ما كان منها إنما هو تهيج عصبى سببه التألم من تلك الحالة السياسية التى كان يتألم منها من نشأت بينهم مع مغوتة التحمس الدينى والاعتقادات بالخرافات الدينية التى كانت ذائعة فى زمنها، وهذا شىء عادى معروف السبب، وهو من قبيل الذين يقومون باسم المهدى المنتظر كمحمد أحمد السودانى. والباب الإيرانى (وكذا البهاء والقاديانى) بل الشبهة فى قصتها أبعد من الشبهة فى قصة هذين الرجلين، وإن كانت أسباب النهضة متقاربة، فإن هذين كانا كأمثالهما يدعوان إلى شىء (ملفق) يزعمان أنه إصلاح للبشر فى الجملة.

أين هذه النوبة العصبية القصيرة الزمن، والمعروفة السبب، التى لا دعوة فيها إلى علم ولا إصلاح اجتماعى، إلا المدافعة عن الوطن عند الضيق التى هى مشتركة بين الإنسان والحيوان الأعجم التى لا حجة تدعمها، ولا معجزة تؤيدها، التى اشتعلت بنفخة، وطفئت بنفخة؟ أين هى من دعوة الأنبياء التى بيَّن الأستاذ الإمام أنها حاجة طبيعية من حاجات الاجتماع البشرى، طلبها هذا النوع بلسان استعداده فوهبها له المدبر الحكيم (الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) فسار الإنسان بذلك إلى كماله، فلم يكن أدنى من سائر المخلوقات الحية النامية بل أرقى وأعلى؟ وأين دليلها من أدلة النبوة؟ وأين أثرها من أثر النبوة؟

إن الأمم التى ارتقت بما أرشدها إليه تعليم الوحى إنما ارتقت بطبيعة ذلك التعليم وتأثيره، وإن فرنسة لم ترتق بإرشاد (جان دارك) وتعليمها، وإنما مثلها مثل قائد انتصر فى واقعة فاصلة بشجاعته، وبأسباب أخرى ليست من صنعه، واستولت أمته بسبب ذلك على بلاد رقتها بعلوم علمائها، وحكمة حكمائها، وصنع صناعها؛ ولم يكن القائد يعرف من ذلك شيئًا ولم يرشد إليه، فلا يقال إن ذلك القائد هو الذى أصلح تلك البلاد، وعمرها ومدنها، وإن عدَّ سببًا بعيدًا فهو شبيه بالسبب الطبيعى، كهبوب ريح تهيج البحر فيغرق الأسطول وتنتصر الأمة.

أين حال تلك الفتاة التى كانت كبارقة خفت (أى ظهرت وأومضت) ثم خفيت، وصيحة علت ولم تلبث أن خفتت، من حال شمس النبوة المحمدية التى أشرقت فأنارت الأرجاء، ولا يزال نورها ولن يزال متألق السناء: أمى يتيم قضى سن الصبا وشرخ الشباب هادئًا ساكنًا لا يُعرف عنه علم ولا تخيل، ولا وهم دينى، ولا شعر ولا خطابة، ثم صاح على رأس الأربعين بالعالم كله صيحة: أنكم على ضلال مبين. فاتبعون أهدكم الصراط المستقيم. فأصلح وهو الأمى أديان البشر: عقائدها وآدابها وشرائعها؛ وقلب نظام الأرض فدخلت بتعليمه فى طور جديد؟

لا جرم أن الفرق بين الحالين عظيم، إذا أنعم النظر فيه العاقل الحكيم. ولا سعة فى جواب سؤال كهذا لتقرير الدليل على النبوة بالتفصيل، وإنما أحيل السائل على التأمل فى بقية بحث النبوة فى رسالة التوحيد، ومراجعة ما كتبناه أيضًا من الأمالى الدينية فى المنار، ولا سيما الدرس الذى عنوانه (الآيات البينات، على صدق النبوات) وإن كان يصدق على رسالة التوحيد المثل «كل الصيد فى جوف الفرا»[1] فإن بقيت عنده شبهة فالأولى أن يتفضل بزيارتنا لأجل المذاكرة الشفاهية فى الموضوع، فإن المشافهة أقوى بيانًا، وأنصع برهانًا؛ ونحن نعاهده على أن نكتم أمره، وإن أبى فليكتب إلينا ما يظهر له من الشبهة على ما فى الرسالة والأمالى من الاستدلال على وقوع النبوة بالفعل، وعند ذلك نسهب فى الجواب بما نرجو أن يكون مقنعًا، على أن المشافهة أولى كما هو معقول، وكما ثبت لنا بالتجربة مع كثير من المشتبهين والمرتابين اهـ جوابنا فى المنار[2].

هذا وإن ما بينّه الأستاذ الإمام فى إثبات وقوع الوحى لا يستطيع أحد فهمه حق الفهم وهو يؤمن بوجود الله العلى الحكيم الفاعل المختار إلا أن يقبله ويذعن له،

(١) الفراء -بفتح الفاء مقصوراً- اسم لحمار الوحش، وهو خير ما يصطاد لكبره وكثرة لحمه وجودته: وأصل المثل أن ثلاثة رجال خرجوا للصيد؛ فاصطاد أحدهم أرنبًا والآخر ظبيًا، واصطاد الثالث حمار وحش فقال لهما وقد أعجبا بما أصابا: «كل الصيد فى جوف الفرا» أى كل ما يصاد يصغر دونه، كأنه يغيب جوفه.

(٢) الظاهر أن ذلك السائل قد اقتنع بجوابنا إذ لم يكتب لنا بعده شيئًا وكذلك الأستاذ الإمام فقد رضى به وأعجبه.

فإنه بين أن الوحى والرسالة بالمعنى الذى قرره لازم عقلى لعلمه تعالى وحكمته وكونه هو (الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) ولا يفهمه حق الفهم إلا من أوتى نصيبًا من علم الاجتماع وحكمة الوجود وسننه وأصول العقائد، ونصيبًا آخر من بلاغة اللغة العربية. وأن نبوة محمد ﷺ ورسالته يمكن إثباتها بما دون هذه الفلسفة والبلاغة، وهو ما قهر عقول علماء الإفرنج على تصديق دعوته، وحمل الماديين على تصويرها بما نبسطه فيما يأتى ونقفى عليه بإثبات بطلانه.

تفصيل الشبهة ودحضها بالحجة:

قد فصل (أميل درمنغام) الشبهة التى أجملها مونتيه بما لم نر مثله لغيره من كتاب الإفرنج، حتى اغتر بكلامه كثير من المسلمين. وإنه لحسن الثناء ولكنه يُسرُّ حسوا فى ارتغاء. فإن كان حكيمنا السيد جمال الدين قال لبعض مجادلى النصرانية: إنكم فصلتم قميصًا من رقاع العهد القديم وألبستموها للمسيح عليه السلام فنحن نقول لهم: إنكم فصلتم قميصًا آخر مما استنبطتم من تاريخ الإسلام لا من نصوصه. وحاولتم خلعها على محمد ﷺ.

بسط ما يصورون به الوحى النفسى لمحمد ﷺ:

ها أنذا قد بسطت جميع المقدمات التى استنبطوها من تاريخ محمد ﷺ وحالته النفسية والعقلية، وحالة قومه ووطنه وما تصوروا أنه استفادة من أسفاره، ما كان من تأثير خلواته وتحنثه وتفكره فيها، وقفيت عليها بأصح ما رواه المحدثون فى الصحاح من صفة الوحى وكيف كان بدؤه وفترته، ثم كيف أمر نبيه ﷺ بتبليغه ودعوة الناس إلى الحق، وكيف حمى وتتابع؟

وأبين الآن كيف يستنبطون من ذلك أن هذا الوحى قد نبع من نفس محمد ﷺ وأفكاره بتأثير ذلك كله فى وجدانه وعقله، بما لم أر ولم أسمع مثله فى تقريبه إلى العقل، ثم أقفى عليه بما ينقضه من أساسه بأدلة العقل والنقل والتاريخ، والصحيح من وصف حالته ﷺ فأقول:

يقولون (أولاً) إن عقل محمد ﷺ الهيولانى -أو ما يسمونه فى عصرنا بالعقل الباطن- قد أدرك بنوره الذاتى بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام، كما أدرك ذلك أفراد آخرون من الأقوام، ونقول: آمنا وصدقنا.

(ثانيًا) أن فطرته الزكية قد احتقرت ما كانوا يتنافسون فيه من جمع الأموال بالربا والقمار، ونقول: آمنا وصدقنا.

(ثالثًا) إن فقره وفقر عمه (أبى طالب) الذى كفله صغيراً قد حال دون انغماسه فيما كانوا يسرفون فيه من الاستمتاع بالشهوات: من السكر والتسرى وعزف القيان، ونقول الصحيح: أنه ترك احتقاراً له لا عجزاً عنه.

(رابعًا) أنه طال تفكره فى إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح، وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات. ونقول: لا مانع من ذلك.

(خامسًا) أنه استفاد من أسفاره وممن لقيه فيها وفى مكة نفسها من النصارى كثيراً من المعلومات عن النبيين والمرسلين الذين بعثهم الله فى بنى إسرائيل وغيرهم فأخرجوهم من الظلمات إلى النور. ونقول: إن هذا لم يصح عندنا ولا يضرنا.

(سادسًا) أن تلك المعلومات لم تكن كلها مقبولة فى عقله لما عرض للنصرانية من الوثنية بألوهية المسيح وأمه وغير ذلك وبما حدث فيها من البدع. ونقول: هذا مبنى على ما قبله، فهو معقول غير منقول.

(سابعًا) أنه كان قد سمع أن الله سيبعث نبيًا مثل أولئك الأنبياء من العرب فى الحجاز قد بشر به عيسى المسيح وغيره من الأنبياء، وأن هذا علق بنفسه فتعلق رجاؤه بأن يكون هو ذلك النبى الذى آن أوانه ونقول: إن هذا استنباط لهم مما قبله غير صحيح وسيأتى ما فيه.

(ثامنًا) وهو نتيجة ما تقدم: أنه توسل إلى ذلك بالانقطاع إلى عبادة الله تعالى والتوجه إليه فى خلوته بغار حراء فقوى هنالك إيمانه، وسما وجدانه، فاتسع محيط

تفكره وتضاعف نور بصيرته، فاهتدى عقله الكبير إلى الآيات البينات فى ملكوت السموات والأرض على وحدانية مبدع الوجود، وسر النظام السارى فى كل موجود، بما صار به أهلاً لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وما زال يفكر ويتأمل، وينفعل ويتململ، ويتقلب بين الآلام والآمال، حتى أيقن أنه هو النبى ﷺ المنتظر، الذى يبعثه الله لهداية البشر، فتجلى له هذا الاعتقاد فى الرؤى المنامية ثم قوى حتى صار يتمثل له الملك يلقنه الوحى فى اليقظة.

وأما المعلومات التى جاءته فى هذا الوحى فهى مستمدة الأصل من تلك الينابيع التى ذكرناها، ومما هداه إليه عقله وتفكره فى التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح، ولكنها كانت تتجلى له نازلة من السماء، وأنها خطاب الخالق عز وجل بواسطة الناموس الأكبر ملك الوحى جبريل روح القدس عليه السلام، الذى كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى بن مريم وغيرهما من النبيين عليهم السلام.

وقال أحد ملاحدة المصريين، إن سولون الحكيم اليونانى وضع قانونًا وشريعة لقومه فليس بدعًا فى العقل أن يضع محمد ﷺ شريعة أيضًا، وسأبين فساد هذا الرأى أيضًا.

تفنيد تصويرهم للوحى النفسى وإبطاله من وجوه:

(الوجه الأول) أن أكثر المقدّمات التى أخذوا منها هذه النتيجة هى آراء متخيلة، أو دعاوى باطلة، لا قضايا تاريخية ثابتة، كما بينا عند ذكرها، وإذا بطلت المقدمات بطل لزوم النتيجة لها.

مثال ذلك: زعمهم أن محمداً ﷺ سمع من نصارى الشام خبر غلب الفرس وظهورهم على الروم - ليوهموا الناس أن ما جاء فى أول سورة الروم من الإنباء بالمسألة وبأن الروم سيغلبون الفرس بعد ذلك: هو مستمد مما سمعه ﷺ من نصارى الشام وهذا مردود بدلائل التاريخ والعقل: فأما التاريخ فإنه يحدثنا بأن ظهور الفرس على الروم كان فى سنة ٦١٠م وذلك بعد رحلة محمد ﷺ الأخيرة إلى الشام بأربع عشرة سنة وقبل بدء الوحى بسنة. ثم إن التاريخ أنبأنا أن دولة الروم كانت مختلة معتلة

فى ذلك العهد بحيث لم يكن أحد يرجو أن تعود لها الكرة والغلب فى الفرس، حتى أن أهل مكة أنفسهم هزءوا بالخبر وراهن أبو بكر أحدهم على ذلك وأجازه النبى ﷺ فربح الرهان[1].

وأما العقل فإنه يحكم بأن مثل محمد ﷺ فى سمو إدراكه المتفق عليه لا يمكن أن يجزم بأن الغلب سيعود للروم على الفرس فى مدة بضع سنين - لا من قبل الرأى ولا من الوحى النفسى المستمد من الأخبار غير الموثوق بها، وقد صح أن انتصار الروم وقع سنة ٦٢٢م وكان وحى التبليغ للنبى ﷺ سنة ٦١٤ فإذا فرضنا أن سورة الروم نزلت فى هذه السنة يكون النصر قد حصل بعد ثمان سنين، وإن كان فى السنة الثانية تكون المدة سبع سنين، وهو المعتمد فى التفسير، والبضع يطلق على ما بين الثلاث والتسع.

والحكمة فى التعبير عن هذا النبأ بقوله تعالى: ﴿ **غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ** ﴾ [الروم: ٢- ٤] ولم يقل بعد سبع سنين أو ثمان مثلاً - هى إفادة أن الغلب يكون فى الحرب الممتدة فى هذه المدة وأنباء الوحى والعبر لا تكون بأسلوب التاريخ يحدد الوقائع بالسنين، وليس فى وعود القرآن الكثيرة للمسلمين بالنصر وغيره من أنباء الغيب ذكر السنين ولا الشهور. فهذه الآية فريدة فى بابها.

ومثال آخر: ما زعموه من مروره ﷺ فى رحلته إلى الشام بأرض مدين وحديثه مع أهلها، الذى أرادوا به أن يجعلوه أصلاً لما جاء فى القرآن من أخبارها والخبر باطل كما أشرنا إليه عند نقلنا إياه فى المقدمات، ولو صح لما كان من المعقول أن يعتمد محمد ﷺ على ما سمعه فى الطريق من أناس مجهولين لا يوثق بمعرفتهم ولا يصدقهم فيجعله أصلاً للوحى الذى جاءه فى قصة موسى وفى قصة شعيب عليهما السلام.

---

(١) فى القصة روايات من طرق فيها خلاف قدروا فيه البضع وهو فى الأصل من ٣-٩ فقيل خمس وقيل ست ولام النبى ﷺ أبا بكر على تحديده وقد أبهمه الله تعالى، وفى بعضها أنهم أخطئوا الأجل الأول فأمر النبى ﷺ بأن يمادوهم فى الأجل ويزايدوهم فى الرهن ففعلوا ورضى المشركون. وكان الذى تولى قمارهم أبى بن خلف فأظهر الله الروم على الفرس عند انتهائه على رأس السبع من قمارهم الأول.

(الوجه الثانى) لو كان النبى ﷺ تلقى عن علماء النصارى فى الشام شيئًا أو عاشرهم لنقل ذلك أتباعه الذين لم يتركوا شيئًا علم عنه أو قيل فيه ولو لم يثبت إلا دونوه ووكلوا أمر صحته أو عدمها إلى إسناده وما علم من سيرة رواته.

(الوجه الثالث) لو وقع ما ذكر لاتخذه أعداؤه من كبار المشركين شبهة يحتجون بها على أن ما يدعيه من الوحى قد تعلمه فى الشام من النصارى، فإنهم كانوا يوردون عليه ما هو أضعف وأسخف من هذه الشبهة، وهو أنه كان فى مكة قين (حداد) رومى يصنع السيوف وغيرهما فكان النبى ﷺ يقف عنده أحيانًا يشاهد صنعته فاتهموه بأنه يتعلم منه، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

(الوجه الرابع) نصوص القرآن صريحة فى أنه ﷺ لم يكن يعرف شيئًا من أخبار الرسل وقصصهم قبل الوحى، وهم متفقون معنا على أنه ﷺ لم يكن يكذب على أحد فضلاً عن الكذب على الله عز وجل، كما اعترف بذلك أعدى أعدائه أبو جهل كما أنهم متفقون معنا على قوة إيمانه بالله عز وجل ويقينه بكل ما أوحاه إليه.

ومن الشواهد على ذلك: قوله تعالى عقب قصة موسى فى مدين وما بعدها من سورة القصص: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [القصص: ٤٤، ٤٥] وقوله بعد قصة نوح من سورة هود: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩] ونحوه فى أواخر سورة يوسف بعد قصته ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٢]. ومن الشواهد التى لم يكن يعرفها أحد من أهل الكتاب قوله تعالى بعد قصة زكريا وولادة مريم وكفالته لها. فيتوهم أنه مأخوذ عنهم ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

الأقلام جمع قلم تطلق على الأزلام والأقداح التى كانوا يلقونها لضرب القرعة لإزالة الخلاف فيما يتنازعون فيه، وعلى أقلام الكتابة، وتكون القرعة بأوراق تخط بها كما هو المعهود فى عصرنا، والمعنى أنهم اختصموا وتنازعوا فى كفالة مريم وتربيتها عناية بأمرها فأصابت القرعة زكريا عليه وعليها السلام، كما قال تعالى فى أول قصتهما (٣ : ٣٧).

(الوجه الخامس) أنه لم يرد فى الأخبار الصحيحة والمرفوعة[1] أن محمداً ﷺ كان يرجو أن يكون هو النبى المنتظر الذى كان يتحدث عنه بعض علماء اليهود والنصارى قبل بعثته، ولو روى عنه شىء من ذلك لدونه المحدثون لأنهم ما تركوا شيئًا بلغهم عنه إلا دونوه، كما رووا مثله عن أمية بن أبى الصلت بل صرح القرآن المجيد بأنه لم يكن يرجو هذا ولا يؤمله قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] أى لكن ألقى إليك رحمة من ربك بك وبالناس كلهم. لا كسب لك فيه بعلم ولا عمل. ولا رجاء ولا أمل فهذا تأكيد وتكميل الشاهد الأول من الوجه الرابع.

(الوجه السادس) أن حديث بدء الوحى الذى أثبته الشيخان فى الصحيحين وغيرهما من المحدثين صريح فى أنه ﷺ خاف على نفسه لما رأى الملك أول مرة ولم تجد زوجته خديجة بنت خويلد العاقلة المفكرة وسيلة يطمئن بها على نفسه وتطمئن هى عليه إلا استفتاء أعلم العرب بهذا الشأن وهو ابن عمها ورقة بن نوفل الذى كان تنصر، وقرأ كتب اليهود والنصارى.

(الوجه السابع) لو كانت النبوة أمراً كان يرجوه محمد ﷺ ويتوقعه، وكان قد تم استعداده له باختلائه وتعبده فى الغار، وما صوروا به حاله فيه من الفكر المضطرب، والوجدان الملتهب، والقلب المتقلب، حتى إذا كمل استعداده. تجلى له رجاؤه واعتقاده، بما تم به مراده، لظهر عقب ذلك كل ما كانت تنطوى عليه نفسه الوثابة، وفكرته الوقادة، فى سورة أو سور من أبلغ سور القرآن، فى بيان أصول الإيمان،

(١) الحديث المرفوع فى اصطلاح المحدثين ما صرح الصحابى بأنه من قول النبى ﷺ.

وتوحيد الديّان واجتثاث شجرة الشرك وعبادة الأوثان، وتشريع الأحبار والرهبان، واتخاذ الولد للرحمن وإنذار رءوس الكفر والطغيان، ما سيلقون فى الدنيا من الخزى والنكال وفى الآخرة من عذاب النار كسور المفصل ولا سيما (ق والقرآن المجيد) والذاريات والطور والنجم والقمر، ثم الحاقة والنبأ أو فى سورة أو أكثر من السور الوسطى التى تقرعهم بالحجج، وتأخذهم بالعبر، وتضرب لهم المثل، بسنن الله فى الرسل، كسور الأنبياء والحج والمؤمنون.

ولكنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على الناس سورة ولم يدعهم إلى شىء ولا تحدث إلى أهل بيته ولا أصدقائه بمسألة من مسائل الإصلاح الدينى الذى توجهت إليه بزعمهم نفسه ولا من ذم خرافات الشرك الذى ضاق به ذرعه؛ إذ لو تحدث بذلك لنقلوه عنه، وناهيك بألصق الناس به: خديجة وعلى وزيد بن حارثة فى بيته وأبى بكر الصديق الذى عاشره طول عمره - فهذا السكوت وحده فى فترة الوحى برهان قاطع على بطلان ما صوّروا به استعداده للوحى الذاتى الذى زعموه واستمداده لعلومه من التلقى الذى اختلقوه والاختبار الذى توهموه.

(الوجه الثامن) أن ما نقل من ترتيب نزول الوحى بعد هذه الفترة الطويلة جاء موافقًا لما كان يتجدد من الوقائع والحوادث الطارئة، دون ما زعموا من الأمور السابقة، فقد نزل ما بعد صدر سورة المدثر ردًا على قول الوليد بن المغيرة المخزومى الذى قاله فى القرآن - فقد أراده أبو جهل أن يقول فيه قولاً يبلغ قومه أنه منكر له، وأنه كاره له، بعد أن علم أنه تحرى استماعه من محمد ﷺ وأعجب به قال له الوليد: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر، لا برجزه ولا بقصيده منى، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله[1] وأنه ليعلو وما يعلى، وأنه ليحطم ما تحته قال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، فقال: دعنى حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره من غيره، فنزلت الآيات ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ [المدثر: ١١] إلى الآية ٣٠ رواه الحاكم عن ابن عباس بإسناد صحيح على شرط البخارى.

(١) وفى رواية: وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق.

وقد نزلت سورة اقرأ فسورة ن والقلم فسورة المزمل قبل سورة المدثر، ونزل بعدها أكثر من ثلاثين سورة من قصار المفصل وأوساطه ليس فيها شيء مما زعموا أنه تلقاه أو شاهده فى الأسفار، ولا مما وصفوا من أفكاره فى الغار، فليراجع ترتيب نزول السور فى كتاب الإتقان من شاء.

(الوجه التاسع) إن هذه المعلومات المحمدية التى تصورها هؤلاء المحللون لمسألة الوحى قليلة المواد ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحى القرآن.

وإن القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يعرفه مثل بحيرا ونسطور وكل نصارى الشام ونصارى الأرض ويهودها. دع الأعراب الذين كان يمر بهم النبى ﷺ بالطريق إلى الشام أو حضرهم.

وأن القرآن نزل مصدقًا لكتب أهل الكتاب من حيث كونها فى الأصل من وحى الله إلى موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم - ونزل أيضًا مهيمنًا عليها أى رقيبًا وحاكمًا كما نصت عليه الآية (٤٨) من سورة المائدة (الخامسة) ومما حكم به على أهلها من اليهود والنصارى أنهم أوتوا نصيبًا من الكتاب (٤ : ٤٤ و ٥١) أى لا كله ونسوا حظًا آخر منه (٥ : ١٣ و ١٤) وأنهم حرفوا كلمه عن مواضعه (٢ : ٧٥ و ٤ : ٤٦ و٥ : ١٣ و ٤١) وبيّن كثيراً من المسائل الكبرى بما خالفوا واختلفوا فيه من العقائد والأحكام والأخبار(١).

ومثل هذه الأحكام العليا عليهم لا يمكن أن تكون مستمدة من أفراد من الرهبان أو غير الرهبان، أفاضوها على محمد ﷺ فى رحلته التجارية إلى الشام. سواء أكان عند بعضهم بقية من التوحيد الموسوى والعيسوى الذى كان يقول به آريوس وأتباعه أم لا؟ وسواء أكان لدى بعضهم بقية من الأناجيل التى حكمت الكنيسة الرسمية بعد قانونيتها (أبو. كريف كإنجيل طفولة المسيح وإنجيل برنابا أم لا؟ فمحمد ﷺ لم يعقد فى الشام ولا فى مكة مجمعًا مسيحيًا كمجامع الكنيسة للترجيح بين الأناجيل والمذاهب المسيحية ويحكم بصحة بعضها دون بعض.

---

(١) راجع فى ص ٤٣ الآية ١٦ : ٦٣.

إن وقوع مثل هذا منه فى تلك الرحلة مما يعلم واضعو هذه الأخبار ببداهة العقل مع عدم النقل أنه محال عادة، وعلى فرض وقوعه يقال كيف يمكن أن يحكم بين تلك الأناجيل وتلك المذاهب برأيه فى تلك الخلسة التجارية للنظر فيها ويأمن على حكمه الخطأ؟

وقد صح عنه أنه قال ﷺ فى شأن أهل الكتاب «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم»(١) يعنى فيما سكت عنه القرآن لئلا يكون ما كذبوهم فيه مما حفظوا أو يكون ما صدقوهم به مما نسوا حقيقته أو حرفوا أو بدلوا.

(الوجه العاشر) أن ما فى القرآن ما هو مخالف للعهدين العتيق والجديد وهو مما لا يعلم إلى الآن أن أحدًا من اليهود والنصارى قال به، كمخالفة سفر الخروج فيمن تبنت موسى ففيه أنها ابنة فرعون وفى القرآن أنها امرأته -وفيما فيه من عزو صنع العجل الذى عبده بنو إسرائيل إلى هارون عليه السلام بعزوه إياه إلى السامرى وإثباته لإنكار هارون عليهم فيه، وغير ذلك.

بل ما جاء به محمد ﷺ أكبر وأعظم من كل ما فى الكتب الإلهية ما صح منها وما لم يصح كما سنبينه.

رويدكم أيها المفتاتون(٢) الذين يقولون ما لا يعلمون، إن وحى القرآن أعلى مما تزعمون وأكبر مما تتصورون وتصورون، وإن محمدًا ﷺ، أقل علمًا كسبيًا مما تدعون وأكمل استعدادًا لتلقى كلام الله عن الروح القدس مما تستكبرون.

وإذا كان وحى القرآن أعلى وأكمل من جميع ما حفظ عن أنبياء الله ورسله لأنه الخاتم لهم المكمل لشرائعهم الخاصة الموقوتة، فأجدر به أن يكون أكمل مما وضعه

---

(١) رواه البخارى بهذا اللفظ، وأحمد والبزار من حديث جابر بلفظ «لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا اتباعى» وسببه أن عمر كتب شيئًا من التوراة عن اليهود. فعلم النبى ﷺ فغضب وقاله.

(٢) يقال افتات فلان إذا سبق بفعل شىء واستبد به ولم يؤامر فيه من هو أحق بالأمر فيه لأنه أعلم به وأجدر بتحقيقه، ويقال فلان لا يفتات عليه أى لا يتدخل فى أموره بدون أمره وإذنه. وأصله الهمز. فيقال: افتأت عليه أيضًا.

سولون الفيلسوف اليونانى الذى شبه محمداً ﷺ به أحد ملاحدة عصرنا فى مصرنا، مع بُعد الشبه بين أمى نشأ بين الأميين ﷺ. وفيلسوف نشأ فى أمة حكمة وتشريع ودولة وسياسة، ودخل فى كل أمور الأمة والدولة كسولون هذا(١).

القول الحق فى استعداد محمد ﷺ للنبوة والوحى:

التحقيق فى صفة حال محمد ﷺ من أول نشأته، وإعداد الله تعالى إياه لنبوته ورسالته: هو أنه خلقه كامل الفطرة ليبعثه بدين الفطرة، وأنه خلقه كامل العقل الاستقلالى الهيولانى ليبعثه بدين العقل المستقل والنظر العلمى، وأنه كمله بمعالى الأخلاق؛ ليبعثه متممًا لمكارم الأخلاق، وأنه بغض إليه الوثنية وخرافات أهلها ورذائلهم من صغر سنه، وحبب إليه العزلة حتى لا تأنس نفسه بشىء مما يتنافسون فيه من الشهوات واللذات البدنية، أو منكرات القوة الوحشية، كسفك الدماء والبغى على الناس أو المطامع الدنيئة كأكل أموال الناس بالباطل؛ ليبعثه مصلحًا لما فسد من أنفس الناس ومزكيًا لهم بالتأسى به، وجعله المثل البشرى الأعلى؛ لتنفيذ ما يوحيه إليه من الشرع الأعلى ﷺ.

فكان من عفته أن سلخ من سنى شبابه وفراغه خمسًا وعشرين سنة مع زوجته خديجة كانت فى عشر منها كهلة نصفًا أم أولاد، وفى ١٥ منها عجوزاً يائسة من

(١) سولون أحد فلاسفة اليونان السبعة فى القرن السابع قبل المسيح ووالدته من أنسباء بستراتوس آخر ملوك أثينا، وكان من رجال المال ورجال الحرب وتولى فى بلاده بعض الأعمال الإدارية والعسكرية و قيادة الجيش. وقد انتخب فى سنة ٩٥٤ق. م (أرخونًا) أى رئيسًا على الأمة بإجماع أحزابها كلهم وقلدوه سلطة مطلقة لتغيير ما شاء من نظم البلاد وقانونها الذى وضعه (زراكوت) من قبله فوضع لهم نظامًا جديداً قررت الحكومة والأمة اتخاذه دستوراً متبعًا مدة عشر سنين. فسولون كان فى قانونه منقحًا ومجدداً لقانون أعظم أمة من أمم الحكمة والحضارة نشأ فيها، فكان متعلمًا وفيلسوفًا وحاكمًا وقائداً ورئيسًا. أفيقاس عليه محمد ﷺ الأمى الذى لم يقرأ سطراً ولم ير كتابًا، ولا تولى عملاً إداريًا ولا سياسيًا، ثم إن ما جاء به لم يكن قانونًا موضعيًا منقحًا لقوانين أخرى قبله، بل كان إصلاحًا لجميع البشر فى عقائدهم وآدابهم وأحكامهم وسياستهم وحروبهم إلخ؟ إنظر أيها القارئ إلى شبهات ملاحدة المسلمين على دينهم ونبيهم ﷺ الذى هو مناط شرفهم وفخرهم على الأمم!!

النسل، فتوفيت فى الخامسة والستين وهى أحب الناس إليه، وظل يذكرها ويفضلها على جميع من تزوج بهن من بعدها، حتى عائشة بنت الصديق على جمالها وحداثتها وذكائها وكمال استعدادها للتبليغ عنه ومكانة والدها العليا فى أصحابه، وظل طول عمره يكره سفك الدماء ولو بالحق، فكان على شجاعته الكاملة، يقود أصحابه لقتال أعداء الله وأعدائه المعتدين عليه وعليهم، لأجل صدهم عن دينه، ولكنه لم يقتل بيده إلا رجلاً واحداً منهم (هو أبى بن خلف) كان موطنًا نفسه على قتله ﷺ فهجم عليه وهو مدجج بالحديد من مغفر ودرع، فلم يجد ﷺ بدًا من قتله فطعنه فى ترقوته من خلل الدرع والمغفر فقتله، وظل طول عمره ثابتًا على أخلاقه من الزهد والجود والإيثار، فكان بعد ما أفاء الله عليه من غنائم المشركين واليهود يؤثر القشف وشظف العيش على نعمته، مع إباحة شرعه لأكل الطيبات ونهيه عن تركها تدينًا، وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله، مع إباحة دينه للزينة وأمره بها عند كل مسجد وكان يساعد أهل بيته على خدمة الدار ﷺ.

أكمل الله استعداده الفطرى الوهبى «لا الكسبى» للبعثة بإكمال دين النبيين، والمرسلين. والتشريع الكافى الكافل لإصلاح جميع البشر إلى يوم الدين، وجعله حجة على جميع العالمين. بأن أنشأه كأكثر قومه أميًا، وصرفه فى أميته عن اكتساب أى شيء من علوم البشر من قوم العرب الأميين ومن أهل الكتاب حتى إنه لم يجعل له أدنى عناية بما يتفاخر به قومه من فصاحة اللسان، وبلاغة البيان، من شعر وخطابة، ومفاخرة ومنافرة[1] إذ كانوا يؤمون أسواق موسم الحج وأشهرها عكاظ[2] من جميع

(١) النافرة: المحاكمة والمفاخرة فى الأحساب والأنساب.

(٢) كان للعرب فى عهد الجاهلية أسواق ومجامع فى الحجاز يقصدونها فى موسم الحج للبيع والشراء، ولإظهار مناقبهم ومجد آبائهم وقبائلهم، أولها عكاظ بالضم «بوزن غراب» وهى من عمل الطائف على طريق اليمن. وقال أبو عبيد: هى صحراء مستوية لا علم (بفتحتين) بها ولا جبل، وهى بين نجد والطائف وكان يقام فيها السوق نحواً من نصف شهر ذى القعدة، ثم يأتون سوق ذى مجنة (بكسر الميم وتشديد النون) وهى دون عكاظ إلى مكة، فيقيمون فيها إلى آخر ذى القعدة، ثم يأتون سوق ذى المجاز وهى إلى مكة فيقيمون فيها إلى يوم التروية (وهو الذى قبل عرفة الذى هو تاسع ذى الحجة) ومنها يصدرون إلى منى فعرفات.

النواحى لإظهار بلاغتهم وبراعتهم، فكان ذلك أعظم الأسباب لارتقاء لغتهم، واتساع معارفهم، وكثرة الحكمة فى شعرهم، فكان من الغريب أن يزهد محمد ﷺ فى مشاركتهم فيه بنفسه وفى روايته لما عساه يسمعه منه، وقد سمع بعد النبوة زهاء مائة قافية من شعر أمية بن أبى الصلت فقال ﷺ «إن كاد ليسلم» وقال ﷺ «آمن شعره وكفر قلبه» وقال ﷺ «إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر حكمًا» رواه أحمد وأبو داود من حديث ابن عباس، وأما قوله ﷺ «إن من البيان لسحرًا» فقد رواه مالك وأحمد والبخارى وأبو داود والترمذى من حديث ابن عمر.

قلنا: إن الله تعالى جعل استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة فطريًا وإلهاميًا لم يكن فيه شىء من كسبه بعلم ولا عمل لسانى ولا نفسى، وأنه لم يرو عنه أنه كان يرجوها كما روى عن أمية بن أبى الصلت، بل أخبر الله عنه أنه لم يكن يرجوها كما تقدم ولكن روى عن خديجة رضى الله عنها أنها لما سمعت من غلامها ميسرة أخبار أمانته ﷺ وفضائله وكراماته، وما قاله بحيرا الراهب فيه، تعلق أملها بأن يكون هو النبى الذى يتحدثون عنه ﷺ، ولكن هذه الروايات لا يصل شىء منها إلا درجة المسند الصحيح كحديث بدء الوحى الذى أوردناه آنفًا، فإن قيل: إنه يقويها حلفها بالله أن الله تعالى لا يخزيه أبدًا، قلنا: إنها عللت ذلك بما ذكرته من فضائله. ورأت أنها فى حاجة إلى استفتاء ابن عمها ورقة فى شأنه.

وأما اختلاؤه ﷺ وتعبده فى الغار عام الوحى فلا شك فى أنه كان عملاً كسبيًا مقويًا لذلك الاستعداد الوهبى، ولذلك الاستعداد السلبى، من العزلة وعدم مشاركة المشركين فى شىء من عباداتهم ولا عاداتهم. ولكنه لم يكن يقصد به الاستعداد للنبوة؛ لأنه لو كان لأجلها لاعتقد حين رأى الملك أو عقد رؤيته حصول مأموله وتحقق رجائه، ولم يخف منه على نفسه، وإنما كان الباعث لهذا الاختلاء والتحنث اشتداد الوحشة من سوء حال الناس والهرب منها إلى الأنس بالله تعالى والرجاء فى هدايته إلى المخرج منها، كما بسطه شيخنا الأستاذ الإمام فى تفسير قوله تعالى من سورة الضحى

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧] وما يفسره من قوله في سورة الشورى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣] وألمّ به في رسالة التوحيد إلمامًا مختصرًا مفيدًا، فقال (أي الشيخ محمد عبده):

«من السنن المعروفة أن يتيمًا فقيرًا أميًا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لا سيما إن كان من ذوى قرابته، وأهل عصبته، ولا كتاب يرشده، ولا أستاذ ينبهه، ولا عضد إذا عزم يؤيده، فلو جرى الأمر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم، وأخذ بمذاهبهم إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع إلى مخالفتهم، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده[1].

ولكن الأمر لم يجر على سنته، بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره، فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسن الخليقة. وما جاء فى الكتاب من قوله ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ﴾ لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم، حاش لله إن ذلك لهو الإفك المبين، وإنما هى الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص، فيما يرجعون للناس من الخلاص، وطلب السبيل، إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهالكين، وإرشاد الضالين، وقد هدى الله نبيه ﷺ إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته» اهـ.

(أقول) وجملة القول إن استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة عبارة عن جعل الله تعالى روحه الكريمة كمرآة صقيلة حيل بينها وبين كل ما فى العالم من التقاليد الدينية والأعمال الوراثية والعادات المنكرة، إلى أن تجلى فيها الوحى الإلهى بأكمل معانيه، وأبلغ مبانيه؛ لتجديد دين الله المطلق الذى كان يرسل به رسله إلى أقوامهم خاصة بما

(١) كأمية بن أبى الصلت وعمرو بن نفيل.

يناسب حالهم واستعدادهم، وأراد إكمال الدين به فجعله خاتم النبيين، وجعل رسالته عامة دائمة، لا يحتاجون بعدها إلى وحى آخر ﷺ.

الأمثال النورانية لفطرة محمد ﷺ وروحه ووحيه، وكتاب الله تعالى ودينه:

لقد كان محمد ﷺ فى فطرته السليمة، وروحه الشريفة، وما نزل عليها من المعارف العالية. وما أشرق فيها من نور الله عز وجل الذى تلوته عليك آنفًا من آخر سورة الشورى هو مضرب المثل فى قوله تعالى من سورة النور ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥].

●●●

الفصل الرابع:

فى إعجاز القرآن بأسلوبه وبلاغته، وتأثيره وثورته

أسلوب القرآن فى تركيبه المزجى:

لو أن عقائد الإسلام المنزلة فى القرآن من الإيمان بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وما فيه من الحساب والجزاء. ودار الثواب ودار العقاب. جمعت مرتبة فى ثلاث سور أو أربع أو خمس مثلاً ككتب العقائد المدونة.

ولو أن عباداته من الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والدعاء والأذكار وضع كل منها فى بضع سور أيضًا مبوبة مفصلة ككتب الفقه المصنفة.

ولو أن آدابه وحكمه وفضائله الواجبة والمندوبة، وما يقابلها من الرذائل والأعمال المحرمة والمكروهة أفردت هى وما تقتضيه من الترغيب والترهيب من المواعظ والنذر والأمثال الباعثة لشعورى الخوف والرجاء. فصلت فى عشر سور أو أكثر ككتب الأخلاق والآداب المؤلفة.

ولو أن قواعده التشريعية، وأحكامه الشخصية والسياسية والحربية والمالية والمدنية وحدوده وعقوباته التأديبية، رتبت فى عدة سور خاصة بها كأسفار القوانين الوضعية ثم لو أن قصص النبيين والمرسلين وما فيها من العبر والمواعظ والسنن الإلهية سردت فى سورها مرتبة كدواوين التاريخ.

لو أن كل ما ذكر وما لم يذكر من مقاصد القرآن التى أراد الله بها إصلاح شؤون البشر جمع كل نوع منها وحده كترتيب أسفار التوراة التاريخى التى لا يعلم أحد مرتبها، أو كتب العلم والفقه والقوانين - لفقد القرآن بذلك أعظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الأول من التشريع وحكمة التنزيل، وهو التعبد به واستفادة كل حافظ للكثير أو للقليل من سوره -حتى القصير منها- كثيراً من مسائل الإيمان والفضائل والأحكام والحكم المنبثة فى جميع السور؛ لأن السورة الواحدة لا تحوى فى هذا الترتيب المفروض إلا مقصداً واحداً من تلك المقاصد، وقد يكون أحكام الطلاق أو

الحيض. فمن لم يحفظ إلا سورة طويلة فى موضوع واحد يتعبد بها وحدها، فلا شك أنه يملها.

وأما سوره المنزلة بهذا الأسلوب الغريب، والنظم العجيب، فقد يكون فى الآية الواحدة الطويلة والسورة الواحدة القصيرة، عدة ألوان من الهداية وإن كانت فى موضوع واحد؛ فترى فى سورتى الفيل وقريش على قصرهما ذكر مسألتين تاريخيتين قد جعلتا حجة على مشركى قريش فيما يجب عليهم من توحيد الله وعبادته، مما منَّ عليهم بعنايته بحفظ البيت الحرام وأمنه وهو مناط عزهم وفخرهم وشرفهم ومعقل حياتهم ومجبى تجارتهم ورزقهم.

قلت: إن القرآن لو أنزل بأساليب الكتب المألوفة المعهودة وترتيبها لفقد أعظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الأول. وأقول **أيضًا**: إنه لو أنزل هكذا لفقد بهذا الترتيب أخص مراتب إعجازه المقصود بالدرجة الثانية. كلا إن كل واحدة من المزيتين مقصودة لذاتها. فالأولى أن يعبر عن المزية الأولى بالموضوع وعن الثانية بالشكل. كاصطلاح المحاكم. فيقال: لو كان القرآن مرتبًا مبوبًا كما ذكر لكان خاليًا من أعظم مزاياه على غيره من الكتب شكلاً وموضوعًا.

يعلم هذا وذاك مما نبينه من فوائد نظمه وأسلوبه الذى أنزله به رب العالمين، العليم الحكيم الرحيم، وهو مزج تلك المقاصد كلها بعضها ببعض وتفريقها فى السور الكثيرة الطويلة منها والقصيرة، بالمناسبات المختلفة، وتكرارها بالعبارات البليغة. المؤثرة فى القلوب المحركة للشعور، النافية للسآمة والملل، ومن المواظبة على ترتيلها بنغمات نظمه الخاص به وفواصله المتعددة القابلة لأنواع من التغنى والنغم الذى يحرك فى القلب وجدان الخشوع، وخشية الإجلال للرب المعبود، والعرفان بقدسه وكماله، والملاحظة لجماله وجلاله، والتعرض لتجلى أسمائه وصفاته، والتفكر فى آيات مصنوعاته، والرجاء فى رضوانه ورحمته، والخوف من غضبه وعقوبته، والاعتبار بسننه فى خلقه، والقابلة لأنواع أخرى من الإلقاء الخطابى فى الترغيب والترهيب،

والتعجب ، والتعجيب ، والتكريه والتحبيب والزجر والتأنيب ، واستفهام الإنكار والتقرير ، والتهكم والتوبيخ بما لا نظير له فى كلام البشر من خطابة ولا شعر ، ولا رجز ولا سجع . فهذا الأسلوب الرفيع فى النظم البديع وبلاغة التعبير الرفيع كان القرآن كما ورد فى معنى وصفه أنه لا تبلى جدته ولا تخلقه كثرة الترديد[1] . حكمة ذلك وغايته تعلم مما وقع بالفعل . وهاك بيانه بالإجمال :

الثورة والانقلاب الذى أحدثه القرآن فى الأمة العربية فسائر الأمم:

القرآن كتاب أنزله الله تعالى على قلب رجل أمى نشأ ﷺ على الفطرة البشرية سليم العقل صقيل النفس ، طاهر الأخلاق ، لم تملكه تقاليد دينية ، ولا أهواء دنيوية ، لأجل إحداث ثورة وانقلاب كبير فى العرب فسائر الأمم ، يكتسح من العالم الإنسانى ما دنس فطرته من رجس الشرك والوثنية ، الذى هبط بهذا الإنسان من أفقه الأعلى فى عالم

(١) المعنى المراد من الحديث هنا أن القرآن لا تنقضى عجائبه الدالة على أنه من الله تعالى ، ولا يمل ويسأم من كثرة التلاوة ، ولا يخلق بطول الزمان ، وهو من خلق الثوب إذا بلى ، وأخلقه أبلاه ، وأصح ما ورد فى هذا ما رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه ومحمد بن نصر وابن الأنبارى فى كتاب المصاحف والحاكم فى المستدرك وصححه والبيهقى من حديث ابن مسعود مرفوعًا إلى النبى ﷺ ولفظه «إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم . إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه . لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، فاتلوه فإن الله تعالى يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول (ألم) حرف ، ولام وميم» .

قوله : لا يزيغ فيستعتب معناه لا يميل عن الحق فيطلب منه العتبى أى الرجوع إليه .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بصالح بن عمر ، أى ولم يخرجه البخارى ومسلم بسبب ما قيل فى صالح بن عمر فى سنده ، وليس كذلك فإن صالحًا قد خرج له مسلم وإنما تركاه بسبب شيخه إبراهيم بن مسلم الهجرى (بفتحتين) الذى ضعفه الجمهور وما ضعفوه بطعن فى صدقه أو حفظه وإنما وجدوا أنه رفع عدة أحاديث إلى النبى ﷺ هى موقوفة على عبد الله بن مسعود ، وكذا على عمر (رضى الله عنه) . لكن صرح سفيان بن عيينة بأنه جاء إبراهيم هذا فأعطاه كتبه فصحح له المرفوع والموقوف بقوله هذا عن النبى ﷺ وهذا عن عبد الله بن مسعود وهذا عن عمر ، والظاهر أن هذا الحديث مما رفعه سفيان ؛ ولذلك خرجه ابن أبى شيبة ومن ذكرنا مرفوعًا . وروى نحوه من حديث على كرم الله وجهه واعتمده القاضى الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن .

الأرض، إلى عبادة مثله وما هو دونه من هذه المخلوقات - وما أفسد عقله وذهب باستقلال فكره من البدع الكنسية، والتقاليد المذهبية، التى أحالت توحيد الأنبياء الأولين شركًا، وحقهم باطلاً، وهدايتهم غواية - وما أفسد بأسه، وأذل نفسه، وسلبه إرادته، من استبداد الملوك الظالمين، والرؤساء القاهرين.

ثورة تحرر العقل البشرى والإرادة الإنسانية من رق المنتحلين لأنفسهم صفة الربوبية، أو النيابة عن الرب الخالق تعالى فى التحكم والهيمنة والسيطرة على قلوب الناس وعقولهم، والتصرف فى إرادتهم وأموالهم، فيكون بهذا العتق كل امرئ اهتدى به حرًا كريمًا فى نفسه، عبدًا خالصًا لربه وإلهه، يوجه قواه العقلية والبدنية إلى تكميل نفسه وجنسه.

مثل هذه الثورة الإنسانية لا يمكن أن تحدث إلا على قاعدة القرآن فى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وكيف يكون تغيير الأقوام لما بأنفسهم من العقائد والأخلاق والصفات الثابتة، التى طبعتها عليها العبادات الموروثة والعادات الراسخة؟

هل يكفى فى ذلك قيام مصلح فيهم يضع لهم كتابًا تعليميًا جافًا ككتب الفنون يقول فيه: إنكم أيها الناس ضالون فاسدون. ومضلون. فاعملوا بهذا الكتاب تهتدوا وتصلحوا. أو قانونًا مدنيًا يقول فى مقدمته: نفذوا هذا القانون تحفظ حقوقكم وتعتز أمتكم وتقو دولتكم؟ أنى وقد عهد من الناس الفاسدين سوء التصرف بكتب أنبيائهم المرسلين. وإهمال قوانين حكمائهم المصلحين. كما فعل أهل الملل الأولون والمسلمون المتأخرون؟

كلا. إنما توضع القوانين للحكومات المنظمة ذات السلطان والقوة التى تكفل تنفيذها. وأنى لمحمد ﷺ فعل هذا فى الأمة العربية العاتية عن كل سيطرة ونظام. وقد بعث بالحجة والبرهان. فريدًا وحيدًا لا عصبة له من قومه ولا سلطان؟ على أنه جاء لإصلاح الأخلاق والطباع بالحجة القيمة وطرق الإقناع. والخضوع لوازع الاعتقاد النفسى. دون وازع الحكم القهرى. ليغير الناس ما بأنفسهم بالاختيار. لا بالقوة

والإجبار. فيغير الله ما بهم بمقتضى سنته فى نظام الاجتماع. وقد نطق القرآن بأن الرسول إنما هو مبلغ ومذكر. غير جبار على الناس ولا مسيطر ﷺ.

كلا إن هذه الثورة ما كان يمكن أن تحدث إلا بما حدثت به، وهو تأثير هذا القرآن فى أنفس الأمة العربية، التى كانت أشد الأمم البدوية والمدنية استعداداً فطريًا لظهور الإسلام فيها، كما بيناه فى كتابنا (خلاصة السيرة المحمدية) وسنلم به قريبًا.

ذلك بأن من طباع البشر فى معرفة الحق والباطل والخير والشر، والعمل بمقتضى المعرفة وإن خالف مقتضى الأهواء والشهوات، والتقاليد والعادات، أن مجرد البيان والإعلام والأمر والنهى لا يكفى فى الحمل على التزام الحق ونصره على الباطل، ولا فى أداء الواجب من عمل الخير وترك الشر إذا عارض المقتضى العلمى لهما ما أشرنا إليه آنفًا من الموانع النفسية والعملية، إلا فى بعض الأفراد من الناس، دون الجماعات والأقوام بل مضت سنة الله فى تثبيت الحق والخير فى النفس، وصدور آثارهما عنهما بالعمل، أنه يتوقف على صيرورة الإيمان بهما إذعانًا وجدانيًا حاكمًا على القلب، راجحًا على ما يخالفه من رغب ورهب، وأمل وألم، وإنما يكون هذا فى الأحداث بالتربية العلمية العملية، والأسوة الحسنة لهم فيمن ينشؤون بينهم من الوالدين والأقربين والمعاشرين.

وأما كبار السن فلا سبيل إلى جعل الإيمان بالحق المطلق والخير العام إذعانًا وجدانيًا لجمهورهم إلا بالأسلوب الذى نزل به القرآن، بل بالقرآن الممتاز بهذا الأسلوب، فقلب به طباع الكهول والشبان وأخلاقهم وتقاليدهم وعاداتهم، وحولها إلى أضدادها علمًا وعملاً بما لم يعهد له نظير فى البشر، فكان القرآن آية خارقة للمعهود من سنن الاجتماع البشرى فى تأثيره، بالتبع لكونه آية معجزة للبشر فى لغته وأسلوبه، كما كان آية معجزة فى إصلاحه للأمم بهديه وتعليمه.

اعتبار الموازنة بين تأثير القرآن فى العرب والتوراة فى بنى إسرائيل:

واعتبر هذا ببنى إسرائيل سلالة النبيين؛ فإن كان ما رأوه بمصر من آيات موسى عليه السلام، ثم ما رأوه فى برية سيناء ومدة التيه فيها، ومن عناية الله تعالى بهم، ومن

سماعهم كلام الله تعالى بآذانهم فى لهيب النار المشتعلة على ما ترويه توراتهم -ولم يثبت عندنا التكليم إلا لنبيهم- لم يتغير بذلك كله ما كان بأنفسهم من تأثير الوثنية المصرية وخرافاتها الراسخة في قلوبهم، ولا من تأثير السياسة الفرعونية المستبدة فى أخلاقهم، فقد عذبوا موسى عذابًا نكرًا، وعاندوه فى كل ما كان يأمرهم به، وعبدوا صنم العجل الذهبى فى أثناء مناجاته لربه، حنينًا إلى ما كان من عبادة مستعبديهم الفرعونيين للعجل (أبيس) حتى وصفهم الله فى التوراة بالشعب الصلب الرقبة، وهو كناية عن البلادة والعناد، وعصل الطباع[1] المانع من الانقياد، وظل ذلك كذلك إلى أن باد ذلك الجيل الفاسد بعد أربعين سنة، ونشأ فيهم جيل جديد ممن كانوا أطفالاً عند الخروج من مصر وممن ولد فى التيه، أمكن أن يعقلوا التوحيد والشريعة. وأن يعملوا بها ويجاهدوا فى سبيلها، وإنما كان ذلك بعد موت موسى عليه السلام.

فأين بنو إسرائيل من أصحاب محمد ﷺ الذين تربوا بسماع القرآن وترتيله وتدبره، فى رسوخهم فى الإيمان وصبرهم على أذى المشركين واضطهاهم إياهم ليفتنوهم عن دينهم، ثم مجاهدتهم لهم عند الإمكان بعد الهجرة، ومجاهدة أعوانهم من أهل الكتاب (اليهود) وتطهيرهم الحجاز وسائر جزيرة العرب من كفر الفريقين فى عهده ﷺ وقد كانت مدة البعثة المحمدية كلها عشرين سنة أى نصف مدة التيه، وكان ذهب نصفها فى الدعوة وتبليغ الدين للأفراد بمكة والنصف الآخر هو الذى تم فيه الانقلاب العربى من تشريع وتنفيذ وجهاد وفتح وتأسيس.

ثم تأمل ما كان من تدفقهم أنفسهم كالسيل الآتى[2] على الأقطار من نواحى الجزيرة كلها، والظهور على ملكى قيصر وكسرى ملوك الأرض، وإزالة الشرك والظلم منهما، ونشر التوحيد والحق والعدل فيهما، ودخول الأمم فى دين الله أفواجًا مختارين اهتداء بهم، وعنايتهم بتعلم العربية بالتبع لعنايتهم بالدين، حتى فتحوا هم وتلاميذهم

(١) أى اعوجاجها مع صلابتها من عصل الشيء «من باب فرح» اعوج فى صلابة فهو عصل «ككتف» واعصل والجمع عصال كسهام.

(٢) الآتى بالتشديد كقوى والأتاوى: الغريب الذى يأتى من حيث لا يعلم.

نصف كرة الأرض فى زهاء نصف قرن، وكانوا مضرب المثل فى الرحمة والعدل[1] وموضع الحيرة لعلماء الاجتماع وقواد الحرب[2].

وأنى يبلغ الشعب الذى وصفه ربه فى كتابه بالشعب المتمرد الصلب الرقبة[3]- درجة الذين وصفهم رب العالمين بقوله: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .... الآية ﴾ [الفتح: ٢٩]. فهذا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الذى نشأ وشب على الشدة والقسوة فى الجاهلية حتى قيل: إنه وأد بنتًا له، صار بالإسلام من أرحم الرحماء بالناس، حتى أنه يطبخ الطعام هو وزوجه ليلاً لامرأة فقيرة فى المخاض وبعلها حاضر لا يساعدهما، ولم يكن يعلم أنه أمير المؤمنين.

لا جرم أن سبب هذا كله تأثير القرآن بهذا الأسلوب الذى نراه فى المصحف؛ فقد كان النبى ﷺ يجاهد به الكافرين كما أمره الله بقوله: ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢] ثم كان به يربى المؤمنين ويزكيهم. كما قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وبهدايته والتأسى بمبلغه ﷺ ربوا الأمم وهذبوها، وقلما يقرؤه أحد كما كانوا يقرءون، إلا ويهتدى به كما كانوا يهتدون على تفاوت فى الاستعداد النفسى واللغوى واختلاف الزمان لا يخفى.

المسلمون أرحم البشر بهداية القرآن:

وكيف لا يكون المؤمنون بالقرآن أرحم الناس؟ وقد امتن الله عليهم به فى قوله: ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ

---

(١) قال الفيلسوف الفرنسى غوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب والإسلام: ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب.

(٢) فى مقدمتهم نابليون بونابارت أشهر قواد الحرب فى العالم وهو الذى قال: إن العرب فتحوا نصف العالم فى نصف قرن، وصرح بأنه يدين بالإسلام كما تراه فى علاوات كتاب حاضر العالم الإسلامى للأمير شكيب (ص ٢٤ جزء أول طبعة ثانية).

(٣) راجع آخر الفصل ٣١ من سفر التثنية وغيره.

﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس: ٥٧]، وقد قلنا فى الكلام على الرحمة من هذه المزايا الأربع للقرآن من تفسير المنار (جزء ١١) ما نصه:

(الرابعة الرحمة للمؤمنين) وهى ما تثمره لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم من رحمة ربهم الخاصة، وهى صفة كمال من آثارها: إغاثة الملهوف، وبذل المعروف، وكف الظلم، ومنع التعدى والبغى. وغير ذلك من أعمال الخير والبر، ومقاومة الشر، وقد وصف الله المؤمنين بقوله﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ وبقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

وهذه الصفات الأربع مرتبة على سنة الفطرة البشرية؛ فالموعظة التعاليم التى تشعر النفس بنقصها وخطر أمراضها الاعتقادية والخلقية، وتزعجها إلى مداواتها وطلب الشفاء منها، والشفاء تخلية، يتبعها طلب التحلية، بالصحة الكاملة، والعافية التامة، وهو الهدى ومن ثمراته: هذه الرحمة التى لا توجد على كمالها إلا فى المؤمنين المهتدين، ولا يحرمها إلا الكافرون الماديون، حتى قال بعضهم إنها ضعف فى القلب، يجعل صاحبه كالمضطر إلى الإحسان والعطف، وما هذا القول إلا من فساد الفطرة وقسوة القلب، وفلسفة الكفر، فلقد كان أشجع الناس وأقواهم بدنًا وقلبًا، أرحم الناس وأشدهم عطفًا وهو سيد ولد آدم محمد رسول الله وخاتم النبيين ﷺ، الذى وصفه ربه بما وصف به نفسه من قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وكذلك كان أصحابه رضى الله عنهم حتى كان من يوصف بالشدة والقسوة كعمر بن الخطاب رضى الله عنه صار من أرحم الناس وسيرته فى ذلك معروفة كما أشرنا إليه آنفًا.

وقد قال ﷺ «لا تنزع الرحمة إلا من شقى» رواه أبو داود والترمذى واللفظ له عن أبى هريرة رضى الله عنه، وقد صح عنه ﷺ أنه كان إذا سمع وهو فى الصلاة بكاء طفل تجوز فى صلاته -أى اختصرها وخففها- رحمة به وبأمه، وروى ابن إسحاق أن بلالاً رضى الله عنه مر بصفية وبابنة عم لها على قتلى قومهما اليهود بعد انتهاء غزوة خيبر

فصكت ابنة عمها وجهها وحثت عليه التراب وهى تصيح . . وتبكى، فقال ﷺ له «أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمراثين على قتلاهما» وجاء أعرابى إليه ﷺ فقال: إنكم تقبلون أولادكم وما نقبلهم. فقال له ﷺ «أوَ أملك لك[1] أن نزع الله الرحمة من قلبك؟» رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة رضى الله عنها. والمراد إنى لا أملك أن أشعرك بما لا تشعر به لأن الله نزع الرحمة من قلبك، فأجعلك رحيمًا.

بل كان ﷺ شديد الرحمة بالبهائم والطير والحشرات، وطالما أوصى بها ولا سيما صغارها وأمهاتها، وجاءه مرة رجل وعليه كساء وفى يده شيء قد التف عليه فقال يا رسول الله إننى لما رأيتك أقبلتُ فمررت بغيضة شجرة فسمعت فيا أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتهن فى كسائى، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسى، وكشفت لها عنهن فوقعت عليهن فلففتها معهن بكسائى، فهن أولاء معى، فقال ﷺ «ضعهن» قال ففعلت فأبت أمهن إلا لزومهن، فقال ﷺ «أتعجبون لرحمة أم الأفراخ بفراخها؟» قالوا نعم، قال ﷺ «والذى بعثنى بالحق لله أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها، ارجع بهن حتى تضعهن حيث أخذتهن وأمهن معهن» فرجع بهن. رواه أبو داود من حديث عامر الرامى رضى الله عنه. وروى مالك والبخارى ومسلم وأبو داود من حديث أبى هريرة مرفوعًا حديثين خلاصتهما أن الله غفر لرجلٍ ولامرأة بغى «أى مومس» لأن كلا منهما رأى كلبًا قد اشتد به العطش فرحمه وأخرج له الماء من البئر بخفه فسقاه قالوا له يا رسول الله إن لنا فى البهائم أجرًا؟ فقال ﷺ «فى كل كبد رطبة أجر» ورواه أحمد عن عبد الله بن عمر وسراقة بن مالك بلفظ «فى كل ذات كبد حرّى أجر».

وقال ﷺ «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء» رواه الترمذى وأبو داود من حديث عبد الله بن عمرو (رضى الله عنه) ورويناه مسلسلاً بالأولية من طريق أستاذنا الشيخ محمد أبى المحاسن القاوقجى وقال ﷺ: «إن مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون،

(١) قوله «أو أملك» همزته للاستفهام الإنكاري والواو مفتوحة ما بعدها معطوف على محذوف تقديره أتكون هكذا وأملك لك من الله شيئًا غيره؟ وقوله «أن نزع» بفتح همزة أن وتقدير لام التعليل أو باء السببية قبلها أى بأن نزع الرحمة من قلبك.

وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحوش على ولدها، وأخَّر الله تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة» وفى رواية : «**ولو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة؛ ولو يعلم المؤمن بكل ما عند الله من العذاب لم يأمن من النار**» رواه البخارى ومسلم والترمذى اهـ.

***

هذا ولو كان القرآن بأسلوب الكتب العلمية والقوانين الوضعية لما كان له ذلك التأثير الذى غيَّر ما بأنفس العرب فغيروا به أمم العجم، فكانوا كلهم كما وصفهم الله عز وجل بقوله : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [آل عمران : ١١٠] ولم يكن عند العرب شىء من العلم بسياسة الأمم وإدارتها إلا هذا القرآن، والأسوة الحسنة بمبلغه ومنفذه الأول عليه الصلاة والسلام، ولن يعود للمسلمين مجدهم وعزهم إلا إذا عادوا إلى هدايته وتجديد ثورته، ولعنة الله على من يصدونهم عنه، زاعمين استغناءهم عن العمل به وبسنة مبينة -بكتب مشايخهم الجافة الخاوية من كل ما يحيى الإيمان، ويعلى الهمم ويزكى الأنفس، ويبعث على الجهاد بالأنفس والأموال.

أما وحق القرآن علينا، والله لم ينزل غيره إلينا، أنه لا يغنينا عن تدبره والاهتداء واحدة من سوره، جميع ما فى الأرض من الكتب المنزلة، ولا من الكتب المصنفة، وما فتن الشيطان هذه الأمة بشىء كما فتنهم بصدهم عن تهذيب أنفسهم وتزكيتها بالقرآن والسنة المبينة له، وعن دعوة جميع أهل الملل به إليه، وقد بينا لك الفرق بين تأثيره وتأثير التوراة، وهاك إجمالاً لما فعله فى الأمة العربية ثم فى العالم.

فعل القرآن فى أنفس الأمة العربية وإحداثها به أكبر ثورة عالمية:

تهوَّد أناس من العرب وتنصر منهم أناس آخرون من قبل الإسلام بقرون، وكان كل منهم يمدح دينه ويدعو إليه بالطبع. فلم يعاد الجمهور أحدًا منهم أو يحتقره لدينه، بل

كان لزعماء اليهود المستعربين وشعراء النصارى من العرب عندهم مكانتهم اللائقة بهم كأمثالهم من المشركين، ولم يكن لليهودية ولا للنصرانية أدنى صولة فى مكة، ولا خافها رؤساء قريش على زعامتهم الدينية ولا الدنيوية، فلما قام فيهم محمد بن عبد الله يتلو عليهم القرآن باسم الله زلزلت الأرض بهم زلزالها، وثاروا عليه ثورتهم الصغرى، ثم ثارت الأمة به ومعه ثورتها الكبرى، وهى التى بدلت الأرض غير الأرض، والقلوب غير القلوب، والعقول غير العقول وقلبت نظام الاجتماع العام.

قد كان فعل القرآن فى أنفس العرب وإحداثه تلك الثورة الكبرى فيهم على نوعين؛ أولهما ما أحدثه من الزلزال فى المشركين. وثانيهما تزكيته للمؤمنين ونزعه كل ما كان بأنفسهم من غل وجهل وظلم وفساد، حتى أعقب ما أعقب من الإصلاح فى العالم كله؛ وأمهد لبيان ذلك بكلمة فى حالهم فى عصر ظهور الإسلام.

بينا مراراً أن الله تعالى قد أعد الأمة العربية ولا سيما قريش ومن حولها لما أراده من الإصلاح العام للبشر بكونهم كانوا أقرب الأمم إلى سلامة الفطرة، وأرقاهم لغة فى التعبير والتأثير، وأقواهم استقلالاً فى العقل والإرادة؛ لعدم وجود ملوك مستبدين فيهم يضعفون إرادتهم ويفسدون بأسهم، ويذلون أنفسهم بالقوة القاهرة ولا رؤساء دين أولى سلطان روحى يسيطرون على عقولهم وقلوبهم، ويتحكمون فى عقائدهم وأفكارهم؛ ويسهرونهم لشهواتهم، وكانت جميع الأمم ذات الحضارة والملل مستعبدة مستذلة لزعماء هاتين الرياستين، حاش العرب.

فلما بعث فيهم محمداً ﷺ بهذا القرآن الداعى إلى الحق وإلى صراط مستقيم؛ كانوا على أتم الاستعداد الفطرى لقبول دعوته، ولكن رؤساء قريش كانوا على مقربة من ملوك شعوب العجم: فى التمتع بالثروة الواسعة، والعظمة الكاذبة، والشهوات الفاتنة، والسرف فى الترف، وعلى حظ مما كان عليه رؤساء الأديان فيها من المكانة الدينية بسدانتهم لبيت الله الحرام، الذى أودع الله تعظيمه فى القلوب من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛ فرأوا أن هذا الدين الحر يوشك أن يسلبهم الانفراد بهذه العظمة الموروثة، وقد يفضل عليهم بعض الفقراء والموالى، وأنه يحكم عليهم وعلى

من يفاخرون بهم من آبائهم بالكفر والجهل والظلم والفسوق ويشبههم بسائمة الأنعام- فوجهوا كل قواهم ونفوذهم إلى صد محمد ﷺ عن دعوته ولو بتمليكه عليهم وجعله أغنى رجل فيهم، ولكن تعذر إقناعه بالرجوع عنها بالترغيب، حتى التمويل والتمليك. فقد أجاب عمه أبا طالب لما عرض عليه ما أرادوه من ذلك بتلك الكلمة العليا ﷺ «**يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته**».

حينئذ أجمعوا أمرهم على صده عن تبليغها بالقوة والحيلولة بينه وبين جماهير الناس في الأسواق والمجامع والبيت الحرام، وبصد الناس عنه أن يأتوه ويستمعوا له وباضطهاد من اتبعه بالدعوة الفردية إلا أن يكون له من يحميه منهم لقرابة أو جوار أو ذمة، فهؤلاء الرؤساء المترفون المسرفون المتكبرون، كانوا أعلم الناس بصدق محمد ﷺ وفيهم نزل قوله تعالى ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ [الأنعام: ٣٣] فقد كابروا الحق بغيًا واستكبارًا للحرص على رياستهم وشهواتهم، وكانوا أجدر العرب بقبول دعوة القرآن لأنهم أدق الناس لها فهمًا، وأوسعهم بإعجازها علمًا، ولكنهم عتوا عنها ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ﴾ [النقل: ١٤] كفرعون وقارون وهامان في آيات موسى.

●●●

الفصل الخامس:

في مقاصد القرآن، في تربية نوع الإنسان وحكمة ما فيه من التكرار في الهداية وإعجازه بالبيان

إن مقاصد القرآن من إصلاح أفراد البشر وجماعاتهم وأقوامهم، وإدخالهم فى طور الرشد، وتحقيق أخوتهم الإنسانية ووحدتهم، وترقية عقولهم، وتزكية أنفسهم: منها ما يكفى بيانه لهم فى الكتاب مرة أو مرتين أو مرارًا قليلة، ومنها ما لا تحصل الغاية منه إلا بتكراره مرارًا كثيرة، لأجل أن يجتث من أعماق الأنفس كل ما كان فيها من آثار الوراثة والتقاليد والعادات القبيحة الضارة، ويغرس فى مكانها أضدادها، ويتعاهد هذا الغرس بما ينميه حتى يؤتى أكله، ويبدو صلاحه، ويَيْنع ثمره، ومنها ما يجب أن يبدأ بها كاملة، ومنها ما لا يمكن كماله إلا بالتدريج، ومنها ما لا يمكن وجوده إلا فى المستقبل، فيوضع له بعض القواعد العامة، ومنها ما يكفى فيه الفحوى والكناية.

والقرآن كتاب تربية عملية وتعليم، لا كتاب تعليم فقط، فلا يكفى أن يذكر فيه كل مسألة مرة واحدة واضحة تامة كالمعهود فى متون الفنون وكتب القوانين، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله فى موضع البعثة المحمدية ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ١-٢] فآياته المتلوة هى سور القرآن، المرشدة إلى سننه فى الأكوان، والتزكية هى التربية بالعمل وحسن الأسوة، والكتاب هو الكتابة التى تخرج العرب من أميتهم. والحكمة هى العلوم النافعة الباعثة على الأعمال الصالحة، وما يسمى فى عرف شعوب الحضارة بالفلسفة، فجميع مقاصد القرآن وبيان السنة له تدور على هذه الأقطاب الثلاثة.

وإننا نذكر هنا أصول هذه المقاصد كما وعدنا عند قولنا: إن ما جاء به محمد ﷺ هو أعلى وأكمل مما جاء به من قبله من جميع الأنبياء والحكماء والحكام. فهو برهان علمى على أنه من عند الله تعالى، لا من فيض استعداده الشخصى.

وإننا نقسم هذه المقاصد إلى أنواع، ونبين حكمة القرآن وما امتاز به فى كل نوع منها بالإجماع؛ لأن التفصيل لا يتم إلا إذا يسر الله لنا إنجاز ما وعدنا به من تفسير مقاصد القرآن كلها فى أبواب نبين فى كل باب منها وجه حاجة البشر إلى ذلك المقصد، وكون القرآن وفى بهذه الحاجة بما نأتى به من جملة آياته فيه، وإنما هذا الفصل نموذج منه.

المقصد الأول من مقاصد القرآن

فى بيان حقيقة أركان الدين الثلاثة التى دعا إليها الرسل وضل فيها أتباعهم

إن أركان الدين الأساسية التى بعث الله تعالى بها جميع رسله، وناط بها سعادة البشر هى الثلاثة المبينة بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] وهاك الكلام على كل واحد منها بالإيجاز؛ لأن المراد هنا بيان أن ما جاء به القرآن منها هو أتم وأكمل من المعروف فى سائر الأديان، وفيه صلاح لما أفسد أهل الملل من دين الأنبياء، مما طرأ على كتبهم من الضياع والتحريف، وما ابتدعوا فيه من الأهواء والتقاليد، وليس المراد بيانها فى ذاتها بالتفصيل الذى يتوقف عليه العمل، حتى إذا ثبت ما يقصده من نبوة محمد ﷺ وكون هذا القرآن كلام الله عز وجل أوحاه إليه، علم منه أنه يجب على المؤمن به أن يتعلم جميع ما فرضه عليه.

وهذه الأركان الثلاثة تدل عليها آثار الملل القديمة البائدة كالمصريين والكلدانيين، وبقايا كتب أممها الباقية كالهنود والمجوس والصينيين، وغرضنا فى هذا الكتاب أن نبين لجميع الشعوب المتدينة أن ما هم عليه من الدين ليس هو عين ما أوحاه الله إلى رسله الذين ظهروا فى أسلافهم، ولا هو بالمصلح لهم فى أنفسهم وأعمالهم، وأن الإسلام هو الدين الحق الثابت عقلاً ونقلاً، المبين لكل ما يحتاجون إليه من الهداية. وبهذا الاعتبار جعلناها مقصدًا واحدًا لا ثلاثة، وجعلنا المقصد التالى له فى موضوع الرسل والرسالة.

الركن الأول للدين: الإيمان بالله تعالى:

إن الركن الأول الأعظم من هذه الأركان -وهو الإيمان بالله تعالى- قد ضل فيه جميع الأقوام والأمم، حتى أقربهم عهدًا بهداية الرسل، فاليهود على حفظهم لأصل التوحيد، قد غلب عليهم التشبيه، وغاب عنهم أن يجمعوا بين النصوص المتشابهة

وصفات الله وبين عقيدة التنزيه . فقد جعلوا الله كالإنسان يتعب ويندم على ما فعل، كخلقه الإنسان لأنه لم يكن يعلم أنه سيكون مثله أو مثل الآلهة[1] وزعموا أنه كان يظهر فى شكل الإنسان حتى إنه صارع إسرائيل، ولم يقدر على التفلت منه حتى باركه فأطلقه[2] وعبدوا بعلا وغيره من الأصنام.

والنصارى جددوا من عهد قسطنطين الوثنيات القديمة، واتخذوا المسيح ربًا وإلهًا وعبدوا القديسين وصورهم، حتى صارت كنائس النصارى كهياكل الوثنية الأولى مملوءة بالصور والتماثيل -على أن عقيدة التثليث والصلب والفداء التى جعلوها أساس الدين، بل الدين كله- هى عقيدة الهنود فى كرشنة وثالوثه فى جملتها وتفصيلها وهى مدعومة بفلسفة خيالية غير معقولة، وبنظام يقوم بتنفيذه الملوك والقياصرة، وتبذل فى سبيله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ويربى عليه الأحداث من الصغر تربية وجدانية خيالية لا تقبل حجة ولا برهانًا، فغمر الشرك بالله هذه الأرض بطوفانه وطغت الوثنية على أهلها.

هدم القرآن معاقل هذه الوثنية وحصونها المشيدة فى الأفكار والقلوب، وما كان ليتم هذا بإقامة برهان عقلى أو عدة براهين على توحيد الله عز وجل، بل لا بد فيه من دحض الشبهات، وتفصيل الحجج العقلية والعلمية والمواعظ الخطابية بالعبارات المختلفة وضرب الأمثال؛ لذلك كان أكثر المسائل تكرارًا فى القرآن مسألة توحيد الله عز وجل فى ألوهيته بعبادته وحده. واعتقاد أن كل ما سواه من الموجودات سواء فى كونهم ملكًا وعبيدًا له، لا يملكون من دونه نفعًا ولا ضرًا لأحد، ولا لأنفسهم إلا فيما سخره من الأسباب المشتركة بين الخلق.

وأما تكرار توحيد الربوبية، وهو انفراده تعالى بالخلق والتقدير والتدبير والتشريع الدينى. فليس لإقناع المعطلين والمشركين بربوبيته تعالى فقط. بل أكثره لإقامة الحجة به

(١) فى سفر التكوين (٣: ٢٢ وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفًا بالخير والشر) وفيه (٦: ٦ فحزن الرب) وفى ترجمة أخرى (فندم أنه عمل الإنسان وتأسف فى قلبه).

(٢) راجع آخر الفصل ٣٢ من سفر التكوين.

على بطلان شرك العبادة بدعاء غير الله تعالى لأجل التقرب إليه بأولئك الأولياء وابتغاء شفاعتهم عنده. فشر الشرك وأوغله في إفساد عقائد المؤمنين بالله من ضعفاء العقول وحملهم على التدين بالأوهام والخرافات المخالفة لما أثبتته التجارب من سنن الله في المخلوقات[1] إنما هو توجه العبد إلى غير الله تعالى فيما يشعر بالحاجة إليه من كشف ضر وجلب نفع من غير طريق الأسباب. فقد ذكر الدعاء في القرآن أكثر من سبعين مرة. بل زهاء سبعين بعد سبعين مرة. لأن روح العبادة ومخها. بل هو العبادة التي هي دين الفطرة كله. وما عداه من العبادات فوضعي تشريعي من تعليم الوحي فهو يغذيها وينقيها من شوائب الآراء. وينفي عنها تقاليد الأهواء.

بعض آيات الدعاء أمر بدعائه تعالى وحده، وبعضها نهي عن دعاء غيره مطلقًا، ومنها حجج على بطلان الشرك أو على إثبات التوحيد، ومنها أمثال تصور كلا منهما بالصور اللائقة المؤثرة، ومنها إخبار بأن دعاء غيره لا ينفع ولا يستجاب، وأن كل من يدعى من دونه تعالى فهو عبد له، وأن أفضلهم وخيارهم كالملائكة والأنبياء يدعونه هو ويبتغون الوسيلة إليه، ويرجون رحمته ويخافون عذابه، وأنهم يوم القيامة يكفرون بشرك الذين يدعونهم من دون الله أو مع الله ويتبرؤون منهم، وأمثال ذلك مما يطول شرحه، بل يضيق المقام عن تلخيصه.

وثم أنواع أخرى من آيات الإيمان بالله تعالى تغذى التوحيد، وتصعد بأهله درجات متفاوتة في السمو بمعرفته تعالى والتأله في حبه، من التنزيه والتقديس والتسبيح له، وذكر أسمائه الحسنى ممزوجة ببيان الأحكام الشرعية المختلفة حتى

---

(١) اشتدت وطأة البرد في شتاء هذا العام (١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م) وجاءت الأنباء من الشرق والغرب بكثرة الثلوج في أقطارهما الشمالية وبعض المعتدلة؛ فعلل بعض المسلمين سلامة مصر منها بوجود أهل البيت فيها يعني القبور المشيدة لأسماء بعضهم، فبينت لمن سمعت منهم ذلك خطأهم من الناحية الدينية ومن ناحية سنن الله تعالى في أسباب الحر والبرد والمطر والثلج، وكون وجود القبور أو أهلها لا شأن له في ذلك. وحدث في هذا الشتاء زلزال عظيم في الهند هدم به بعض البلاد، ما عدا المعابد الوثنية في بعضها؛ فاعتقد أهلها أن سبب بقائها عناية الله بحفظها لرضاه عن عبادتهم فيها. وإنما سببه قوة بنائها فإن أكثر معابد الأمم قوية البناء تمر عليها القرون وتفنى سائر الأبنية وهي باقية.

أحكام الطهارة والنساء والإرث والأموال، وبحكمه فى الخلق والتدبير لأمور العالم، وسننه فى طباع البشر وفى شئونهم الاجتماعية، ووضع كل اسم منها فى الموضع المناسب له من علم وحكمة وقدرة ومشيئة وحلم وعفو ومغفرة ورحمة وحب ورضا وما يقابل ذلك، ومن الأمر بالتوكل عليه والخوف منه لإجلاله أو لعدله، والرجاء فى رحمته وفضله؛ وناهيك بما سرد منها سرداً لجذب الأرواح العالية إلى كماله المطلق وفنائها فى شهوده عن شهودها بَلهَ أهواءها وشهواتها كما تراه فى فاتحه سورة الحديد ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[الحديد: ١ - ٣] إلخ وفى آخر سورة الحشر ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٣ - ٢٤] فهذه الأسماء الإلهية هى ينابيع الحياة الروحية فى القلوب، ومشرق أنوار المعارف الإلهية على العقول؛ ومنها استمد الأولياء العارفون والأئمة الربانيون تلك الحكم السامية، والكتب العالية فى معرفته تعالى وأسرار خلقه، والأدعية والقصائد فى حبه ومناجاته، بعد أن تربوا بكثرة ذكره وتلاوة كتابه.

وهذا هو الغرض الأول من أمر القرآن المؤمنين بذكر الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ليكون الله تعالى غالبًا على أمرهم، كما قال فى وصف يوسف عليه السلام: ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ [يوسف: ٢١] فيمقتون الباطل والشر، ويكون كل حظهم من الحياة الحق والخير؛ لما يثمره الذكر لهم من صلاة الله عليهم وملائكته ليخرجهم من الظلمات إلى النور كما قال عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤١- ٤٣].

بهذا التكرار الذى جعله أسلوب القرآن المعجز مقبولاً غير مملول، طهر الله عقول العرب وقلوبهم من رجس الشرك وخرافات الوثنية، وزكاها بالأخلاق العالية والفضائل السامية. وكذا غير العرب ممن آمن بالله وأتقن لغة كتابه، وصار يرتله فى عبادته ويتدبر آياته، حتى إذا دب فى الشعوب الإسلامية دبيب الجهل بلغة القرآن، وقل تدبره الذى فرضه الله عليهم، واعتمد المسلمون فى فهم عقيدتهم على الكتب الكلامية المصنفة، وفى أعمال عباداتهم على كتب الفقه الجافة، وفى تزكية أنفسهم على الأوراد البشرية المؤلفة، ضعف التوحيد فى قلوب الكثيرين، وشابته شوائب الشرك الأصغر ثم الأكبر، واتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعًا بذراع[1] اعتقاداً وعملاً، وتأولاً وجدلاً. فصار أدعياء العلم يتأولون تلك الآيات الكثيرة فى التوحيد بشبهاتهم وأهوائهم وتقاليدهم المبتدعة. وهجروا القرآن هجراً غير جميل. وعاقبهم الله بما أوعدهم كما هو مشاهد ومعلوم.

على أن بعض المتكلمين قد تأولوا صفات الله تعالى بنظرياتهم الجدلية، وبعض الصوفية قد بالغوا فى التوحيد وفهم الصفات أو حملها على الأذواق والوجدانات الروحية، حتى أنكر بعضهم تأثير الأسباب فى مسبباتها، وانتهى بهم ذلك إلى بدعة الجبر التى أفسدت على أهلها كل شىء، وقال بعضهم بوحدة الوجود، بيد أن الأولين منهم كانوا يقولون بما يهديهم إليه النظر العقلى أو رياضة النفس وما تثمره من الشعور الوجدانى مع الاعتماد فى فهم النصوص على صميم اللغة والمأثور عن السلف ثم خلف من بعدهم خلف من المقلدين لاحظ لهم من القرآن ولا من البرهان ولا من الوجدان، وإنما يتبعون أهواء العوام ويتأولون لهم بكلام أمثالهم من المصنفين الجاهلين، ولو فقهوا أقصر سورة فى التوحيد والتنزيه كما يجب -وهى سورة الإخلاص- لما وجد الشرك إلى أنفسهم سبيلاً.

---

(١) أى مصدقًا لقول النبى ﷺ «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال ﷺ: «فمن؟» رواه البخارى ومسلم وغيرهما.

إن عقيدة التوحيد القرآنى هى أعلى المعارف التى ترقى الإنسان إلى أعلى ما خلق مستعداً له من الكمال الروحى والعقلى والمدنى. وقد صرح كثير من علماء الإفرنج بأن سهولة فهم هذه العقيدة وموافقتها للعقل والفطرة هما السبب الأكبر لقبول الأمم له وانهزام النصرانية من أمامه.

قد كان توحيد المسلمين الأولين لله ومعرفتهم به وحبهم له وتوكلهم عليه هو الذى زكى أنفسهم، وأعلى هممهم، وكملهم بعزة النفس، وشدة البأس، وإقامة الحق والعدل، ومكنهم من فتح البلاد وسياسة الأمم، وإعتاقها من رق الكهنة والأحبار والرهبان والبوذات والموبذانات الروحى والعقلى، وتحريرهم من ظلم الملوك واستبدادهم وإقامة دعائم الحضارة وإحياء العلوم والفنون الميتة وترقيتها فيهم، وقد تم لهم من كل ذلك ما لم يقع مثله ولا ما يقاربه لأمة من أمم الأرض، حتى قال الدكتور غوستاف لوبون المؤرخ الاجتماعى الشهير فى كتابه (تطور الأمم) إن ملكة الفنون لا يتم تكوينها لأمة من الأمم الناهضة إلا فى ثلاثة أجيال: أولها جيل التقليد، وثانيها جيل الخضرمة، وثالثها جيل الاستقلال والاختصاص قال: إلا العرب وحدهم فقد استحكمت لهم ملكة الفنون فى الجيل الأول الذى بدءوا فيه بمزاولتها.

وأقول: إن سبب ذلك تربية القرآن لهم على استقلال العقل والفكر واحتقار التقليد الأصم الأعمى، وتوطيد أنفسهم على إمامة البشر وقيادتها فى أمور الدين والدنيا معًا، وقد خفى كل هذا على سلائلهم بعد ذهاب الخلافة الإسلامية، وزوال النهضة العربية وتحول السلطان إلى الأعاجم الذين لم يكن لهم من الإسلام إلا الظواهر التقليدية المنفصلة عن هداية القرآن.

الركن الثانى للدين: عقيدة البعث والجزاء:

الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال، هو الركن الثانى للدين الذى بعث الله به الرسل عليهم السلام، وبه يكمل الإيمان بالله تعالى، ويكون باعثًا على العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات والبغى والعدوان،

وكان جل مشركي العرب ينكرونه أشد الإنكار، وأما أهل الكتاب وغيرهم من الملل -التي كان لها كتب وتشريع ديني ومدني، ثم فقدت كتبهم أو حرفت واستحوذت عليهم الوثنية - فكلهم يؤمنون بحياة بعد الموت وجزاء يختلفون في صفتهما لا في أصلهما ولكن إيمانهم هذا قد شابه الفساد ببنائه على بدع ذهبت بجل فائدته في إصلاح الناس وأساسها عند الهنود وغيرهم من قدماء الوثنيين، وخلائف النصارى المتبعين لدين القيصر قسطنطين. هو وجود المخلص الفادي الذي يخلص الناس من عقوبة الخطايا ويفديهم بنفسه، وهو الأقنوم الثاني من الثالوث الإلهي الذي هو عين الأول والثالث وكل واحد منهما عين الآخر، وكل ما تقوله النصارى في فداء المسيح للبشر وغير ذلك من ولادته إلى رفعه فهو نسخة مطابقة لما يقوله الهنود في كرشنة وبوذي في اللفظ والفحوى كما تقدم، قلما يختلفان إلا في الاسمين. كرشنة ويسوع[1].

وأما اليهود فكل ديانتهم خاصة بشعب إسرائيل، وادعاء محاباة الله تعالى له على سائر الشعوب في الدنيا والآخرة، ويسمونه إله إسرائيل، كأنه ربهم وحدهم لا رب العالمين، وديانتهم أقرب إلى المادية منها إلى الروحية، فكان فساد الإيمان بهذا الركن من أركان الدين تابعًا لفساد الركن الأول وهو الإيمان بالله تعالى ومعرفته، ومحتاجًا إلى الإصلاح مثله.

جاء القرآن للبشر بهذا الإصلاح، فقد أعاد دين النبيين في الجزاء إلى أصله المعقول وهو ما كرم الله تعالى به الإنسان، من جعل سعادته وشقائه منوطين بإيمانه وعمله، اللذين هما من كسبه وسعيه، لا من إيمان غيره وعمله، وأن الجزاء على الكفر والظلم والفساد في الأرض، يكون بعدل الله تعالى بين جميع خلقه بدون محاباة شعب على شعب والجزاء على الإيمان والأعمال الصالحة يكون بمقتضى الفضل، فالحسنة بعشر أمثالها، وقد يضاعفها الله تعالى أضعافًا كثيرة.

---

(١) عقيدة التثليث والفداء معروفة في وثنية قدماء المصريين والبابليين والأوربيين أيضًا، وقد فصل ذلك في كتاب خاص بالشواهد التاريخية اسمه (العقائد الوثنية، في الديانة النصرانية) تأليف الأستاذ محمد طاهر التنير البيروتي وطبع سنة ١٣٣٠.

وقد نص القرآن على ما جاء به من هذا الإصلاح هو ما أوحاه إلى إبراهيم أبى الأنبياء المعروفين الذين يدين الله بنبوتهم اليهود والنصارى، وإلى موسى والأنبياء الذين كانوا من بعده على شرعه، فقال: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾[النجم: ٣٥- ٤١] أى أن أصل دين الله لجميع رسله أنه لا تحمل نفس وازرة -أى خاطئة-خطيئة نفس أخرى بفداء ولا غيره، وأنه ليس للإنسان إلا سعيه وعمله فلا يجزى بعمل غيره. وقد يدخل فى عموم عمله ما يكون سببًا له كالذى يعمله ولده أو تلميذه بتأثير تربيته وتعليمه، وما يسنه من سنة حسنة أو سيئة فله مثل جزاء من يعمل بهما من بعده.

الأصل الجامع فى ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[الشمس: ٧- ١٠] أى أن الله الذى خلق هذه النفس وسواها بما وهبها من المشاعر والعقل، قد جعلها بإلهام الفطرة والغريزة مستعدة للفجور الذى يرديها ويدسيها[1] والتقوى التى تنجيها وتعليها، ومتمكنة من كل منها بإرادتها، والترجيح بين خواطرها، ومنحها العقل والدين يرجحان الحق والخير على الباطل والشر، فبقدر طهارة النفس وأثر تزكيتها بالإيمان ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال يكون ارتقاؤها فى الدنيا وفى الآخرة والضد بالضد فالجزاء أثر طبيعى للعمل النفسى والبدنى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾[الأنعام: ١٣٩] وهذا هو الحق الذى يثبته من عرف حقيقة الإنسان، وحكمة الديان، وهو مما أصلحه القرآن من تعاليم الأديان.

- فإذا علمت ما كان من إنكار مشركى العرب للبعث والجزاء، ومن فساد إيمان أهل

---

(١) أصل معنى «دساها» أخفاها مبالغة من دسه فى التراب واستعملت هنا ضد زكاها، فإذا كان معنى زكاها طهرها فأظهرها وأعلى قدرها فمعنى دساها دنسها بما يدفن جميع مزاياهم كأنها ليست نفسًا ناطقة وأصل دساها دسسها قلبت السين الثانية ياء وله نظائر.

الكتـاب وسـائر الملل فى هذه العـقيـدة، وعـلمت أنهـا مكـملة للإيمـان بالله تـعـالى، وأن تذكرها هو الذى يقوى الوازع النفسى الذى يصد الإنسان عن الباطل والشـر والظلم والبغى، ويرغبه فى التزام الحق والخير وعمل البر - علمت أن إصلاحها ما فعل فعله العاجل فى شعب كبير إلا بتكرار التذكير بها فى القرآن، بالأساليب العجيبة التى فيها من حسن البيان، وتقريب البعيد من الأذهان، تارة بالحجة والبرهان، وتارة بضرب الأمثال، وقد تكرر فى آيات بينات، لعلها تبلغ المئات، ومن إعـجازه أنها لا تمل ولا تسأم، بل لا يكاد يشعر قارئها بتكرار معانيها، وإن تقارب جنسها ونوعها وترادفت سورها. فتأمل ذلك فى سور المفصل، تر تكرار الكلام على البعث والجزاء فيها بما لا يخطر على باب بشر من اختلاف الأسلوب والنظم والفواصل ولا سيما المتناسبة المتصلة كالمرسلات مع النبأ، والنازعات مع عبس، والتكوير مع الانفطار، والمطففين مع الانشقاق وغيرهن.

قلنا: إن الإيمان بالبعث والجزاء، وهو الركن الثانى فى جميع الأديان، من لوازم الركن الأول وهو الإيمان بالله المتصف بجميع صفات الكمال. المنزه عن العبث فى أفعاله وأحكامه؛ ولهذا كان من أظهر أدلة القرآن عليه قوله بعد ذكر البعث وجزاء الكافرين فى آخر سورة المؤمنون ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقوله فى آخر سورة القيامة: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] فكفر الإنسان بهذا الركن من أركان الإيمان يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله فى خلقه وكفره بنعمته بخلقه فى أحسن تقويم. وبتفضيله على أهل عالمه (الأرض) حيث سخرها وكل ما فيها لمنافعه. وعلى كثير ممن خلق فى عالم الغيب الذى وعده بمصيره إليه. ويستلزم جهله بما وهبه من المشاعر والقوى والعقل. وجهله بحكمته فى خلقه مستعداً لما ليس له حد ونهاية من العلم. الدال على أنه خلقه لحياة لا حد لها ولا نهاية فى الوجود.

ومن لوازم هذا الكفر والجهل كله احتقاره لنفسه باعتقاده أنه خلق عبثًا لا لحكمة

بالغة. وأن وجوده فى الأرض موقوت محدود بهذا العمر القصير المنغص بالهموم والمصائب والظلم والبغى والآثام. وأنه يترك سدى لا يجزى كل ظالم من أفراده بظلمه. وكل عادل وفاضل بعدله وفضله. وإذا كان هذا الجزاء غير مطرد فى الدنيا لجميع الأفراد، تعين أن يكون جزاء الآخرة هو المظهر الأكبر للعدل العام، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ومن أبدع أساليبه المكررة الجامعة وأروعها: المحاجة فى النار بين الأتباع والمتبوعين والغاوين والمغوين والضالين والمضلين. من شياطين الإنس والجن. وبراءة بعضهم من بعض ومنه التنادى والتحاور بين أهل الجنة وأهل النار.

البعث الإنسانى جسمانى روحانى:

ومما جاء فى القرآن مخالفًا لما عند النصارى من عقيدة البعث والجزاء: أن الإنسان فى الحياة الآخرة يكون إنسانًا كما كان فى الدنيا، إلا أن أصحاب الأنفس الزكية، والأرواح العالية، يكونون أكمل أرواحًا وأجسادًا مما كانوا بتزكية أنفسهم فى الدنيا، وأصحاب الأنفس الخبيثة والأرواح السافلة يكونون أنقص وأخبث مما كانوا بتدسية أنفسهم فى الدنيا، ويعلم مما ثبت عن قدماء المصريين وغيرهم من الغابرين أن الأديان القديمة كانت تعلم الناس عقيدة البعث بالروح والجسد، إلا أنهم ظنوا بعد رسلهم أن أجسادهم تبقى بعد موتهم فيبعثون بها عينها، ولكن بين القرآن أن كل من على الأرض فان، وأنها تكون بقيام الساعة هباء منبثًا، وقال علماء العقائد من أهل السنة إن بعث الأجساد يكون بعد العدم التام، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠- ٦٢].

. ولو كان البعث للأرواح وحدها لنقص من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرم من الخلق، المؤلف من روح وجسد، فهو يدرك اللذات الروحية واللذات الجثمانية، ويتحقق بحكم الله «جمع حكمة» وأسرار صنعه فيهما معًا، من حيث حرم الحيوان والنبات من الأولى، والملائكة من الثانية، وما جنح من جنح من

أصحاب النظريات الفلسفية إلى البعث الروحاني المجرد إلا لاحتقارهم اللذات الجسدية وتسميتها بالحيوانية مع شغف أكثرهم بها، وإنما تكون نقصًا في الإنسان إذا سخر عقله وقواه لها وحدها، حتى صرفه اشتغاله بها عن اللذات العقلية والروحية بالعلم والعرفان أو أضعفها -وأصل هذا الإفراط والتفريط غلو الهنود في احتقار الجسد، وجعلهم مدار تربية النفس على تعذيبه بالرياضات الشاقة، وتبعهم فيه نساك النصارى كما تبعوهم في عقيدة الصلب والفداء والتثليث، على أنهم نقلوا أن المسيح عليه السلام شرب الخمر مع تلاميذه لما ودعهم في الفصح وقال لهم: إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي (متى ٦: ٢٩) وجرى اليهود على عكس ذلك، وجاء الإسلام بالاعتدال فأعطى الإنسان جميع حقوقه، وطالبه بما يكون بها كاملاً في إنسانيته مرجحًا لروحانيته على حيوانيته، متزودًا من دنياه لآخرته ويؤخذ مما ورد في الآيات والأحاديث النبوية من صفة حياة الآخرة: أن القوى الروحية تكون هي الغالبة والمتصرفة في الأجساد، فتكون قادرة على التشكل بالصور اللطيفة، وقطع المسافات البعيدة في المدة القريبة، والتخاطب بالكلام بين أهل الجنة وأهل النار- وإنَّ ترقِّي البشر في علم الكيمياء وخواص الكهرباء والصناعات والآلات في عصرنا قد قرب كل هذا من حس الإنسان، بعد أن كان الماديون والملحدون يغدون مثل قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤] من تخيلات محمد صلوات الله وسلامه عليه -وها نحن أولاء نخاطب من مصر أهل عواصم أوربة بالمسرة (بالكسر: آلة التليفون) ونسمع خطبهم ومعازفهم بالمذياع (آلة الراديو) وسنراهم ويروننا بآلة التليفزيون[١] مع التخاطب حينما يعم انتشارها.

---

(١) هي آلة حديثة بها ينظر الإنسان من يكلمه على بعد مهما يكن سحيقًا.

وأما علماء الروح من الإفرنج وغيرهم فقد أثبتوا أن الأرواح البشرية تكون بعد الموت قادرة على التشكل فى أجساد تأخذها من مادة الكون كالملائكة والجن وكما يقول الصوفية فى الإنس[1] وهذه مسألة أو مسائل قد شرحناها من قبل فى تفسير المنار، وإنما نذكرها هنا بالإجمال ردًا على من زعموا أن القرآن مستمد من كتب اليهود والنصارى ومن عقل محمد ﷺ الباطن وإلهاماته الروحية[2].

ويناسب هذا ما جاء فى القرآن من نبأ خراب العالم وقيام الساعة التى هى بدء ما يجب الإيمان به من عقيدة البعث والجزاء، ولم يوجد له أصل عند أهل الكتاب ولا غيرهم، ولا هو مما يمكن أن يكون قد عرفه محمد ﷺ بذكائه ونظرياته العقلية، وجملته أن قارعة - والظاهر أنها كوكب - تقرع الأرض قرعًا، وتصخها صخًا، وترجها رجًا، فتكون هباء منبثًا، أى غبارًا دقيقًا متفرقًا فى الفضاء، وحينئذ يختل ما يسمى فى عرف العلماء بسنة الجاذبية العامة، فتتناثر الكواكب ثم يدخل العالم فى طور

---

(١) قال بعض من شاهد فى فرنسا روح امرأة تجسدت: إنها ظهرت أولاً بشكل بخار أو ضباب ثم تكاثف فكانت جسدًا تام الجمال فى ثوب أبيض فسألها أن تعطيه قطعة من ثوبها فسمحت له، فقصها فلم تلبث أن تكون مثلها فى موضعها ثم عرضها على معامل النسج فى باريس وسألهم هل يوجد مثل هذا النسيج المهلهل؟ قالوا لا ولكن يمكن إيجاده إذا طلب، وهذا مثل ما يحكيه صوفيتنا عن الذين يتجردون من أجسادهم تارة ويتشكلون كابن عربى ومنهم قضيب البان الذى طلب مرة فوجد مالئًا للبيت الذى كان فيه حتى يتعذر خروجه بجسده ذاك، ثم صغر فخرج، ومن لم يصدق هذا من علماء الكيمياء لأنه لم يشاهد مثله لا ينكر إمكانه اهـ من حواشى الطبعة الثالثة.

(٢) من هذا القبيل ما رواه الشيخان عن جابر مرفوعًا فى وصف أهل الجنة «ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم» قرأنا فى جريدة الجهاد أن امرأة فى رومانيا تخرق أشعة بصرها الحجب فترى ما وراءها كما يروى عن الأرواح المجردة ثم نقلت لنا فى هذه الأيام (١٣ المحرم سنة ١٣٥٤) عن بعض الصحف الإنكليزية أن كاتبًا اسمه (جيرالد أوركاردزا) كتب فى إحدى الصحف الإنكليزية يقول إن فى معبد شيلى فى أمريكا وثائق مكتوبة تثبت أنه ولد فى الصين ولد عادى سمى (شى شوان) ولكنه بعد سنوات صار جسمه يشف حتى صار كالزجاج يرى جميع ما فى باطنه، وسأعود إلى هذه المباحث فى الجزء الثانى من هذا الكتاب كما وعدت فى التصدير إن شاء الله تعالى.

جديد هو المراد بالحياة الآخرة[1] وهذا المعنى لم يكن يخطر ببال أحد من علماء الكون ولا من علماء الدين، فلا يمكن إن يقال إن محمداً ﷺ سمعه من أحد فى بلده أو فى سفره، ولا يعقل أن يكون قاله برأيه وفكره، فهو من أنباء القرآن الكثيرة التى تدحض زعم القائلين بالوحى النفسى. وقد صرح غير واحد من علماء الهيئة الفلكية المعاصرين بأن خراب العالم بهذا السبب هو أقرب النظريات العلمية لخرابه. وسنفصل ذلك بالشواهد على ما جاء فى القرآن موافقًا لأصول العلم الحديث فى ملحقات الكتاب، من الجزء الثانى له.

ولقد كان أعظم آيات الجزاء تأثيراً فى أنفس العرب وصف نعيم الجنة وعذاب النار ببلاغته العجيبة فى المبالغة التى امتازت بها لغتهم، وفيها ما يدل على أنها غيبية مخالفة للمعهود فى الدنيا كقوله تعالى فى صفة النار ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٧] وفى الجنة ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وقوله بعد ذكر النعيم الحسى ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] وناهيك بمناجاته تعالى ورؤيته التى أنكرها وتأول نصوصها المعتزلة ومن تبعهم وعدوها من المتشابهات، ولا غرو فكل أمور الآخرة متشابهات، قال تعالى فى ثمرها ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] قال ابن عباس (رضى الله عنه) فى تفسيرها «لا يشبه شىء مما فى الجنة ما فى الدنيا إلا فى الأسماء» أقول: فكيف يشبه خالقها شيئًا من خلقه؟

الركن الثالث للدين: العمل الصالح:

الركن الثالث من مقاصد بعثة الرسل- وهو العمل الصالح- أثر لازم للإيمان بالله وبالحساب والجزاء فى الآخرة وثمرة له، وهو يمده ويستمد منه فكل من الإيمان والعمل يغذى الآخر ويقويه، ويتوقف كمال كل منهما على الآخر؛ فمن فسد إيمانه فسد عمله، وكان رياء ونفاقًا أو تقليداً صوريًا. فلا يكون العمل صالحًا مصلحًا لعامله إلا بجعله على الوجه الذى شرعه الله لأجله. وهذا مكرر فى القرآن فى سور كثيرة لإصلاح ما أفسده البشر فيه بجعله تقليديًا غير مزك للنفس ولا مصلح لشئون الاجتماع، ولكن دون تكرار توحيد الله وتقديسه الذى هو الأصل الذى يتبعه غيره، على أنه يقرنه به.

(١) اقرأ سورة الواقعة والقارعة والتكوير والانفطار.

ولولا الحاجة إلى هذا التكرار فى التذكير والتأثير لكانت سورة العصر وحدها كافية فى الإصلاح العلمى العملى على قصرها، كسورة الإخلاص فى الركن الأول الاعتقادى، وكل منهما تكتب فى سطر واحد، فهما من معجزات إيجاز القرآن وهدايته، وكسورة الزلزال فى الركن الثانى وهى تكتب فى ثلاثة أسطر: وقد روى الإمام أحمد والطبرانى فى الكبير أن صعصعة بن معاوية أتى النبى ﷺ فقرأ عليه ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)** ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] فقال حسبى لا أبالى أن لا أسمع غيرها. وروى أن بعض الأعراب سمع النبى ﷺ يقرؤها فقال: يا رسول الله: أمثقال ذرة- قال ﷺ «نعم» فقال الأعرابى: واسوأتاه ثم قام وهو يقولها، فقال النبى ﷺ «لقد دخل قلب الأعرابى الإيمان» وروى عن زيد بن أسلم (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ «دفع رجلاً إلى رجل يعلمه فعلمه حتى بلغ هذه الآية فقال: حسبى - فذكر الرجل المعلم ذلك للنبى ﷺ فقال له «دعه فقد فقه» نقل هذه الروايات وغيرها السيوطى فى الدر المنثور عن مخرجيها، ومنها أن بعض كبار الصحابة كان ربما يعطى المسكين حبة عنب ويقول إن فيها ذرات كثيرة، اهتداء بهذه الآية، وبقوله ﷺ فى حديث مسلم «لا تحقرن من المعروف شيئًا».

فتدبر هذا تعلم منه قدر استعداد عقول العرب لهداية القرآن. وكيف صلحت به أنفسهم، وصاروا أئمة الناس فى الإصلاح، آمن بعضهم بأنه يرى فى الآخرة جزاء عمله خيره وشره وإن قل فكان كالذرة، فوطن نفسه على عمل كل ما استطاع من الخير، وترك كل عمل من الشر، وهذا فقه الدين كله كما يشهد له مبلغ الدين ﷺ.

إنما كان العمل الصالح من لوازم الإيمان بالله فى الدرجة الأولى؛ لأن من عرف الله تعالى عرف استحقاقه للحمد والشكر والعبادة والحب والتعظيم، وهو من لوازم الإيمان بالجزاء على الأعمال فى الدرجة الثانية خوفًا من العقاب ورجاء فى الثواب. فالأركان الثلاثة يمد بعضها بعضًا بمقتضى هداية الأنبياء الموافقة للفطرة الإنسانية دون تقاليد الوثنية التى لا شأن فيها لعلم الإنسان ولا عمله فى سعادته؛ لأن مدارها على إيمانه بوجود الفادى الشفيع أو على إقراره به. وإن كان لا يعقله، بل ينكره عقله، وتأباه فطرته، وقد أبطل القرآن عقيدة الفداء والشفاعة الوثنية فى آيات عديدة.

ويدخل في الأعمال الصالحة العبادات المفروضة التي يتقرب بها إلى الله تعالى، سائر أعمال البر التي ترضيه بمالها من التأثير في صلاح البشر كبر الوالدين وصلة الرحم وإكرام اليتامى والمساكين. ومن أصوله الوصايا الجامعة في آيات سورة الإسراء وهي: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا[1] وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا (٢٨) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا[2] مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ[3] إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥) وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٣- ٣٩].

---

(١) كلمة (أف) تدل على أقل التضجر، والانتهار الإغلاظ في الإنكار، والقول الكريم هو ألطف ما يقال وأدله على الأدب والاحترام.

(٢) أي ملومًا من الناس وفي حسرة من نفسك.

(٣) السلطان هو القصاص والإسراف فيه قتل من لم يثبت عليه القتل.

هذه الآيات أجمع وأعظم من الوصايا العشر التى فى التوراة. وتأمل آيات الوصايا فى سورة الأنعام [الأنعام: ١٥١- ١٥٣] وآية البر فى سورة البقرة [البقرة: ١٧٧] وغير ذلك من آيات الحث على الفضائل، والزجر عن الرذائل والمعاصى الضارة بالأبدان والأموال، والأعراض والعقول والأديان، ومثارها الأكبر اتباع الهوى وطاعة وسوسة الشيطان، ويضادهما ملكة التقوى، فهى اسم جامع لما يقى النفس من كل ما يدنسها وتسوء به عاقبتها فى الدنيا والآخرة؛ ولهذا تذكر فى المسائل الدينية والزوجية والحربية وغيرها، وهاك كلمة وجيزة فى الموضوع.

سنة القرآن فى تهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال والفرق بينها وبين كتب الفلسفة والآداب:

القرآن كتاب هداية فعلية، لا كتاب فن وعلم نظرى، فهو يرشد متدبره والمتفقه فيه إلى داعيتى الحق والخير والباطل والشر من نفسه، وإلى طريق تزكيتها بمحاسبتها على أعمالها؛ لتغليب الحق والخير على ضدهما، وتجد هذا التهذيب والتثقيف فيه يدور على أمرين فطريين لا يتوقف فهمهما على فلسفة أرسطو ولا ابن سينا. وهو مجاهدة النفس بالتخلى عن اتباع الهوى، والتحلى بفضيلة التقوى، وقد تكرر فيه ذم اتباع الهوى والنهى عنه وتعليله بأنه يصد متبعه عن الحق والعدل فى زهاء ثلاثين آية، وتكرر ذكر التقوى والمتقين فى زهاء مائتى آية أو أكثر، وأكتفى هنا بذكر آية واحدة فى كل منهما.

قال الله تعالى فى عبادة الهوى بعد أن ذكر لنبيه ﷺ أنه أتى بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة، وفضلهم على عالمى زمانهم وآتاهم بينات من الأمر- أمر التشريع- فاختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم. ثم ذكر له أنه جعله على شريعة من الأمر، وأمره باتباعها ونهاه عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وهم المشركون الذين لا شريعة لهم، وأعلمه أن الظالمين من الذين تفرقوا بعد العلم فكان ضاراً بهم ومن الذين لا يعلمون بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين دون كل منهم، وأن هذا القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون، وأنه تعالى لم يجعل الذين

اجترحوا السيئات، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، لا فى المحيا ولا فى الممات، وأنه خلق السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت، لا كما يزعم المشركون من تركهم سدى، ولا كما يدعى أهل الكتاب من كونه تعالى يحابى بعض الشعوب وبعض الناس بأنسابهم؛ أو لأجل من يفديهم ويشفع لهم، - قال تعالى بعض آيات فى هذه المعانى:

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣] وفى معناها من سورة الفرقان: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٣ - ٤٤].

وقال تعالى فى ثمرة التقوى للمؤمنين بعد عدة وصايا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩] وقد قلت فى تفسير هذه الآية من جزء التفسير التاسع ما مختصره:

هذه الآية آخر وصايا المؤمنين فى هذا السياق وهى أعمها، والأصل الجامع لها ولغيرها وكلمة «الفرقان» فيها كلمة جامعة كلمة التقوى فى مجيئها هنا مطلقة، فالتقوى هى الشجرة، والفرقان هو الثمرة، وهو صيغة مبالغة من مادة الفرق ومعناها فى أصل اللغة: الفصل بين الشيئين أو الأشياء، والمراد بالفرقان هنا: العلم الصحيح والحكم الحق فيها؛ ولذلك فسّروه بالنور، وذلك أن الفصل والتفريق بين الأشياء والأمور فى العلم هو الوسيلة للخروج من حيز الإجمال إلى حيز التفصيل، وإنما العلم الصحيح هو العلم التفصيلى الذى يميز بين الأجناس والأنواع والأصناف والأشخاص، وإن شئت قلت بين الكليات والجزئيات، والبسائط والمركبات، والنسب بين أجزاء المركبات، من الحسيات والمعنويات، ويبين كل شىء من ذلك، ويعطيه حقه الذى يكون به ممتازًا من غيره، وإيراد الأمثلة على ذلك يطول (وقد ذكرنا نموذجًا منها فى التفسير).

فقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الفرقان: ٢٩] معناه إن تتقوا الله فى كل ما يجب أن يتقى بمقتضى دينه وشرعه؛ وبمقتضى سننه فى نظام خلقه يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى ملكة من العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل، وتفصلون بين الضار والنافع، وتميزون بين النور والظلمة، وتزيلون بين الحجة والشبهة. وقد روى عن بعض مفسرى السلف تفسير الفرقان هنا بنور البصيرة الذى يفرق بين الحق والباطل وهو عين ما فصلناه من الفرقان العلمى الحكمى. وعن بعضهم تفسيره بالبصر يفرق بين المحق والمبطل بما يعز المؤمن ويذل الكافر، وبالنجاة من الشدائد فى الدنيا ومن العذاب فى الآخرة، وهذا من الفرقان العملى الذى هو ثمرة العلمى. ذكر كل منهم ما رآه مناسبًا لحال وقته أو حال من لقنه ذلك، ولم يقصد تحليل المدلول اللغوى، ولا المعنى الكلى الذى هو ثمرة التقوى بأنواعها. وهذا النور فى العلم الذى لا يصل إليه طالبه إلا بالتقوى هو الحكمة.

أمر الله تعالى فى مواضع كثيرة من كتابه باتقائه وباتقاء النار وباتقاء الشرك والمعاصى وباتقاء الفتن العامة فى الدول والأمم وتقدم فى وصايا هذا السياق. وباتقاء الفشل والخذلان فى الحرب، وباتقاء ظلم النساء، وبين أن العاقبة فى إرث الأرض للمتقين كما أن الجنة فى الآخرة للمتقين: وقال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٢ - ٥] وأمثال ذلك فى التقوى العامة والخاصة وأجرها وعاقبتها كثير.

فمعنى التقوى العام: اتقاء كل ما يضرب الإنسان فى نفسه وفى جنسه الإنسانى القريب والبعيد، وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة والغايات الحسنة والكمال الممكن. ولذلك قال العلماء: إنها عبارة عن ترك جميع الذنوب والمعاصى وفعل ما

يستطاع من الطاعات، وزدنا على ذلك: اتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الكمال وسعادة الدارين بحسب سنن الله تعالى فى الكون، كالنصر على الأعداء وجعل كلمة الله هى العليا فى الأرض، كما هى فى الواقع ونفس الأمر، وكلمة الذين كفروا السفلى كذلك، وكمال ذلك يتوقف على العلم الواسع بالكتاب والسنة، وكمال هذا يتوقف على معرفة سنن الله تعالى فى الإنسان مجتمعًا ومنفردًا كما أرشد إليه فى آيات من كتابه، ومن ثم كانت ثمرة التقوى العامة الكاملة هنا حصول ملكة الفرقان التى يفرق صاحبها بنوره بين الأشياء التى تعرض له من علم وحكم وعمل، فيفصل فيها بين ما يجب قبوله وما يجب رفضه، وبين ما ينبغى فعله وما يجب تركه. وتنكير الفرقان للتنويع التابع لأنواع التقوى، كالفتن فى السياسة والرياسة والحلال والحرام والعدل والظلم، فكل متق لله فى شىء يؤتيه فرقانًا فيه.

وبذلك كان الخلفاء والحكام من أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم من خلفاء العرب أعدل حكام الأمم فى الأرض حتى فى عهد الفتح، قال بعض حكماء الإفرنج[1]: ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب، ولكنهم لم يتقوا فتن السياسة والرياسة لقلة اختبارهم. فعوقبوا عليها بتفرقهم فضعفهم فزوال ملكهم، وكان من بعدهم من أعاجم المسلمين دونهم لجهلهم بكل نوع من أنواع التقوى الواجبة، وحرمانهم من فرقانها، فهم يزعمون أنهم يجددون مجدهم، مع جهل هذا الفرقان المبين، وعدم الاعتصام بالتقوى المزكية للنفس، المؤهلة لها للإصلاح فى الأرض، بل مع انغماسهم فى السكر والفواحش؛ لظنهم أن الإفرنج قد ترقوا فى دنياهم بفساقهم وفجارهم، وإنما ترقوا بحكمائهم وأبرارهم، الذين وقفوا حياتهم على العلم والعمل النافع.

﴿ وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٩] هذا عطف على ﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩] أى ويمحو بسبب هذا الفرقان وتأثيره ما كان من تدنيس

(١) هو الدكتور غوستاف لوبون صاحب كتاب حضارة العرب والإسلام، وغيره من المصنفات.

سيئاتكم لأنفسكم فتزول منها داعية العود إليها المؤدى إلى الإصرار المهلك، ويغفر لكم بسترها وترك العقاب عليها ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥] ومن أعظم فضله أن جعل هذا الجزاء العظيم (وهو الفرقان) بقسميه السلبى والإيجابى جزاء للتقوى وأثرًا لها. انتهى تفسير الآية مختصراً.

●●●

المقصد الثانى من مقاصد القرآن

بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل

كانت العرب تنكر الوحى والرسالة إلا أفرادًا من بقايا الحنفاء فى الحجاز وغيره، ومن دخل فى اليهودية والنصرانية لمجاورته لأهلهما، وكانت شبهة مشركى العرب وغيرهم على الوحى استبعاد اختصاص الله تعالى بعض البشر بهذا التفضيل على سائرهم، وهم متساوون فى الصفات البشرية بزعمهم، ويقرب منهم اليهود الذين أنكروا أن يختص الله تعالى بهذه الرحمة والمنة من يشاء من عباده وأوجبوا عليه أن يحصر النبوة فى شعب إسرائيل وحده، كأن بقية البشر ليسوا من عباده الذين يستحقون من رحمته وفضله ما أعطاه لليهود من هداية النبوة. على أنهم وصفوا الأنبياء بالكذب والخداع والاحتيال على الله ومصارعته، وارتكاب كبائر المعاصى كما تقدم فى المقصد الأول، ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم، وأثبتوا قداسة غير الأنبياء من رسل المسيح وغيرهم من البابوات والعباد، وعبدوهم أيضًا، على أنهم نقلوا عن بعض خواص تلاميذه إنكارهم إياه فى وقت الشدة، وعن بعضهم أنه أسلمه لأعدائه، وأنه لعن أكبرهم وسماه شيطانًا، وأنه قال لهم «كلكم تشكون فى هذه الليلة» واتخذ كل من الفريقين أحبارهم ورهبانهم وقسوسهم أربابًا من دون الله تعالى بأن نحلوهم حق التشريع الدينى من وضع العبادات والتحليل والتحريم(1) وكذلك ذلك من الكفر بالله وإنكار عدله، وعموم رحمته وفضله، ومن مفسدات نوع الإنسان، وجعل السواد الأعظم منه مستعبدًا لأفراد من أبناء جنسه، فأبطل الله تعالى كل ذلك بما أنزله من كتابه على خاتم النبيين ﷺ.

١- بعثة الرسل فى جميع الأمم ووظائفهم:

قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل: ٣٦] وقال: ﴿إِنَّا

(1) راجع تفصيل هذا فى (ص ٢٦٣) من جزء التفسير العاشر.

أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وكرم الله الإنسان بجعل التشريع الدينى من حقوقه وحده، وإنما النبيون والرسل مبلغون عنه وليسوا بمسيطرين على الأقوام، وطاعتهم تابعة لطاعته، فقد أبطل ما نحلهم الناس من ربوبية التشريع، كما أبطل عبادتهم وعبادة من دونهم من القديسين، وبذلك تحرر الإنسان من الرق الروحى والعقلى الذى منيت به الأمم المتدينة ولا سيما البوذيين والنصارى.

ولضلال جميع أهل الملل والنحل فى ذلك كرر هذا الإصلاح فى كثير من السور بالتصريح بأن الرسل بشر مثل سائر البشر يوحى إليهم، وبأنهم ليسوا إلا مبلغين لدين الله تعالى الموحى إليهم. قال تعالى لخاتمهم المكمل لدينهم فى خاتمةسورة الكهف ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ... الآية﴾ [الكهف: ١١٠]. وقال فى جملتهم من وسطها ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ ومثلها فى سورة الأنعام [٦: ٤٨] وفى معناهما آيات أخرى بعثهم مبشرين ومنذرين بالقول والعمل، لا متصرفين فى الكون بالنفع والضر بأنفسهم ولا بتأثيرهم فى إرادته تعالى. وقد شرحنا ذلك فى تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨] وقد بين ذلك النبى ﷺ بأقواله وأعماله وأخلاقه فى العبودية والتواضع بما لا يدع لتأويل الآيات سبيلاً. حتى فطن لذلك بعض العلماء الإفرنج الأحرار فقال: إن محمداً لما رأى خزى النصارى بتأليه نبيهم وعبادته لم يكتف بتلقيب نفسه برسول الله حتى أمرهم بأن يقولوا «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

٢- أطوار النصارى وما انتهوا إليه فى الدين:

ومن عجيب أمر النصارى أن وثنى أوروبية غلبوهم على دينهم لضعفهم وتفرقهم بعدم وجود نظام يجمع أمرهم بقوة حاكمة فتصدى لجمعهم الملك قسطنطين فانتزعهم من دين التوحيد الذى كان عليه إبراهيم وموسى وعيسى وسائر النبيين، وأسس لهم كنائس كهياكل قومه الوثنيين، ورياسة دينية رومانية تناوئ اليهود أو الساميين، إلا

فلسفة بولس عدو المسيح والمسيحيين، ثم وضع لهم الأحبار والأساقفة من اليونان والروم عقائد وعبادات وشرائع وشعائر كثيرة، لم يبن شيء منها على أساس التوراة التي هي ناموس موسى عليه السلام ونقلوا عن المسيح عليه السلام أنه قال وقوله الحق أنه ما جاء لينقض الناموس وإنما جاء ليتممه، ولكن هؤلاء الأوروبيون نقضوه ووضعوا لأنفسهم نواميس أخرى مخالفة له، ولما تممّه به المسيح من الزهد وترك عبادة المال والشهوات والرياء وحب الرياسة والبغي والعدوان، وعادوا أتباعه اليهود في كل شيء.

الخوارق الروحانية للمسيح عليه السلام:

إن الآيات التي أيد الله تعالى بها المسيح عليه السلام -على كونها خارقة للعادات الكسبية وعلى خلاف السنن المعروفة للناس - قد يظهر فيها أنها كلّها أو جلّها حدث على سنة الله في عالم الأرواح كما كان خلقه كذلك. فقد حملت أمه به بنفخة من روح الله عز وجل فيها (وهو الملك جبريل عليه السلام)، كانت سبب علوقها به بفعلها في الرحم ما يفعل تلقيح الرجل بقدرة الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾[المؤمنون: ٥٠] فآيتهما هي الحمل به وخلقه بنفخ الروح الإلهي، لا بسبب التلقيح البشري.

وأعظم آياته الروحانية التي أثبتها له التنزيل ولم ينقلها مؤلفو الأناجيل الأربعة (وروى أنها منصوصة في إنجيل الطفولة الذي نبذته المجامع الكنسية قبل البعثة المحمدية ففقد من العالم) هي أنه كان يأخذ قطعة من الطين فيجعلها بهيئة طير فينفخ فيه أي من روحه فيكون طيراً بإذن الله تعالى ومشيئته... ومن دون هذا وذاك شفاء بعض الأمراض ولا سيما العصبية سواء أكان كان سببها مس الشيطان وتلبسه بالمجنون كما في الأناجيل أم غيره.

ومن دون هذا وذاك المكاشفات المعبر عنها فيما حكاه تعالى عنه بقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وقد أنبأنا غيره من أنبياء بني

إسرائيل[1] وغيرهم وكذا غيرهم من الروحانيين ولا سيما صالحى أمة محمد ﷺ بما هو أعظم من هذا من الأمور المستقبلة، ولكنها درجات متفاوتة من القوة والضعف وطول المدة وقصرها، والثقة بالمرئى وعدمها، وإدراك الحاضر الموجود، والغائب المفقود، وما كان فى الأزمنة الماضية، وما يأتى فى الأزمنة المستقبلة، فأعلاها خاص بالأنبياء إذا لم يوجد ولن يوجد بشر يعلم بالكشف ما وقع منذ القرون الأولى كأخبار القرآن عن الرسل الأولين مع أقوامهم، أو ما يقع بعد سنين فى المستقبل كإخباره عن عودة الكرة للروم على الفرس، وإخباره ﷺ بفتح الأمصار واتباع الأمم لأمته، ثم بتداعيهم عليها كما يتداعى الآكلون إلى قصعة الطعام، وقد أخبر بعض أصحابه بأعيانهم بما يقع من ذلك فى زمنهم كسقوط ملك كسرى، وسنعقد فصلاً خاصًا بأخبار الغيب فى القرآن والحديث فى الجزء التالى كما وعدنا فى فاتحة هذه الطبعة، ومن المكاشفات الثابتة فى هذا العصر ما يسمونه قراءة الأفكار، وقد شاهدنا من فعله، ومنها مراسلة الأفكار كما تقدم.

فتبين بهذا وذاك أن آيات الله تعالى المشهورة لموسى (ع. م) بمحض قدرته تعالى دون سنة من سننه الظاهرة فى قواه الروحية، وأن آياته لعيسى (ع. م) بخلاف ذلك، والنوع الأول أدل على قدرة الله تعالى ومشيئته واختياره فى أفعاله فى نظر البشر لبعدها عن نظام الأسباب والمسببات التى تجرى عليها أفعالهم.

عبادة بعض الناس للمسيح وللأولياء دون موسى:

وإنما عبد بعض البشر عيسى واتخذوه إلهًا ولم يعبدوا موسى كذلك -وآياته أعظم لأنهم جهلوا أن آيات عيسى جارية على سنن روحية عامة قد يشاركه فيها غيره فظنوا أنه يفعلها بمحض قدرته التى هى عين قدرة الخالق سبحانه لحلوله فيها واتحاده به بزعمهم، وآيات موسى بمحض قدرة الله وحده، ولم يفطنوا لاتباع عيسى لموسى فى شرعه (التوراة) إلا قليلاً بما نسخه الله على لسانه من إحلال بعض ما حرم عليهم بظلمهم عقوبة لهم، ومن تحريم ما كانوا عليه من الغلو فى عبادة المال والشهوات.

---

(١) وقد سبقه إلى هذا يوسف عليه السلام بما حكى الله من قوله لصاحبيه فى السجن (١٢ : ٣٧) ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ الآية.

ومثل النصارى فى هذا من يفتنون من المسلمين بعبادة الصالحين بدعائهم فى الشدائد لاعتقادهم أنهم يدفعون عنهم الضر ويجلبون لهم النفع بالتصرف الغيبى الخارج عن سنن الله فى الأسباب والمسببات. الداخل عندهم فى باب الكرامات، وهو خاص بالرب تعالى. ولكنهم لا يطلقون على أحد منهم اسم الرب ولا الإله ولا الخالق؛ إذ الأسماء اصطلاحية، وإنما الفرقان بين الخالق والمخلوق والرب والمربوب أن الرب الخالق هو القادر على النفع والضر لمن يشاء وصرفهما عمن يشاء بما يسخره من الأسباب وبدونها إن شاء الله - وأن المخلوق المربوب هو المقيد فى أفعاله الكسبية الاختيارية فى النفع والضر بسنن الله تعالى فى الأسباب والمسببات التى سخرها تعالى لجميع خلقه، ولكنهم يتفاوتون فى العلم والعمل بها كما يتفاوتون فى الاستعداد لها بقوى العقل والحواس والأعضاء وفى وسائلها، وقد بلغ البشر بالعلم والعمل الكسبيين من المنافع ودفع المضار ما لم يعهد مثله لأحد من خلق الله قبلهم لا الأنبياء ولا غيرهم؛ لأن الأنبياء المرسلين لم يبعثوا لهذا مثله لأحد من خلق الله قبل لا الأنبياء ولا غيرهم، لأن الأنبياء المرسلين لم يبعثوا لهذا وإنما بعثوا لهداية الناس إلى معرفة الله وعبادته وتهذيب أخلاقهم بها، فمنافع الدنيا لا تطلب منهم أحياء ولا أمواتًا وإنما تطلب من أسبابها، وما وراء الأسباب لا يقدر عليه إلا الله عز وجل وقد قتل الظالمون بعض الأنبياء والأولياء، وآذوا بعضهم بضروب من الإيذاء، ولم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم؛ ولذلك تكرر فى القرآن الحكيم نفى هذا النفع والضر عن كل ما عبد ومن عبد من دون الله بالذات أو بالشفاعة عند الله تعالى كما قال: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ... الآية ﴾ [يونس: ١٨] ومثلها آيات. وأمر خاتم رسله أن يعلم الناس ذلك كما فعل من قبله من الرسل فقال: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] وقال: ﴿ قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا ﴾ [الجن: ٢١] الآيات. وقد فصلنا هذه المسألة مرارًا.

ونلخص الموضوع هنا فى المسائل الآتية:

١- أن الله تعالى قد أتقن كل شيء خلقه فجعله بإحكام ونظام لا تفاوت فيه ولا اختلال وسنن مطردة ربط فيها الأسباب بالمسببات، فمخلوقاته العليا والسفلى، هى مظهر أسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ ولهذا قال حجة الإسلام الغزالى: ليس فى الإمكان أبدع مما كان، وهذا النظام المطرد فى الأكوان، الثابت بالحس والعقل ونصوص القرآن -هو البرهان الأعظم على وحدانية خالق السموات والأرض ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

٢- أن سنن الله تعالى فى إبداع خلقه ونظام الحركة والسكون والتحليل والتركيب فيه لا يحيط بها علمًا غيره عز وجل، وكلما ازداد البشر فيها نظرًا وتفكرًا واختبارًا وتدبرًا وتجربة وتصرفًا، ظهر لهم من أسرارها وعجائبها ما لم يكونوا يعلمون ولا يظنون ومن منافعها ما لم يكونوا يتخيلون ولا يتوهمون، وها نحن أولاء نرى مراكبهم الهوائية من تجارية وحربية تحلق فى الجو، حتى تكاد تبلغ محيط الهواء، وبعض مراكبهم البحرية تغوص فى لجج البحار، ونراهم يتخاطبون من مختلف الأقطار، كما نطق الوحى بتخاطب أهل الجنة مع أهل النار، فيسمع أهل المشرق أصوات أهل المغرب، وأهل الجنوب حديث أهل الشمال وخطبهم وأغانيهم، قبل أن يسمعها بعض أهل البلد أو المكان الذى يصدر عنه الكلام[1]. وقد يغمز أحدهم زرًا كهربائيًا فى قارة أوربة فتتحرك بغمزته آلات عظيمة فى قارة أخرى فى طرفة عين، وبينهما المهامة الفيح، والجبال الشاهقة، ومن دونهما البحار الواسعة والجاهلون بهذه السنن الإلهية، والفنون العملية، لا يزالون يلجئون فى طلب المنافع ودفع المضار من غير طريق الأسباب -التى ضيق الجهل عليهم سبلها- إلى قبور الموتى من الصالحين المعروفين والمجهولين؛ ليقضوا لهم حاجاتهم، ويشفوا

(١) روى لنا أن آلة المذياع (الراديو) الناقلة للأصوات من أوربا يصل الكلام الذي تحمله إلى مصر وغيرها فتعكسه الآلات التى فيها ويسمعه أهلها قبل أن يسمعه من فى الصفوف الخلفية - من المكان الذى ألقى فيه.

مرضاهم، ويعينونهم على أعدائهم، بل ينتقموا لهم من أصدقائهم الذين عادوهم بغيًا وفسادًا. من زوج وقريب وجار ووطنى، وأعداؤهم فى دينهم ووطنهم من الأجانب قد سادوا حكومتهم، واستذلوا أمتهم، واستأثروا بجل ثروتهم، ولا يتصرف فيهم هؤلاء الأولياء بما يدفع عن المسلمين ضررهم وإذلالهم!!

٣- أن الأصل فى كل ما يحدث فى العالم أن يكون جاريًا على نظام الأسباب والمسببات، وسنن الله التى دل عليها العلم، وأخبرنا الوحى بأنه لا تغيير فيها ولا تبديل لها ولا تحويل، فكل خبر عن حادث يقع مخالفًا لهذا النظام والسنن فالأصل فيه أن يكون كذبًا اختلقه المخبر الذى ادعى شهوده أو خدع به ولبس عليه فيه؛ فإن كان قد وقع فلا بد أن يكون له سبب من الأسباب الخفية التى يجهلها المخبر، كما حققه علماء الأصول فى بحث الجبر وما يقطع بكذبه منه.

٤- أن آيات الله التى تجرى على غير سننه الحكيمة فى خلقه لا يثبت العلم بها إلا بدليل قطعى. وقد كان من حكمته أن أيد بعض النبيين المرسلين بشىء منها لإقامة حجتهم وتخويف المعاندين لهم، وقد انقطعت هذه الآيات ببعثة خاتمهم محمد ﷺ وسبب ذلك أو حكمته ختم النبوة برسالته. وجعل ما أوحاه إليه آية دائمة، وهداية عامة لجميع البشر مدة بقائهم فى هذه الدنيا، وأنزل عليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] لعلمه تعالى بأنهم لا يحتاجون بعد هذا الوحى إلى وحى آخر، ولا إلى آية على كونه من عند الله تعالى إلا هذا القرآن نفسه، وهذا الكتاب فى جملته وتفصيله مشتمل على كثير من الدلائل العقلية العلمية على كونه من عنده، كما فصلناه من قبل، ونزيده بيانًا فيما بعد.

وقد ادعى الباب والبهاء والقاديانى الوحى فى القرنين الأخيرين فجاءوا بأسخف بما عزى إلى مسيلمة الكذاب، وسأورد نماذج من وحيهم الشيطانى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب مما فيه عبرة لأولى الألباب.

ختم النبوة وانقطاع الخوارق بها ومعنى الكرامات:

٥- لو كان للبشر حاجة بعد القرآن ومحمد ﷺ إلى الآيات كما يدعى المفتونون بالكرامات ومخترعو الأديان والنحل الجديدة لما كان لختم النبوة، وقد بلغ من غلو مارقة الصوفية الروحانية أن امتروا فى ختم النبوة[1] فأنكروه أو تأولوه لادعائهم نوعًا منها، ومنهم من ابتدع اسمًا أو وصفًا للنبوة التى ادعوها وهو النبوة الظلية وفتن بفتنتهم البابية والبهائية، حتى عبدوا الباب والبهاء إذ ادعيا الألوهية، وفتن بها (غلام أحمد القاديانى) فادعى النبوة والمسيحية له ولخلفائه بلا انقطاع، حتى سامها المرتزقة منهم والرعاع.

وقد بيّن شيخنا الأستاذ الإمام فى رسالة التوحيد كيف ارتقى التشريع الدينى فى الأمم بارتقاء نوع الإنسان فى الإدراك والعقل كارتقاء الأفراد من طفولة إلى شباب إلى كهولة حتى بلغ فيها رشده واستوى، وصار يدرك بعقله هذه الهداية العقلية العليا (هداية القرآن) بعد أن كان لا سبيل إلى إذعانه لتعليم الوحى، إلا ما يدهش حسه ويعى عقله من آيات الكون (يعنى أنه بلغ هذا الرشد فى جملته واستعداد كثير من أفراده لا كلهم ولا أكثرهم).

بيّن فى الكلام على وجه الحاجة إلى الرسالة أن سمو عقل الإنسان وسلطانه على قوى الكون الأعظم بما هى مسخرة له تنافى خضوعه واستكانته لشىء منها، إلا ما عجز عن إدراك سببه وعلته، فاعتقد أنه من قبل السلطان الغيبى الأعلى لمدبر الكون ومسخر الأسباب فيه. فكان من رحمة الله تعالى به «أنه أتاه من أضعف الجهات فيه وهى جهة الخضوع والاستكانة فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين، وميزهم من بينها بخصائص فى أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم، وأيد ذلك زيادة فى الإقناع بآيات باهرات تملك النفوس. وتأخذ

(١) حكى عن ابن سبعين لعنه الله أنه قال: قد تحجر ابن آمنة واسعًا بقوله «لا نبى بعدى».

الطريق على سوابق العقول، فيستخذى الطامح، ويذل الجامح، ويصدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه».

ثم قال فى رسالة محمد ﷺ: نبى صدق الأنبياء ولكنه لم يأت فى الإقناع برسالته بما يلهى الأبصار، أو يحيّر الحواس، أو يدهش المشاعر، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له واختص العقل بالخطاب، وحاكم إليه الخطأ والصواب وجعل فى قوة الكلام، وسلطان البلاغة، وصحة الدليل، مبلغ الحجة وآية الحق الذى ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

لا يمكن إثبات معجزات الأنبياء إلا بالقرآن:

(٦) أنه لا يمكن إثبات معجزات الأنبياء فى هذا العصر بحجة لا يمكن لمن عقلها ردها إلا هذا القرآن العظيم، وما ثبت فيه بالنص الصريح منها، أقول هذا اتجاه إنكار العلماء الواقفين على كتب الأديان التى قبل الإسلام -حتى كتب اليهود والنصارى- وعلى تواريخها لتواتر ما ذكر فيها من الآيات واشتباههم فى كونها خوارق حقيقية، وفى كون الخوارق تدل على نبوتهم، وحجتهم على الأول: أن التواتر الذى يفيد العلم القطعى غير متحقق فى نقل شىء منها، وهو نقل الجمع الكثير الذى يؤمن تواطؤهم على الكذب لخبر أدركوه بالحس وحمله عنهم مثلهم قرنًا بعد قرن وجيلاً بعد جيل بدون انقطاع، وإنما يكون استحالة تواطؤهم على الكذب بأمور أهمها عدم التحيز والتشيع لمضمون الخبر وعدم تقليد بعضهم لبعض فيه وآية صحة هذا التواتر حصول العلم القطعى به وإذعان النفس له وعدم إمكان رده اعتقادًا ووجدانًا، وهذا غير حاصل فى رواية آيات الأنبياء الأولين عندهم، بل زعم بعض علماء الإفرنج أن قصة المسيح وضعية خيالية لا واقعة حقيقية، ولها أمثال فى التاريخ. وتقدم الكلام فى آياته والمراء فيها.

وشبهتهم على الثانى: إن وقوع الخوارق المذكورة لا يدل على النبوة والرسالة كما بيناه فى الكلام على الآيات والخوارق وإثبات النبوة من أواخر الفصل الثانى.

وأما آية القرآن فهى باقية ببقائه إلى يوم القيامة، وكل واقف على تاريخ الإسلام

يعلم علمًا قطعيًا أنه متواتر تواترًا متصلاً فى كل عصر، من عصر الرسول ﷺ الذى جاء به إلى الآن، وأما الذى يخفى على كثير منهم فهو وجوه إعجازه الدالة على أنه وحى إلهى، وقد شرحنا شبهتهم عليه وبينا بطلانها فى هذا الكتاب، وإذ قد ثبت بذلك كونه وحيًا من الله تعالى فقد وجب الإيمان بكل ما أثبته من آياته فى خلقه سواء أكانت لتأييد رسله وإقامة حجتهم أم لا، وكما يجب على كل مؤمن به أن يؤمن بها. يجب أن يؤمن بانقطاع معجزات الرسل بعد ختم النبوة بمحمد ﷺ.

وإذ كان لا يجب على مسلم أن يؤمن بوقوع كرامة كونية خارقة للعادة بعد محمد خاتم النبيين ﷺ فلا يضر مسلمًا فى دينه أن يعتقد كما يعتقد أكثر عقلاء العلماء والحكماء من أن ما يدعيه الناس من الخوارق فى جميع الأمم أكثره كذب وبعضه صناعة علم أو تأثير نفس أو شعوذة سحر - وأقله من خواص الأرواح البشرية العالية. وعلامته أن يكون علمًا صحيحًا موافقًا للمنقول الشرعى، والمعقول القطعى، أو عملاً نافعًا مشروعًا، وأن يكون من صدر عنه مؤمنًا عاقلاً صالحًا، فكل ما ينقله المتصوفة مخالفًا لذلك من التصرف الضار بالناس فى دينهم أو صحتهم فهو إن صح من تأثير الأنفس الخبيثة كالإصابة بالعين والتنويم المغناطيسى الضار لا كله.

(٧) أن الثابت بنصوص القرآن من آيات الأنبياء المرسلين المعينة قليل جدًا. فما كانت دلالته من هذه النصوص قطعية فصرفه عنها بالتحكم فى التأويل الذى تأباه مدلولات اللغة العربية، وينقض شيئًا من قواعد الشرع القطعية، يعد ارتدادًا عن الإسلام، وما كانت دلالته ظاهرة غير قطعية وجب حمله على ظاهره إن لم يعارضه نص أو دليل مثله أو أقوى منه، فإن عارضه فحينئذ ينظر فى الترجيح بين المتعارضين بالأدلة المعروفة، والخروج عن ذلك ابتداع.

الإيمان بالقدر والسنن العامة وآيات الله الخاصة:

إننا نؤمن بأن الله تعالى هو خالق كل شيء بقدرته وإرادته، واختياره وحكمته، وأنه ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ كما قال فى سورة السجدة، ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كما قال فى سورة النمل، وأنه ليس فى خلقه تفاوت ولا فطور كما قال فى

سورة الملك (٦٧ : ٣) وأنه خلق كل شىء بنظام وتقدير لا جزافًا ولا أنفًا[1] كما قال فى سورة القمر ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر : ٩] وقال فى سورة الفرقان ﴿وخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان : ٢] وقال فى سورة الحجر ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ[2] ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ١٩ - ٢١].

وأن له تعالى فى نظام التكوين والإبداع، وفيما هدى إليه البشر من نظام الاجتماع، سننًا مطردة تتصل فيها الأسباب بالمسببات، لا تتبدل ولا تتحول محاباة لأحد من الناس، وأن سننه تعالى عامة فى عالم الأجسام وعالم الأرواح، وقد ورد ذكر السنن الاجتماعية باللفظ فى سورة المائدة والأنفال والحجر والإسراء والكهف والأحزاب وفاطر والمؤمن والفتح.

فهذه الآيات البينات ناطقة بأن القدر والتقدير عبارة عن النظام العام فى الخلق الذى تكون فيه الأشياء بقدر أسبابها بحسب السنن والنواميس العامة التى وضعها الخالق لها، لا ما اشتهر عند الجماهير من الناس من أن المقدر ما ليس له سبب، أو ما يفعله الله على خلاف النظام والسنن، وقد يصح إطلاقه على ما لا يعرفون سببه، ولا يحيط بأسباب الحوادث علمًا إلا خالقها، ومقدر سببها وسننها.

ونؤمن بأن له تعالى فى خلقه آيات بينات، وأن له فى آياته حكمًا جلية أو خفية، وأن ما منحنا إياه من العقل والشرع يأبيان علينا أن نثبت وقوع شىء فى الخلق على خلاف ما تقدم بيانه من نظام التقدير، وسنن التدبير، إلا ببرهان قطعى يشترك العقل والحس فى إثباته وتمحيصه، وأنه لا بد أن يكون وقوعه لحكمة بالغة لا عن خلل ولا عبث، وأن ما خفى علينا من حكمه تعالى فهو كسائر ما يخفى علينا من أمور خلقه، نبحث عنهما لنزداد علمًا بكماله، ونكمل به أنفسنا بقدر استطاعتنا، ولا نتخذها حجة ولا عذراً على الكفر به لجهلنا، وقد ثبت لأعلم علماء البشر فى كل عصر أن ما نجهل من هذا الكون أكثر مما نعلم، ويستحيل أن يحيط البشر به علمًا.

(١) الأنف بضمتين هو الذى يفعل ابتداءً من غير سبق تقدير ولا نظام فهو ضد المقدر.

(٢) وصف النبات بالموزون من عجائب تعبير القرآن التى أظهرتها العلوم الحديثة؛ فكل نوع منه مؤلف من عناصر بمقادير معينة يمكن ضبطها بالوزن الدقيق فى النسبة المئوية.

أجمع على هذا علماء هذا العصر الماديين على سعة علمهم بالمادة وسننها، وكثرة ما أحدثوا من الصناعات والمنافع بتسخيرها، فما قولك بعالم الروح والغيب؟ إنه ليظهر فيهم كمن قبلهم صدق قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥].

ونؤمن بأن الله تعالى قد أرسل إلى البشر رسلاً هدوهم بآياته إلى الخروج من مضيق مدارك الحس، وما يستنبطه الفكر منها بادئ الرأى، إلى ما وراءها من سعة عالم الغيب، ولولا هدايتهم لظل البشر ألوف الألوف من السنين ينكرون وجود ما لم يكونوا يدركونه بحواسهم من الأجسام وأعراضها، وبقياسهم ما جهلوا على ما علموا منها. وما ينكره الإنسان ويعتقد استحالة وجوده لا يبحث عنه.

وقد علمنا من التاريخ أن الإيمان بالله وبآياته لرسله وباليوم الآخر، وبما يكون فيه من الحساب والجزاء على الأعمال. هو الذى وجه عقول البشر إلى البحث فى أسرار الوجود، حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الارتقاء فى العلوم والفنون والصناعات فى الأجيال المختلفة، ولم يكن لغير المؤمنين بالغيب منهم نصيب فى ذلك - فهذا الإيمان بالأركان الثلاثة من الغيب هو الذى أوصل البشر إلى علوم وأعمال كان يعدها غير المؤمنين بالغيب من محالات العقول كالغيب الذى أنكروه، حتى لم يعد شيء من أخبار الغيب بعيداً عن العقل بعد ثبوتها.

فتبين لنا بهذا وبما قبله أنه كان للبشر بآيات الأنبياء ثلاث فوائد هى من حكم نصبه تعالى لتلك الآيات:

(الأولى) جعلها دليلاً حسيًا على اختياره تعالى فى جميع أفعاله، وكون سنن النظام فى الخلق خاضعة له، لا حاكمة عليه ولا مقيدة لإرادته وقدرته.

(الثانية) جعلها دليلاً على صدق رسله فيما يخبرون عنه بوحيه، ونذراً للمعاندين لهم من الكفار، ولو كانت مما يقدر عليه البشر بكسبهم، أو تقع منهم باستعداد روحى فيهم، لما كانت آية على صدقهم.

(الثالثة) هداية عقول البشر برؤيتها إلى سعة دائرة الممكنات، وضيق نطاق المحال فى المعقولات، وإلى أن كون الشيء بعيداً عن الأسباب المعتادة والأمور المعهودة والسنن المعروفة، لا يقتضى أن يكون محالاً يجزم العقل بعدم وقوعه، ويكذب المخبر به ولو مع قيام الدليل على صدقه، وإنما غايته أن يكون الأصل فيه عدم الثبوت فيتوقف ثبوته على الدليل الصحيح، وهذه قاعدة كبار علماء الكون فى هذا العصر، فلا ينقصهم لتكميل علمهم إلا ثبوت آية لله تعالى لا يمكن أن يكون لها علة من سنن الكون وسبب من أسبابه المطردة، والماديون المنكرون لآيات الرسل لن يجدوا هذه الآية فى عالم المادة وإنما يجدونها فى القرآن.

ذلك بأن كل ما فى عالم المادة فهو خاضع لما يسمى فى عرفهم بالأسباب والنواميس والعلل وفى لغة القرآن بالسنن والقدر، (كما قرأنا عليك آنفًا) ولذلك تجدهم يبحثون بالتحليلات المادية عن الموجود الأول فى الأزل، وما كان يبحث عنه الفلاسفة المتقدمون بالدلائل العقلية ويسمونه علة العلل، وإنما الموجود الأول هو الله تعالى واجب الوجود، الذى صدر عنه كل ما عداه من الموجودات، وهم لما يعرفوا أول ما صدر عنه بمحض قدرته ومشيئته المعبر عنها عندنا بكلمة التكوين، وهى قوله تعالى للشيء (كن فيكون) وهذا غيب الغيوب، ومنهم من يرى أن العلم به متعذر ومنهم من يطلبه ويرجوه.

ولكن الأمر قد انقلب عندهم إلى ضده؛ فإن كثيراً من الذين وصلوا إلى هذه العلوم والأعمال المقربة لآيات الرسل وما دعوا إليه من الإيمان بالغيب من العقول، قد صارت هذه العلوم نفسها سببًا لإنكارهم ما كان سببًا لها وموصلاً إليها (وهو الآيات والإيمان بالغيب) لا إنكار إمكانه فى العقل، بل إنكار ثبوته بالفعل، فهم ينكرون أن يكون الخالق قد فعل ما صاروا يفعلون نظيراً له فى الغرابة، وكان ينبغى لهم أن يجعلوه دليلاً عليه مبينًا لحقيقته كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] ولكنهم كلما أراهم آية من آياته الروحية فى أنفسهم أو من آياته الكونية فى الآفاق التمسوا لها سنة أو فرضوها فرضًا بقياس ما لم

يعرفوا على ما عرفوا، فأخرجوها عن كونها بمحض قدرته وإبداعه، وظلوا على لبسهم كالذين طلبوا من محمد ﷺ أن ينزل عليهم ملكًا رسولاً فقال الله فيهم: ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ** ﴾ [الأنعام: ٩] أى لما كانوا لا يمكن لهم أن يدركوا الملك ويتلقوا عنه إلا إذا كان بصورة رجل مثلهم، وهو ما استنكروه من كون الرسل بشراً مثلهم، فلو جعل الله ملكًا رسولاً إليهم لجعله رجلاً مثلهم، ولالتبس عليهم أمره بما يلبسونه على أنفسهم من استنكار كون الرسل بشراً مثلهم.

وهكذا يفعلون الآن: ظهرت لهم فى عصرنا عدة آيات روحية من المكاشفات والتأثير فى المادة فشبهوها بما عرفوا من الأمور المادية، فأطلقوا على تلك المكاشفات أسمى قراءة الأفكار ومراسلة الأفكار، وقالوا إنها من قبيل نقل الكلام بالسيال الكهربائى من مكان إلى مكان، حتى لا يعترفوا بآية إبداعية أو غيبية من الخالق لا تخضع لعلمهم، وهم ما زالوا يرتقون فى الأسباب إلى أن وصلوا من ظواهر تكوين الكهرباء الإيجابية والسلبية (بما يسمونه الإلكترون والبروتون) إلى مستوى قريب من عالم الغيب، وظنوا أنهما أصل لكل ما فى عالم الشهادة من شىء، على أن الكهرباء ليست بمادة محض، ولا بقوة محض، ولكنها شىء موجود دخل فى حكم علمهم بوجه ما، وهم عتاة لا يؤمنون إيمانًا تعبديًا إلا بآية تعلو على مدارك علمهم وعقولهم.

الخطر على البشر من ارتقاء العلم بدون الدين:

إن حرمان هؤلاء العلماء من الإيمان بآية كونية لله تعالى من هذا النوع قد جعل حظ البشر من هذا الارتقاء العجيب فى العلم أنهم ازدادوا به شقاء حتى صارت حضارتهم مهددة بالتدمير العلمى الصناعى فى كل يوم، وجميع علمائهم المصلحين، وساستهم الدهاقين، فى حيرة من تلافى هذا الخطر ولن يتلافى إلا بالجمع بين العلم والدين، وهذا ما جاءهم به محمد خاتم النبيين، ولأجله أثبتت الآيات بكتابه وفى كتابه المبين؛ إذ لا يمكن أن يخضع البشر إلا لما هو فوق استطاعتهم، بقيام الدليل على أنه من السلطان الغيبى الإلهى الذى هو فوق استعدادهم. ولا يظهر هذا السلطان والبرهان فى علوم الكون، لما ذكرنا من شنشنتهم فيها، وإنما يظهر أكمل الظهور من هذا القرآن، وسنتحداهم به أتم التحدى فى خاتمة هذا الكتاب.

المقصد الثالث من مقاصد القرآن

إكمال نفس الإنسان من الأفراد والجماعات والأقوام

(يجعل الإسلام دين الفطرة السليمة. والعقل والفكر، والعلم والحكمة والبرهان والحجة، والضمير والوجدان، والحرية والاستقلال).

قد أتى على البشر حين من الدهر لا يعرفون من الدين إلا أنه تعاليم خارجة عن محيط العقل كلف البشر[1] مقاومة فطرتهم بها، وتعذيب أنفسهم ومكابرة عقولهم وبصائرهم خضوعًا للرؤساء الذين يلقنونهم إياها، فإن انقادوا لسيطرتهم عليهم بها كانوا من الفائزين، وإن خالفوهم سرًا أو جهرًا كانوا من الهالكين، والحق الواقع أنهم كانوا بهذا الخضوع والخنوع من الخاسرين، ولكن عجز عقلاؤهم وحكماؤهم عن انتياشهم (وانتشالهم) من مهاوى التهلكة، وإخراجهم من ظلمات الشرك والظلم والاستبداد، إلى نور التوحيد والحرية والعدل والاستقلال.

حتى إذا بعث الله رسوله محمدًا ﷺ خاتم النبيين، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم مما كانوا فيه من الضلال المبين - كان هو الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور، وبين لهم أن دين الله الإسلام هو دين الفطرة، والعقل، والفكر، والعلم والحكمة، والبرهان والحجة، والضمير والوجدان، والحرية والاستقلال، وأن لا سيطرة على روح الإنسان وعقله وضميره لأحد من خلق الله، وإنما رسل الله هداة مرشدون، مبشرون ومنذرون، كما تقدم بيانه فى المقصد الذى قبل هذا. ونبين هذه المزايا بالشواهد المختصرة من القرآن فنقول:

---

(١) كلف بالتشديد من التكليف وهو هنا مبنى للمجهول لأنه يتعدي بنفسه إلى مفعولين وعلماء الأصول والفقه يعدونه إلى الثانى بالباء.

الإسلام دين الفطرة:

قال الله عز وجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

هذا أصل دين الفطرة الغريزى فى البشر، لا ما زعمه بعض الكتاب المعاصرين من أن دين الفطرة فى الآية الكريمة أن يعمل الإنسان متبعًا شعوره وأفكاره ووجدانه بمقتضى طبيعته دون تلقى شىء من غيره، فهذا جهل لا يقره دين ولا عقل، وفوضى لا يستقيم معها أمر..

وقد بينا فى مواضع مع التفسير والمنار فى كون معنى الإسلام دين الفطرة، وأنه شرع لتكميل استعداد البشر للرقى فى العلم والحكمة، ومعرفة الله عز وجل المعدَّة إياهم لسعادة الآخرة.

قد كان دين الله الذى بعث به جميع رسله لجميع الأمم مصلحًا ما أفسدته الوثنية من فطرتهم بجهلهم ثم بتقليد بعضهم لبعض، على أنهم كانوا إذا طال الأمد على بعثة الرسل يضلون عن هدايتهم إلى أن أتم الله الدين وأكمله للبشر كما تقدم بيانه فى المقصدين، الأول والثانى من مقاصد القرآن. وفى حديث الصحيحين عن النبى ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» يعنى أنهما يفسدان فطرته الاستعدادية بتلقينه دينًا محرفًا منسوخًا بدلاً من إكمالها.

وكان من فضل الله على عباده بعد إكماله دينه أن ضمن لهم حفظ كتابه هذا من التحريف والتبديل والنسيان، والزيادة والنقصان، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وعصم أمة خاتم النبيين ﷺ أن تضل كلها عنه، كما ضلت الأمم قبلهم، فإن كان ﷺ قد أخبر بما أطلعه الله عليه من مستقبلها أنهم سيتبعون سنن من قبلهم من اليهود والنصارى (كما تقدم فى ص ١٥٠) فقد أخبر

أيضًا بأنه لابد أن يبقى بعضهم على الحق ليكونوا حجة الله على خلقه فقال ﷺ «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون» رواه أحمد والبخارى عن المغيرة بن شعبة (رضى الله عنه) وفى رواية لهم عن معاوية «لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون للناس» ورواه مسلم والترمذى وابن ماجه عن ثوبان بلفظ «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك إلى قيام الساعة»[1] ورواه مسلم من حديث جابر بن سمرة مرفوعًا «لن يبرح هذا الدين قائمًا يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة» وروى آخرون من طرق ضعيفة يقوى بعضها بعضًا أن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة ولله الحمد.

***

الإسلام دين العقل والفكر:

تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة (العقل) ولا فى معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التى فضل الإنسان بها جميع أنواع هذا الجنس الحى كاللب والنهى، لا لأن هذه المادة لم تذكر فى كتب العهدين مطلقًا بل لأنها لم ترد فيها أساسًا لفهم الدين ودلائله والاعتبار به، ولا أن الخطاب بالدين موجه إليه، وقائم به وعليه، وكذلك أسماء التفكر والتدبر والنظر فى العالم التى هى أعظم وظائف العقل.

أما ذكر العقل باسمه وأفعاله فى القرآن الحكيم فيبلغ زهاء خمسين مرة وأما ذكر أولى الألباب أى العقول ففى بضع عشرة مرة، وأما كلمة أولى النهى (جمع نهية بالضم كغرفة) أى العقول، فقد جاءت مرة واحدة من آخر سورة طه.

---

(١) زدنا فى هذه الطبعة رواية معاوية وحديث ثوبان لأنهما أصح وأبسط من حديث عمر وأبى هريرة فى الموضوع.

أكثر ما ذكر فعل العقل فى القرآن قد جاء فى الكلام على آيات الله وكون المخاطبين بها والذين يفهمونها ويهتدون بها هم العقلاء ويراد بهذه الآيات فى الغالب آيات الكون الدالة على علم الله ومشيئته وحكمته، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤] ويلى ذلك فى الكثرة آيات كتابه التشريعية ووصاياه كقوله فى تفصيل الوصايا الجامعة من أواخر سورة الأنعام ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١] وكرر قوله ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ أكثر من عشر مرار كأمره لرسوله ﷺ أن يحتج على قومه يكون القرآن من عند الله لا من عنده بقوله: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦] وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله فى أهل النار من سورة الملك: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠] وفى معناه قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقوله فى سورة الحج ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦].

كذلك آيات النظر العقلى والتفكر كثيرة فى الكتاب العزيز، فمن تأملها علم أن أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكر والعقل والتدبر، وأن الغافلين الذين يعيشون كالأنعام لا حظ لهم منه إلا الظواهر التقليدية التى لا تزكى الأنفس ولا تثقف العقول، ولا تصعد بها فى معارج الكمال، بعرفان ذى الجلال والجمال، ومنها قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ

تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سبأ: ٤٨] وقوله: ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الروم: ٨] وقوله فى صفات العقلاء أولى الألباب ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٩١] وقوله بعد نفى علم الغيب والتصرف فى خزائن الأرض عن الرسول ﷺ وحصر وظيفته فى اتباع الوحى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقد صرح بعض حكماء الغرب، بما لا يختلف فيه عاقلان فى الأرض، من أن التفكر هو مبدأ ارتقاء البشر، وبقدر جودته يكون تفاضلهم فيه.

كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكر واستقلال العقل على البشر، حتى جاء الإسلام فأبطل بكتابه هذا الحجر، وأعتقهم من هذا الرق، وقد تعلم هذه الحرية أمم الغرب من المسلمين، ثم نكس هؤلاء المسلمون على رءوسهم فحرموها على أنفسهم إلا قليلاً منهم حتى عاد بعضهم يقلدون فيها من أخذوها عن أجدادهم، وقد اعترف علماء الغرب لعلماء سلفنا بسبقهم وإمامتهم لهم فيها وفى ثمراتها، ونقل شيخنا الأستاذ الإمام طائفة من أقوالهم فى كتاب الإسلام والنصرانية.

***

الإسلام دين العلم والحكمة والفقه:

ذكر اسم العلم معرفة ونكرة فى عشرات من آيات القرآن الحكين تناهز المئة، وذكرت مشتقاته أضعاف ذلك، وهو يطلق على علوم الدين والدنيا بأنواعها، فمن العلم المطلق قوله تعالى فى وصايا سورة الإسراء ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦] أى لا تتبع ما ليس لك به علم يثبت عندك بالرؤية البصرية، أو بالروايات السمعية، أو بالبراهين القطعية، فإن الله يسألك عما أعطاك من آلات هذا العلم الثلاث.

قال الراغب فى تفسير «لا تقف» أى لا تحكم بالقيافة والظن. وقال البيضاوى ما ملخصه: ولا تتبع ما لم يتعلق به علمك تقليداً أو رجماً بالغيب اهـ، ومنه قوله تعالى فى العلم المأثور فى التاريخ ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤] ومنه قوله تعالى فى علوم البشر المادية ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٦، ٧] إلخ وقوله فى العلم الروحى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

وهاتان الآيتان فى بيان ضعف علم البشر وقلته حتى الدنيوى منه لا يزال يعترف العلماء أيهم أوسع علمًا بمضمونهما، وبأن علمهم لا يتجاوز الظواهر، وقد صرح بعض فحول علماء الغرب بأنهم كلما ازدادوا علمًا علموا من حاجتهم إلى تحقيق ما سبق والزيادة عليه ما لم يكونوا يعلمون كما قال الإمام الشافعى:

كلما أدبنى الدهر ... أرانى نقص عقلى

و إذا ما ازددت علمًا ... زادنى علمًا بجهلى

وقوله تعالى فى العلم العقلى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨] الظاهر أن المراد بالعلم فيه العلم النظرى بدليل مقابلته بالهدى والكتاب المنير، وهو هدى الدين والوحى. وقوله فى العلم الطبيعى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] بكسر اللام أى علماء الكون ومثله قوله بعد ذكر إخراج الثمرات المختلف ألوانها من ماء المطر واختلاف ألوان الطرائق فى الجبال وألوان الناس والدواب ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ. . . الآية﴾ [فاطر: ٢٨]، فالمراد بالعلماء هنا الذين يعلمون أسرار الكون وأطواره وأسباب اختلاف أجناسه وأنواعه وألوانها وآيات الله وحكمه فيها، وهو يشمل أكثر العلوم والفنون أو جميعها، وفى معناها آيات فى سور أخرى.

الإسلام دين الحجة والبرهان:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤] وقال: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧] قيد الوعيد على الشرك بكونه لا برهان لصاحبه يحتج به، مع العلم بأنه لا يكون إلا كذلك تعظيمًا لشأن البرهان، وذلك أنه تعالى يبعث الأمم مع رسلهم وورثتهم الذين يشهدون عليكم ويطالبهم بحضرتهم بالبرهان على ما خالفوهم فيه كما قال: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [القصص: ٧٥].

وأقام البرهان العقلي على بطلان الشرك بقوله بعد ذكر السموات والأرض من سورة الأنبياء ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] ثم قفى عليه بمطالبة المشركين بالبرهان على ما اتخذوه من الآلهة من دونه مطالبة تعجيز فقال: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ.... الآية ﴾ [الأنبياء: ٢٤]. ومثله في سورة النمل ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٤].

وقال في سياق محاجة إبراهيم لقومه وإقامة البراهين العلمية لهم على بطلان شركهم ﴿ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٨١] ثم قال في آخره ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٨٣]؛ فالدرجات هنا درجات الحجة والبرهان العقلي في العلم؛ ولذلك قدم فيه ذكر الحكمة على العلم، وتقدم في الكلام على العلم آية رفع الدرجات فيه.

ومما جاء فيه البرهان بلفظ السلطان قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ

سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا... الآية ﴾ [غافر: ٣٥] وفى معناها من هذه السورة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ... الآية ﴾ [غافر: ٥٦]، وفى عدة سور أخرى أنه تعالى أرسل موسى إلى فرعون بآياته (وسلطان مبين).

***

الإسلام دين القلب والوجدان والضمير:

قال الفيومى فى المصباح: ضمير الإنسان قلبه وباطنه والجمع ضمائر. وقال والقلب من الفؤاد معروف -يعنى أنه ضميره ووجداته الباطن (قال) ويطلق على العقل اهـ وقد شرحنا معناه هذا وطرق استعماله فى تفسير آية الأعراف[1] وقد ذكر القلب فى القرآن الكريم فى مائة آية وبضع عشرة آية.

منها قوله تعالى فى سورة ق ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧] وقوله فى سورة الشعراء ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] ومنها مدحه لخليله إبراهيم (ص) بقوله ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٤] وقوله حكاية عنه ﴿ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وقوله فى صفة المؤمنين ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] وقوله فى صفات الذين اتبعوا عيسى عليه السلام ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾[2] إلخ.

ووصف قلوب المؤمنين بالخشوع والإخبات لله وتمحيصها من الشوائب، وقلوب الكفار والمنافقين بالرجس والمرض والقسوة والزيغ، وعبر عن فقدها للاستعداد للحق والخير بالطبع والختم والرين عليها، أي أنها كالمختوم المطبوع عليه فلا يدخله شيء جديد، أو كالمعدن أحاط به وغلب عليه الرين وهو الصدأ أو الدنس فلا تقبل الصقل والجلاء.

---

(١) راجع ص ٤١٩ من جزء التفسير التاسع.

(٢) الاطمئنان ما يعبر عنه براحة الضمير فى الاعتقاد الثابت بالأدلة النظرية بحيث يكون وجدانًا أو كالوجدان فى انشراح الصدر له وعدم احتمال غيره.

وإذا كان الإسلام دين العقل والبرهان، وحرية الضمير والوجدان، فقد أبطل ما كان عليه النصارى وغيرهم من الإكراه فى الدين والإجبار عليه، والفتنة والاضطهاد لمخالفيهم فيه، والآيات فى ذلك كثيرة بيناها فى محلها، ومن دلائلها ذم القرآن للتقليد وتضليل أهله.

منع التقليد والجمود على اتباع الآباء والجدود:

كل ما نزل من الآيات فى مدح العلم وفضله واليقين فيه واستقلال العقل والفكر وحرية الوجدان، والمطالبة بالبرهان، وذم اتباع الظن والحرص فيما يطلب فيه الإيمان والعلم - يدل على ذم التقليد، وقد ورد فى ذمه والنعى على أهله آيات كثيرة كقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤] ذمهم من ناحيتين (إحداهما) الجمود على ما كان عليه آباؤهم والاكتفاء به عن الترقى فى العلم والعمل، وليس هذا من شأن الإنسان الحى العاقل فإن الحياة تقتضى النمو والتوليد، والعقل يطلب المزيد والتجديد (والثانية) أنهم باتباعهم لآبائهم قد فقدوا مزية البشر فى التمييز بين الحق والباطل والخير والشر، والحسن والقبيح، بطريق العقل والعلم وطريق الاهتداء فى العمل ويؤيده قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨] وقال تعالى فى عبادة العرب للملائكة ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠-٢٣].

وتراجع الشواهد على هذا فى قصة إبراهيم مع قومه فى سورة الأنبياء والشعراء والصافات.

فالقرآن قد جاء يهدى جميع متبعى الملل والأديان السابقة إلى استعمال عقولهم مع ضمائرهم للوصول إلى العلم والهدى والاطمئنان فى الدين، وألا يكتفوا بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من ذلك، فإن هذا جناية على الفطرة البشرية والعقل والفكر والقلب الذى امتاز به البشر، وبهذا العلم والهدى امتاز الإسلام ودخل فيه العقلاء من جميع الأمم أفواجًا، ثم نكس المسلمون على رؤوسهم إلا قليلاً منهم، واتبعوا سنن من قبلهم من أهل الكتاب وغيرهم فى تقليد لآبائهم ومشايخهم المنسوبين إلى بعض أئمة علمائهم، الذين نهوهم عن التقليد ولم يأمروهم به.

وكان من أشد أنواع إفساد الدين بالتقليد المحصن الدعوة إلى اتباع الأئمة المعصومين الذين لا يسئلون عن الدليل، وبخاصة ملاحدة الباطنية منهم، فهم يردون نصوص الكتاب والسنة بأقوال أئمتهم، بل بأقوال كل من ينتمى إليهم من أدعياء العلم. . ومن ثمّ كان التقليد منبعًا للبدع والخرافات.

وإنما تروج البدع فى سوق التقليد الذى يتبع أهله كل ناعق، لا فى سوق الاستقلال والأخذ بالدلائل، ومن باب التقليد دخل أكثر الخرافات على المسلمين لانتساب جميع الدجالين من أهل الطرائق وغيرهم من أئمة المذاهب المجتهدين، وهم فى دعوى اتباعهم من الكاذبين، ونحن دعاة العلم الصحيح والاهتداء بالكتاب والسنَّة أحق منهم باتباع الأئمة، ولا نعنى بالاهتداء بالكتاب والسنة أن كل واحد منهم أمام مجتهد مطلق كمالك والشافعى رضى الله عنهما فهذه أعلى درجته العلم، والعلم درجات كما قال الله عز وجل. وقد كان يوجد فى السلف قبل تدوين المذاهب عوام وخواص كلهم يهتدون بهما.

وصاحب المنار قد وقف نفسه على الرد على جميع الملاحدة البهائية والقاديانية والقبوريين وسائر مبتدعة عصرنا وهو لم يدع مذهبًا له يدعو إليه، ولم يخالف إجماع الأمة، ولا فرق عنده بين الأئمة، ولله الحمد والمنة.

الحرية الشخصية فى الدين بمنع الإكراه والاضطهاد ورياسة السيطرة:

هذه المزية من مزايا الإسلام وهى نتيجة المزايا التى بينا بها كونه دين الفطرة؛ فأما منع الإكراه فيه وعليه فالأصل فيه قوله تعالى لرسول ﷺ بمكة ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ٩٩- ١٠١] علم الله تعالى رسوله ﷺ بهذه الآيات أن من سننه فى البشر أن تختلف عقولهم وأفكارهم فى فهم الدين وتتفاوت أنظارهم فى الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض، فما كان يتمناه ﷺ من إيمان جميع الناس مخالف لمقتضى مشيئته تعالى فى اختلاف استعداد الناس للإيمان، وهو منوط باستعمال عقولهم وأنظارهم فى آيات الله فى خلقه، والتمييز بين هداية الدين وضلالة الكفر[1].

ثم قوله تعالى له عندما أراد أصحابه أخذ من كان عند بنى النضير من أولادهم عند إجلائهم عن الحجاز وكان قد تهود بعضهم ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ.... الآية ﴾ [البقرة: ٢٥٦]- فأمرهم ﷺ أن يخيروهم فمن اختار اليهود أجلى مع اليهود ولا يكره على الإسلام، ومن اختار الإسلام بقى مع المسلمين كما بيناه فى تفسير الآية من جزء التفسير الثالث.

●●●

(١) راجع تفسير هذه الآيات من آخر سورة يونس فى آخر (ج ١١) من تفسير المنار.

المقصد الرابع من مقاصد القرآن

الإصلاح الإنسانى الاجتماعى السياسى الوطنى بالوحدات الثمان

وحدة الأمة -وحدة الجنس البشرى- وحدة الدين- وحدة التشريع بالمساواة فى العدل- وحدة الأخوة الروحية والمساواة فى التعبد- وحدة الجنسية السياسية الدولية- وحدة القضاء- وحدة اللغة.

جاء الإسلام والبشر أجناس متفرقون، يتعادون فى الأنساب والألوان، واللغات والأوطان والأديان، والمذاهب والمشارب، والشعوب والقبائل، والحكومات والسياسات، يقاتل كل فريق منهم مخالفة فى شيء من هذه الروابط البشرية وإن وافقه فى البعض الآخر، فصاح الإسلام بهم صيحة واحدة دعاهم إلى الوحدة الإنسانية العامة الجامعة وفرضها عليهم ونهاهم عن التفرق والتعادى وحرمه عليهم، وبيان هذا التفرق ومضاره بالشواهد التاريخية وبيان أصول الكتاب الإلهى وسنة خاتم النبيين ﷺ فى الجامعة الإنسانية. لا يمكن بسطهما إلا بمصنف كبير، فنكتفى فى هذا المقصد من إثبات الوحى المحمدى بسرد الأصول الجامعة فى هذا الإصلاح الإنسانى الداعى إلى جعل الناس على ملة واحدة، ودين واحد، وشرع واحد، وحكم واحد، ولسان واحد، كما أن جنسهم واحد، ونبدأ بالأصل الجامع فى هذا، ونقفى عليه بالأصول والشواهد المفصلة له.

الأصل الأول: وحدة الأمة:

قال الله تعالى فى سورة الأنبياء مخاطبًا أمة الإسلام بعد ذكر خلاصة من قصصهم ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[1] [الأنبياء: ٩٢].

ثم بين لهم فى سورة المؤمنون أنه خاطب جميع النبيين بهذه الوحدة للأمة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢].

---

(١) قرأ الجمهور (أمتكم) بالرفع على أنها خبر و(أمة) بالنصب على أنها حال لازمة. و (واحدة) صفة لأمة.

ولكن كان لكل نبى أمة من الناس هم قومه، وأما خاتم النبيين فأمته جميع الناس، وقد فرض الله عليهم الإيمان بجميع رسله وعدم التفرقة بينهم، فالإيمان بخاتمهم كالإيمان بأولهم وبمن بينهما، فمثلهم كمثل الملوك أو الولاة فى الدولة للواحدة، ومثل اختلاف شرائعهم بنسخ المتأخر منها لما قبله كمثل تعديل القوانين فى الدولة الواحدة أيضًا إلى أن كمل الدين كما تقدم (ص١٥١ - ١٥٢).

الأصل الثانى: الوحدة الإنسانية:

بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم، وشاهده العام قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وقد بلغ النبى ﷺ ذلك فى حجة الوداع، فتلا الآية وقال ما خلاصته: إنه ليس لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود فضل «ولا العكس» إلا بالتقوى. من حديث العداء بن خالد فى المعجم الكبير للطبرانى. وهذه الوحدة الإنسانية تتضمن الدعوة إلى التآلف بالتعارف، وإلى ترك التعادى بالتخالف[(١)].

الأصل الثالث: وحدة الدين:

باتباع رسول واحد ﷺ جاء بأصول الدين الفطرى الذى جاء به غيره من الرسل، وأكمل تشريعه بما يوافق جميع البشر، وشاهده الأعم قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] ولما كان الإسلام دين الفطرة وحرية الاعتقاد والوجدان جعل الدين اختياريًا بقوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

الأصل الرابع: وحدة التشريع:

بالمساواة بين الخاضعين لأحكام الإسلام فى الحقوق المدنية والتأديبية

---

(١) من شواهد القرآن فى الوعيد على التفرقة بين الناس باختلاف أنسابهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والملك والسوقة، والغنى والفقير، والقوى والضعيف، وسنذكر بعض شواهده فى إصلاح التشريع من المقصد السادس.

الأصل الخامس: الوحدة الدينية:

بالمساواة بين المؤمنين بهذا الدين فى أخوته الروحية وعباداته، وفى الاجتماع للاجتماع منها، كالصلاة ومناسك الحج[1]، فملوك المسلمون وأمراؤهم وكبار علمائهم يختلطون بالفقراء والعوام فى صفوف الصلاة والطواف بالكعبة المشرفة والوقوف بعرفات وسائر مواطن الحج، ولا تجد شعوب الإفرنج المنتسبين إلى النصرانية ولا رجال الدين من غيرهم يرضون بمثل هذه المساواة المعلومة من دين الإسلام بالضرورة للعمل بها من أول الإسلام إلى اليوم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] وقال فى أحكام المشركين المحاربين ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١].

الأصل السادس: وحدة الجنسية السياسية الدولية:

بأن تكون جميع البلاد الخاضعة للحكم الإسلامى متساوية فى الحقوق العامة، كحماية أهلها والدفاع عنهم إلا حق الإقامة فى جزيرة العرب ولا سيما الحجاز فإنه خاص بالمسلمين؛ لأن للحرمين وسياجهما من الجزيرة حكم المعابد والمساجد، وحكم الإسلام فى معابد الملل الداخلة فى ذمته أنها خاصة بأهلها ولها حرمتها، لا يجوز لغير أهلها دخولها بغير إذن منهم، المسلمون وغيرهم فى هذا سواء.

الأصل السابع: وحدة القضاء واستقلاله ومساواة الناس فيها أمام الشريعة العادلة:

إلا أنه يستثنى منه الأحكام الشخصية الدينية، فإن الإسلام يراعى فيها حرية العقيدة والوجدان بناءً على أساسه فى ذلك، فهو يسمع لغير المسلمين فى أمور الزوجية

---

(١) وكذا الصيام والمساواة فيه أظهر وإن كان هو تركًا للشهوات لا فعلاً يرى بالأبصار، ولكنه فعل نفسى يرى أثره ولا يخفى على أحد أمره.

ونحوها أن يتحاكموا إلى رؤساء ملتهم، وهذا ضرب من المساواة ليس له فى غير الإسلام ضريب؛ لأنه إشراك فى الحكم والتشريع، وأما إذا تحاكموا إلينا فإننا نحكم بينهم بعدل شريعتنا الناسخة لشرائعهم، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢] وقوله بعد آيات ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٩].

الأصل الثامن: وحدة اللغة، ووجهها:

أنه لا يمكن أن يتم الاتحاد والإخاء بين الناس وصيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة إلا بوحدة اللغة[1] وما زال الحكماء الباحثون فى مصالح البشرية العامة يتمنون لو يكون لهم لغة واحدة مشتركة، يتعاونون بها على التعارف والتآلف، ومناهج التعليم والآداب، والاشتراك فى العلوم والفنون والمعاملات الدنيوية، وهذه الأمنية قد حققها الإسلام بجعل لغة الدين والتشريع والحكم لغة جميع المؤمنين به والخاضعين لشريعته؛ إذ يكون المؤمنون مسوقين باعتقادهم ووجدانهم إلى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لفهمهما والتعبد بهما، والاتحاد بأخوتهم فيهما، وهما مناط سيادتهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة؛ ولذلك كرر فى القرآن بيان كونه كتابًا عربيًا، وحكمًا عربيًا، وكرر الأمر بتدبره والتفقه فيه، والاتعاظ والتأديب به، وأما غير المؤمنين فيتعلمون لغة الشرع الذى يخضعون لحكمه، والحكومة التى يتبعونها لمصالحهم الدنيوية كما هى عادة البشر فى ذلك، وكذلك كان الأمر فى الفتوحات الإسلامية العربية كلها.

وقد فصّلتُ فى المنار والتفسير مسألة وجوب تعلم اللغة العربية فى دين الإسلام وكونه مجمعًا عليه بين المسلمين كما قرره الإمام الشافعى (رضى الله عنه) فى رسالته،

(١) المراد أنه لا يمكن هذا مع حرية الدين التى قررها الإسلام إلا باللغة.

وهو الذى جرى عليه العمل فى عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، ثم خلفاء الأمويين والعباسيين، إلى أن كثر الأعاجم، وقل العلم، وغلب الجهل، فصاروا يكتفون من لغة الدين بما فرضه الله فى العبادات من القرآن والأذكار[1].

الشواهد من السنة على وحدة الجنس واللغة:

كان النبى ﷺ ينكر على المسلمين كل نوع من أنواع التفرق الذى ينافى وحدتهم وجعلهم أمة واحدة كالجسد الواحد كما شبههم بقوله «**مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» رواه الإمام أحمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير (رضى الله عنه) وكان يخص بمقته وإنكاره التفرق فى الجنس النسبى أو اللغة. أما الأول فمشهور ومنه أن أبا ذر (رضى الله عنه) وهو من السابقين الأولين المتقين تغاضب مع بلال الحبشى مولى أبى بكر (رضى الله عنه) وتسابا فقال له أبو ذر: يا ابن السوداء، فشكاه بلال إلى النبى ﷺ فقال لأبى ذر «**أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية**» رواه البخارى فى مواضع ومسلم بدون ذكر اسم بلال، ولفظ البخارى فى كتاب الأدب عن أبى ذر: كان بينى وبين رجل كلام وكانت أمه أعجمية فنلت منها فذكرنى إلى النبى ﷺ فقال لى «**أسابيت فلانًا؟**» قلت نعم. قال «**أفنلت من أمه؟**» قلت نعم، قال «**إنك امرؤ فيك جاهلية**» قلت: على ساعتى هذه من كبر السن؟ قال «**نعم هم إخوانكم**»إلخ الحديث وسيأتى فى الوصية بالرقيق، وروى أن أبا ذر تاب توبة نصوحًا حتى أمر بلالاً أن يطأ على وجهه.

وأما الثانى فيجمعه مع الأول ما رواه الحافظ بن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال: جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا؟ (يعنى- هذا المنافق - بالرجل النبي ﷺ وأن الأوس والخزرج من قومه العرب ينصرونه لأنهم من قومه، فما الذي يدعو الفارسى والرومى والحبشى إلى نصره؟) فقام إليه معاذ بن جبل (رضى الله عنه) فأخذ بتلبيبته[2] ثم أتى النبى ﷺ

---

(١) راجع ذلك فى ص ٣١٠ من جزء التفسير التاسع.

(٢) اللبب بفتحتين موضع النحر، وتلبيبه ما على لبيه ونحره من الثياب أى قبض عليها وجذبه بها.

فأخبره بمقالته فقام النبى ﷺ مغضبًا يجر رداءه حتى أتى المسجد ثم نودى: إن الصلاة جامعة[1] وقال ﷺ: «**يا أيها الناس إن الرب واحد، والأب واحد، وإن الدين واحد وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هى اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربى**». فقام معاذ فقال: فما تأمرنى بهذا المنافق يا رسول الله؟ قال ﷺ: «**دعه إلى النار**» فكان قيس ممن ارتد فى الردة فقتل.

أرأيت لو ظل المسلمون على هذه التربية المحمدية أكان وقع بينهم من الشقاق والحروب باختلاف الجنس واللغة كل ما وقع وأدى بهم إلى هذا الضعف العام؟ أرأيت لو حافظوا على هذه الأخوة الإسلامية أكانت حدثت فيهم تلك الشعوبية المجوسية الأولى، وهذه العصبية التركية الأخرى؟ كلا إنهم لو حافظوا عليها لعمموا أخوتها، ولأصلحوا بها شعوب الأرض كلها.

يعترض بعض أولى النظر القصير والبصر الكليل على توحيد اللغة فى الشعوب المختلفة بأنه خلاف طبيعة البشر، ويرد عليهم بأن توحيد الدين أبعد من توحيد الله عن طبيعة البشر إن أريد بالبشر جميع أفرادهم، أن الحكماء ما زالوا يسعون لجمع البشر على لغة واحدة مشتركة، مع علمهم أن ترقى بعض اللغات بترقى أهلها فى العلوم والفنون والسياسة والقوة والعصبية يستحيل معه أن يرغبوا عنها إلى غيرها، ولم يسع أحد منهم لجمعهم على دين واحد وأن القرآن الذى شرع توحيد الدين مع شرعه ولغته لجميع البشر، قد علمنا أن حكمة الله تعالى فى خلق الإنسان تأبى أن يكون الناس كلهم أمة واحدة تدين بدين واحد ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] وإنما دعاهم إلى هذه الرحمة ليقل الشقاء الذى يثيره الخلاف فيهم: هذا الخلاف الذى جعل أعظم شعوب الأرض وأرقاهم فى العمران يبذلون فى هذا العهد أكثر ما تستغله شعوبهم من ثروة العالم فى سبيل الحروب التى تنذر عمرانهم الخراب والدمار.

فإذا كان مقتضى طبع البشر أن لا يتفقوا كلهم على شىء واحد من لغة ولا دين ولا

(١) هذه الجملة يدعى بها إلى صلاة العيدين وكل اجتماع عام فى المسجد بلفظ «الصلاة جامعة» ولفظ الصلاة فيها منصوب بتقدير احضروا الصلاة أو الزموها.

غيرهما من الأمور التى تختلف فيها الآراء؛ فهذا لا يمنع دعوتهم كلهم إلى الحق والخير، ولا بد أن يستجيب خيارهم على قاعدة غلب الحق على الباطل.

وقد استشكل هذا بعض العلماء من حيث المخاطب بتنفيذه، فقلت لهم: إن المخاطب بتعميم لغة الإسلام، هم أولو الأمر المخاطبون بتعميم دعوة الإسلام، وإقامة شرع الإسلام، وقد جرى على ذلك الصحابة والخلفاء من بعدهم كما تقدم.

دعا الإسلام البشر كلهم إلى دين واحد يتضمن توحيد اللغة وغيرها من مقومات الأمم فكانوا يدخلون فيه أفواجًا، حتى امتد فى قرن واحد ما بين المحيط الغربى إلى أقصى الهند أو الصين، ولولا ما طرأ عليه من الابتداع، وعلى حكوماته من الظلم والاستبداد، وعلى شعوبه من الجهل والفساد، والتفرق بالاختلاف، لدخل فيه أكثر البشر، ولصارت لغته لغة لكل من دخل فى حظيرته من الأمم فمن غرائزهم اختيار الأفضل إذا عرفوه، بل علمنا القرآن أن هذا سنة عامة، فى الاجتماع البشرى بل فى كل تنازع بين الحق والباطل، والنافع والضار، والصالح والفاسد، إنما يكون الغلب للأفضل والثبات والبقاء للأمثل، فراجع الآيات فى دمغ الحق للباطل، ثم اعتبر فيه بهذا المثل الماثل ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

قال أحد كبار علماء الألمان فى الآستانة لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة: إنه ينبغى لنا أن نقيم تمثالاً من الذهب لمعاوية بن أبى سفيان فى ميدان كذا من عاصمتنا (برلين) قيل له لماذا؟ قال لأنه هو الذى حول نظام الحكم الإسلامى عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب، ولولا ذلك لعم الإسلام العالم كله، وإذن لكنا نحن الألمان وسائر شعوب أوربة عربًا مسلمين.

قد أعجبت هذا الألمانى عصبيته القومية، وخيلاؤه الأوربية، التى عتلت قومه وجيرانهم إلى جحيم الحرب الأخيرة عتلا[1] فأخسرت أوربة عشرين مليونًا من الرجال، وألوف الملايين من الأموال، وباء فيها قومه بالخزى والنكال، وسيطرة الاستذلال، وإنما كان كره أن يكونوا قد اهتدوا بالإسلام، بما صرفت بصره عصبيته الألمانية، عن رؤية المصلحة الإنسانية الجامعة، ولو نظر فيها فأبصرها لعلم أن الأفضل والأمثل والأكمل للبشر توحيد شعوبهم بحيث يتفاضلون بعلوم أفرادهم وأعمالهم، لا بأنسابهم وأوطانهم ولغاتهم المفرقة بينهم، وهو قد علم من قبل إن هذه الجامعة الإنسانية لا سبيل إليها إلا بهداية الإسلام فلا تنال إلا به، ولو اهتدت به أوربة اليوم لزالت أضغانها، ووجهت علومها وفنونها إلى إسعاد البشر وعمارة الأرض كلها، فإن إصرار الإفرنج على الكبرياء بجلدتهم البيضاء واحتقارهم للسود والحمر والسمر والصفر وهضمهم لحقوقهم، واستباحتهم لظلمهم، لمن أكبر العار على حضارتهم، وإن استثناءهم للأصفر اليابانى أخيرًا من هذا الاحتقار، لما يلطخهم بعار فوق عار، وإن حضارة الإسلام الإنسانية الجامعة لتعلو عليها ألوفًا من الأميال لا الأمتار.

فهل يعقل أن يكون تقرير هذه الأصول التى توحد الأمم والشعوب وتؤلف بينها بما يجمع كلمتهم عليها بالوازع النفسى لا بالقهر العسكرى من رأى أو إلهام نبع من نفس محمد الأمى فى سن الكهولة ففاق بها جميع الأنبياء والحكماء؟ أم الأقرب إلى العقل أن تكون بوحى من الله تعالى أفاضه عليه ﷺ؟[2].

●●●

---

(١) عتله إلى الشىء أو المكان جره بقهر ودفعه إليه بعنف.

(٢) قولنا إن هذا أقرب إلى العقل مفهومه أن مقابله وهو أنه من رأى محمد صلى الله عليه وسلم ممكن أيضًا وإن فاق به جميع الأنبياء والحكماء وهو من باب التساهل وإرخاء العنان ولا يمكن أن يقال مثله فى كل مقصد من هذه المقاصد العشرة فما بالك بها كلها، هل يعقل أن تكون آراء حدثت لأمى فى سن الكهولة فقررها ونفذها؟ كلا.

المقصد الخامس من مقاصد القرآن

وتقرير مزايا الإسلام العامة فى التكاليف الشخصية من الواجبات والمحظورات

ونلخص أهمها بالإجمال فى عشر جمل أو قواعد:

الأولى:

كونه وسطا جامعًا لحقوق الروح والجسد، ومصالح الدنيا والآخرة، وهو نص قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقد تقدم ذكره وبيان معنى الشهادة على الناس فيها قريبًا «ص١٥٣» وبينا فى تفسيرها فى أول الجزء الثانى من تفسير المنار أن المسلمين وسط بين الذين تغلب عليهم الحظوظ الجسدية والمنافع المادية كاليهود، والذين تغلب عليهم التعاليم الروحية وتعذيب الجسد وإذلال النفس والزهد، كالهندوس والنصارى، وإن خالف هذه التعاليم أكثرهم.

الثانية:

كونه غايته الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة بتزكية النفس بالإيمان الصحيح ومعرفة الله والعمل الصالح ومكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، لا بمجرد الاعتقاد والاتكال ولا بالشفاعات وخوارق العادات، وتقدم بيانه أيضًا.

الثالثة:

كون الغرض منه التعارف والتأليف بين البشر لا زيادة التفريق والاختلاف كما يزعم أعداء الأديان، وتقدمت شواهده فى كونه عامًا مكملاً ومتممًا لدين الله على ألسنة رسله فى الكلام على آية القرآن وعموم بعثة محمد ﷺ وفى الكلام على الرسل من المقصد الثانى (ص ١٥٢) وإنما تفصيل أصوله فى تلك الوحدات الثمان التى بيناها آنفًا فى المقصد الرابع.

الرابعة:

كونه يسرًا لا حرج فيه ولا عسر ولا إرهاق ولا إعنات، قال الله عز وجل ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا

إلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال بلغت حكمته ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٠] وقال عظمت رأفته ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال جلت منته ﴿ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨] وقال عمت رحمته ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ [المائدة: ٧].

ومن فروع هذا الأصل أن الواجب الذى يشق على المكلف أداؤه ويحرجه يسقط عنه إلى بدل أو مطلقًا كالمريض الذى يرجى برؤه والذى لا يرجى برؤه ومثله الشيخ الهرم - الأول يسقط عنه الصيام ويقضيه كالمسافر، والثانى لا يقضى بل يكفر عن فطره بإطعام مسكين فدية عن كل يوم إذا قدر. وأما المحرم فيباح للضرورة بنص القرآن، وإن كان تحريمه أو النهى عنه لسد ذريعة الفساد فيباح للحاجة كما بيناه فى تفسير آيات الربا وآيات الصيام، وآية محرمات الطعام[1].

الخامسة:

منع الغلو فى الدين وإبطال جعله تعذيبًا للنفس بإباحة الطيبات والزينة بدون إسراف ولا كبرياء، وقد فصلنا ذلك فى تفسير الآيات الواردة فى الأمر بالأكل من الطيبات فى سورة البقرة وسورة المائدة وفى تفسير ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝٣١ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٣] وقال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ وهو فى (١٥ : ١٧) و (٦ : ١٧) وفى هذا النهى اعتبار للمسلمين لأنهم أولى بالانتهاء عن الغلو بأن دينهم دين الرحمة واليسر. والأحاديث الصحيحة فى نهى المسلمين عن الغلو فى العبادة وعن ترك الطيبات، وعن الرهبانية والخصاء، مبينة لهذه الآيات، وهى مصداق تسمية النبى ﷺ لملته بالحنيفية السمحة.

---

(١) قد بينا يسر الإسلام وسهولته فى مواضع من المنار وتفسيره. أوسعها فى تفسير «٥ : ١٠٤» وقد جمع فى رسالة مستقلة.

السادسة:

قلة تكاليفه وسهولة فهمها، وقد كان الأعرابى يجيء النبى ﷺ من البادية فيسلم فيعلمه ما أوجب الله وما حرم عليه فى مجلس واحد فيعاهده على العمل به ﷺ فيقول «أفلح الأعرابى إن صدق» وكان هذا أعظم أسباب قبول الناس له. ولكن الفقهاء أكثروا التكاليف بآرائهم الاجتهادية حتى صار العلم بها متعسراً، والعمل بها كلها متعذراً، ولا يعترض على هذه المزية بالصلوات الخمس فى كل يوم وليلة؛ فإن أقل ما تجزئ به كل صلاة منها يمكن أن يؤدى فى خمس دقائق، ومنها صلاة وقتها عقب القيام من النوم فى الصباح وصلاة قبل النوم فى الليل، فهل يشق على المرء أن يؤدى فى سائر يومه ثلاث صلوات متفرقة فى ربع ساعة منه؟

فإن قيل: إنه يشترط فيها الطهارة. قلنا: إن طهارة البدن والثياب مطلوبة شرعًا وطبًا فى وقت، فهى تكون قبل الصلاة فلا تضيع على المسلم وقتًا ولا عملاً فى أثناء النهار إلا نادراً، وكذلك الغسل الواجب قلما يجب إلا فى الليل أو الصباح، وأما الوضوء فلا يشق منه فى أثناء العمل إلا غسل الرجلين على الذين يلبسون الجوارب والأحذية العصرية، ومن لبسها على طهارة يجوز له المسح عليها بدلاً من الغسل، وأما فوائد هذه الصلاة وهذه الطهارة فى النفس والبدن، فهى لا تقدر بثمن، فالصلاة تطهير للنفس وتزكية لها بمناجاة المؤمن لربه فتصده عن الفحشاء والمنكر[1].

السابعة:

انقسام التكليف إلى عزائم ورخص، وكان ابن عباس يرجح جانب الرخص وابن عمر يرجح العزائم والناس درجات فى التقصير والتشمير والاعتدال فهو يوافق البدوى الساذج والفيلسوف الحكيم وما بينهما من الطبقات قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢].

---

(١) أى كما يطهر الوضوء والغسل البدن وبهما تكمل تربية الإنسان. وسنبين ذلك بالتفصيل فى الجزء الثانى.

الثامنة:

نصوص الكتاب وهدى السنة مراعى فيهما درجات تفاوت البشر فى العقل والفهم وعلو الهمة وضعفها، فالقطعى منها هو العام، وغير القطعى تتفاوت فيه الأفهام، فيأخذ كل أحد منه بما أداه إليه اجتهاده؛ ولذلك كان النبى ﷺ يقر كل أحد من أصحابه فيه على اجتهاده كما فعل عندما نزلت آية البقرة فى الخمر والميسر الدالة على تحريمهما دلالة ظنية فتركهما بعضهم دون بعض، وأقر كلا على اجتهاده إلى أن نزلت آيتا المائدة بالتحريم القطعى. قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وبيان ذلك أن الفرائض الدينية العامة فيه والمحرمات الدينية العامة لا يثبتان إلا بنص قطعى يفهمه كل أحد، والأول مذهب الحنفية. وأما الثانى وهو التحريم فهو مذهب جمهور السلف أيضًا، وأما الآيات الظنية الدلالة وأحاديث الآحاد الظنية الرواية أو الدلالة، فهى موكولة إلى اجتهاد من ثبتت عنده فى العبادات والأعمال الشخصية، وإلى اجتهاد أولى الأمر فى الأحكام القضائية والأمور السياسية، وقد بينا هذا فى مواضع من التفسير والمنار.

التاسعة:

معاملة الناس بظواهرهم وجعل البواطن موكولة إلى الله تعالى، فليس لأحد من الحكام ولا الرؤساء الرسميين ولا لخليفة المسلمين أن يعاقب أحدًا ولا أن يحاسبه على ما يعتقد أو يضمر فى قلبه، وإنما العقوبات على المخالفات العملية للأحكام العامة المتعلقة بحقوق الناس ومصالحهم. وقد فصلنا هذا فى أحكام المنافقين من خلاصة تفسير سورة براءة (التوبة).

العاشرة:

مدار العبادات كلها على اتباع ما جاء به النبى ﷺ فى الظاهر فليس لأحد فيها رأى شخصى ولا رياسة، ومدارها فى الباطن على الإخلاص لله تعالى وصحة النية، والآيات والأحاديث فى الأمرين كثيرة.

كل واحدة من هذه العشر: جديرة بأن تجعل مقصداً خاصًا من مقاصد الوحى، ويستدل بها على أنه من عند الله عز وجل، لا من الآراء والإلهامات النفسية لمحمد ﷺ الأمى فى عهد الكهولة، وقد جاءت مصلحة لما أفسده رؤساء الأديان كلها من السيطرة على عقائد الناس وأعمالهم، والتحكم فى وجدانهم، وهو لم يكن يعلم من تفصيل هذه المفاسد شيئًا، وإنما غرضنا الاختصاص؛ لأن أهل هذا العصر مترفون كثيرو الشواغل فيملون التطويل.

●●●

المقصد السادس من مقاصد القرآن

بيان حكم الإسلام السياسى الدولى: نوعه وأساسه وأصوله العامة

«الإسلام» دين هداية وسيادة وسياسة وحكم؛ لأن ما جاء به من إصلاح البشر فى جميع شئونهم الدينية، ومصالحهم الاجتماعية والقضائية، يتوقف على السيادة والقول والحكم بالعدل وإقامة الحق، والاستعداد لحماية الدين والدولة، وفيه أصول وقواعد.

القاعدة الأساسية الأولى للحكم الإسلامى:

الحكم فى الإسلام للأمة، وشكله شورى، ورئيسه الإمام أو (الخليفة) منفذ لشرعه والأمة هى التى تملك نصبه وعزله، قال الله تعالى فى صفات المؤمنين ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨] وقال لرسوله ﷺ ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وكان ﷺ يشاور أصحابه فى المصالح العامة من سياسية وحربية ومالية مما لا نص فيه فى كتاب الله تعالى، وقد بينت فى تفسيرها حكمة ترك الشورى لاجتهاد الأمة؛ لأنها مصلحة تختلف باختلاف الأحوال والأزمنة، ولو قيدت بنظام لجعل تعبديًا[1].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء: ٥٩] وأولو الأمر أهل الحل والعقد والرأى الحصيف فى مصالحها الذين تثق بهم الأمة وتتبعهم فيما يقررونه بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية من السورة نفسها ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] فأولو الأمر الذين كانوا مع الرسول ﷺ وكان الأمر يرد إليه وإليهم فى الشئون العامة للأمة من الأمن والخوف وغيرهما: هم الذين كان ﷺ يستشيرهم فى الأمور الدقيقة والسرية المهمة.

---

(١) راجع ص ٩٩ ج٤ تفسير.

وكان يستشير جمهور المسلمين فيما لهم به علاقة عامة ويعمل برأى الأكثر وإن خالف رأيه، كاستشارتهم فى غزوة أحد الأمرين: الحصار فى المدينة أو الخروج إلى أحد للقاء المشركين فيه. وكان رأيه ورأى بعض كبار الأمة الأول، ورأى الجمهور الثانى، فنفذ رأى الأكثر، ولكنه استشار فى مسألة أسرى بدر خواص أولى الأمر، وعمل برأى أبى بكر كما فصلناه فى تفسير سورة الأنفال، ولم تكن آية الأمر له بالمشاورة قد نزلت فهى إنما نزلت فى غزوة أحد (وكانت غزوة بدر فى السنة الثانية للهجرة وغزوة أحد فى الرابعة).

وقد بينت فى تفسير الآية الأولى [٥ : ٥٨] ما تدل عليه من قواعد الحكم الإسلامى وكونه أفضل من الحكم النيابى الذى عليه دول هذا العصر(١).

ومن الدلائل الكثيرة على أن التشريع القضائى والسياسى هو حق الأمة المعبر عنها فى الحديث بالجماعة: أن القرآن يخاطب بها جماعة المؤمنين فى هاتين الآيتين الخاصتين بالحكم العام والدولة وفى سائر الأحكام العامة كقوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١] وما يليها من الآيات المتعلقة بالمعاهدات والحرب والصلح، وما فى معناها من سورة الأنفال والبقرة وآل عمران ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وكذلك خطابه لهم فى أحكام الأموال كالغنائم وتخميسها وقسمتها، وأحكام النساء وغيرها «وقد بينا هذا كله فى مواضعه من التفسير».

وقد صرح كبار النظار من علماء الأصول بأن السلطة فى الإسلام للأمة يتولاها أهل الحل والعقد الذين ينصبون عليها الخلفاء والأئمة ويعزلونهم إذا اقتضت المصلحة عزلهم، قال الإمام الرازى فى تعريف الخلافة: هى رياسة عامة فى الدين والدنيا

(١) راجع (ص) ١٨٠- ٢٢٢ ج ٥ تفسير وكتاب الخلافة.

لشخص واحد من الأشخاص . وقال فى القيد الأخير (الذى زاده على من قبله) هو احتراز عن كل الأمة إذا عزلوا الإمام لفسقه . وقال العلامة السعد التفتازانى فى شرح المقاصد عند ذكر هذا التعريف وما علل به القيد الأخير : وكأنه أراد بكل الأمة أهل الحل والعقد واعتبر رياستهم على من عداهم أو على كل من آحاد الأمة اهـ وقد فصلنا مسألة سلطة الأمة فى كتابنا «**الخلافة أو الإمامة العظمى**» .

فهذه القاعدة الأساسية لدولة الإسلام أعظم إصلاح سياسى للنشر قررها القرآن فى عصر كانت فيه جميع الأمم مرهقة بحكومات استبدادية استعبدتها فى أمور دينها ودنياها ، وكان أول منفذ لها رسول الله ﷺ فلم يكن يقطع أمرًا من أمور السياسة والإدارة العامة للأمة إلا باستشارة أهل الرأى والمكانة فى الأمة ؛ ليكون قدوة لمن بعده .

ثم جرى على ذلك الخلفاء الراشدون . فقال الخليفة الأول أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) فى أول خطبة خطبها على منبر رسول الله ﷺ عقب مبايعته : أما بعد فقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإذا استقمت فأعينونى ، وإذا زغت فقومونى وقال الخليفة الثانى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) من رأى منكم فىَّ عوجًا فليقومه فقال له أعرابى لو رأينا فيك عوجًا لقومناه بسيوفنا ، فقال الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه ، وكان يجمع أهل العلم والرأى من الصحابة ويستشيرهم فى كل مسألة ليس فيها نص من كتاب الله ولا سنة أو قضاء من رسوله ﷺ وقال الثالث عثمان (رضى الله عنه) أمرى لأمركم تبع . وكذلك كان عمل الخليفة الرابع على المرتضى رضى الله عنه وكرم وجهه ولا أذكر له كلمة مختصرة مثل هذه الكلمات على المنبر .

وإذا أوجب الله المشاورة على رسوله ﷺ فغيره أولى ، ولا يصح أن يكون حكم الإسلام أدنى من حكم ملكة سبأ العربية ، فقد كانت مقيدة بالشورى ، ووجد ذلك فى أمم أخرى وامتاز الإسلام بجعله دينًا ثابتًا بقول الله وسنة رسوله ﷺ العملية وسيرة الخلفاء الراشدين وإجماع الأمة ، وإن جهل ذلك من جهله من الفقهاء ، فجعلوها فضيلة مندوبة لا واجبة لإرضاء الملوك والأمراء .

ذلك بأن ملوك المسلمين زاغوا بعد ذلك عن الصراط المستقيم إلا قليلاً منهم وشايعهم علماء الرسوم المنافقون، وخطباء الفتنة الجاهلون، حتى صار المسلمون يجهلون هذه القاعدة الأساسية لحكومة دينهم، وكان من حسن حظ الإفرنج فى حربهم الصليبية أن كان سلطان المسلمين الذى نصره الله عليهم يقتفى فى حكمه أثر الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز بقدر علمه - وهو صلاح الدين الأيوبى (رح) الذى قال لأحد رجاله المتميزين عنده وقد استجداه على رجل غشه «ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم، والحق الشرعى مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه ممتثلة، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته، فالحق يقضى لك أو عليك» ومعنى عبارة السلطان أنه ليس إلا منفذاً لحكم الشرع - كالشحنة وهو صاحب الشرطة- وأن القضاة مستقلون بالحكم لأنهم يحكمون بالشرع العادل المساوى بين الناس. وقد اقتبس الصليبيون منه طريقة حكمه، ثم درسوا تاريخ الإسلام فعرفوا منه ما جهله أكثر المسلمين المتأخرين حتى أسسوا حكم دولهم على قاعدة سلطة الأمة التى جاء بها الإسلام، وصاروا يدعونها لأنفسهم، ويعيبون الحكومات الإسلامية باستبدادها، ثم يجعل الإسلام نفسه سبب هذا الاستبداد والحكم الشخصى، وصار المسلمون الجاهلون بدينهم وبتاريخهم يصدقونهم، ويرى المشتغلون بالسياسة وعلم الحقوق منهم أنه لا صلاح لحكوماتهم إلا بتقليدهم، فكان هذا من أسباب ضياع أعظم مزايا الإسلام السياسية التشريعية وذهاب أكثر ملكه، وصدق عليهم أنهم يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى أعدائهم، وهم يعدون مئات الملايين، فتدبر قوله تعالى فى أعدائهم الأولين ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

أصول التشريع فى الإسلام

المعروف عند جمهور أهل السنة أن أصول التشريع الأساسية أربعة:

١- القرآن المجيد، والمشهور عند علماء الأصول: أن آيات الأحكام العملية فيه، من دينية وقضائية وسياسية لا تبلغ عشر آياته وعدها بعضهم خمسمائة آية للعبادات والمعاملات، والظاهر أنهم يعنون الصريح منها، وأكثرها فى الأمور الدينية؛ لأن أكثر أمور الدنيا موكول إلى عرف الناس واجتهادهم.

٢- ما سنه رسول الله ﷺ للعمل والقضاء به من بيان وتنفيذ لكتاب الله تعالى وقالوا أيضًا إن أحاديث الأحكام الأصول خمسمائة حديث تمدها أربعة آلاف فيما أذكر.

٣- إجماع الأمة: واتفق أهل السنة على الاحتجاج بإجماع الصحابة فى الدينيات والشيعة على إجماع أهل البيت فى عرفهم، وفى إجماع المجتهدين من غيرهما تفصيل.

٤- اجتهاد الأئمة والأمراء والقضاة والقواد فى الأمور القضائية والسياسية والإدارية والحربية، فخصه بعض الفقهاء بالقياس. وأنكر بعضهم القياس وقيده آخرون كما فصلنا ذلك فى مواضع، أبسطها ما فى تفسير آية (٥ : ١٠١).

وورد فى هذا الترتيب أحاديث وآثار تدل على العمل به فى عهد النبى ﷺ والخلفاء الراشدين (منها) حديث معاذ أن النبى ﷺ لما أرسله إلى اليمن قال له: «**كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟**» قال أقضى بما فى كتاب الله، قال «**فإن لم يكن فى كتاب الله؟**» قال فبسنة رسول الله ﷺ قال: «**فإن لم يكن فى سنة رسول الله؟**» قال أجتهد رأيى لا آلو. قال معاذ: فضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال: **الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضى رسول الله ﷺ**» رواه أبو داود والترمذى من طريق الحارث بن عمرو، وفيه مقال وله شواهد، وأما العمل بهذا الترتيب فهو معروف عن الخلفاء الراشدين وقد بيناه فى محله وبه أمر عمر (رضى الله عنه) قاضيه شريح فى كتابه المشهور فى القضاء ولكن الفقهاء يقدمون الإجماع حتى العرفى عند علماء الأصول -وهو مختلف فيه- على النص المختلف فى حكمه.

والأصل فى شرعية اجتهاد الرأى للحكام حديث «**إذا حكم الحاكم فاجتهد بما أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد**» رواه الجماعة كلهم عن أبى هريرة إلا الترمذى فعن عمرو بن العاص.

بل كان النبى ﷺ يعطى أمراء الجيوش والسرايا حق الحكم بما يرون فيه المصلحة بقوله للواحد منهم «**وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدرى أتصيب فيهم**

حكم الله أم لا» رواه أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه من حديث بريدة. وقال مثل ذلك فى إنزالهم على ذمة الأمير دون ذمة الله ورسوله ﷺ لئلا يخفرها، وهذا من أوسع النصوص الصحيحة فى تفويض الأحكام السياسية والعسكرية إلى الخلفاء والأمراء وقواد الجيوش؛ لأنها من المصالح العامة التى تختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال، وهو مذهب الإمام مالك (رح).

قواعد الاجتهاد من النصوص:

أحكام الكتاب والسنة: منها أحكام خاصة بالأعمال والوقائع ومنها قواعد عامة للتشريع، والأحكام الخاصة، منها: ما هو قطعى الرواية والدلالة لا مجال للاجتهاد فيه ولا معدل عن الحكم به إلا لمانع شرعى، من فوات شرط، كدرء حد بشبهة أو عذر ضرورة وقد أمر عمر (رضى الله عنه) فى المجاعة ألا يحد سارق. ومنها ما هو غير قطعى يعمل فيه باجتهاد من يناط به الحكم والتنفيذ من أمير أو قاض أو قائد جيش، كما تقدم قريبًا فى العبادات والمحرمات.

وأما القواعد العامة فهى ما تجب مراعاته فى الأحكام المختلفة، وأهمها فى الإسلام تحرى الحق والعدل المطلق العام، والمساواة فى الحقوق والشهادات والأحكام، وحفظ المصالح ودرء المفاسد، ومراعاة العرف بشرطه، ودرء الحدود بالشبهات وكون الضرورات تبيح المحظورات، وتقدير الضرورة بقدرها، ودوران المعاملات على اكتساب الفضائل، واجتناب الرذائل، وحسبك بالشواهد من القرآن على قاعدة إيجاب العدل المطلق والشهادة وتحريم الظلم.

العدل والمساواة فى الإسلام

نصوص القرآن فى إيجاب العدل المطلق والمساواة فيه وحظر الظلم

لما كان العدل أساس الأحكام وميزان التشريع وقسطاسه المستقيم، أكد الله تعالى الأمر به والمساواة فيه بين الناس فى السور المكية والمدنية. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا[1] وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥].

أمر تعالى المؤمنين بالمبالغة فى القيام بالقسط وهو العدل فإن القوّام (بتشديد الواو) صيغة مبالغة للفاعل بالقيام بالأمر وعدم التهاون والتقصير فيه، وبأن تكون شهادتهم فى المحاكمات وغيرها لله عز وجل لا لهوى ولا مصلحة أحد، ولو كانت على أنفسهم أو والديهم والأقربين منهم، وأن لا يحابوا فيها غنيًا لغناه تقربًا إليه أو تكريمًا له، ولا فقيراً لفقره رحمة به وشفقة عليه، ونهاهم عن اتباع الهوى فى الحكم أو الشهادة لأجل كراهة العدل فيهما لمراعاة من ذكر من الناس، وأنذرهم عقابه إن لووا، أى مالوا عن الحق أو أعرضوا عنه.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨] فهذه الآية متممة لما قبلها، فهناك يأمر بالمساواة فى العدل والشهادة بين النفس وغيرها، بين القريب والبعيد، وبين الغنى والفقير، وههنا يأمر بالمساواة فيهما بين الإنسان وأعدائه مهما يكن سبب عداوتهم، لا فرق فيها بين دينى ودنيوى، فالشنآن البغض والعداوة وقيل مع الاحتقار، فمعنى قوله (ولا يجر منكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا) لا يحملنكم بغضهم وعداوتهم لكم أو بغضكم وعداوتكم لهم على ترك العدل فيهم، فالعدل بالمساواة أقرب إلى تقوى الله. وأنذر تارك العدل لأجل الشنآن بمثل ما أنذر به تاركه للمحاباة، أنذر كلا منهما بأن الله خبير بما يعمله لا يخفى عليه منه شىء، فهو يحاسبه على عمله وعلى نيته وقصده منه، فيثيبه أو يعاقبه على ما يعلم من أمره.

---

(١) «أن تعدلوا» بفتح أن لتقدير لام التعليل وهو قياسى، والتقدير فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعدلوا -أو لئلا تعدلوا، اختلف النحاة فى تقدير الإعراب واتفقوا على أن المراد ألا يكون الهوى سببًا لترك العدل. ويؤكده الآية الثانية.

فالعدل هو الميزان فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧] وقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ... الآية﴾ [الحديد: ٢٥]؛ فخير الناس من يصدهم عن الظلم والعدوان هداية الكتاب وهو القرآن، ويليهم من يصدهم العدل الذى يقيمه السلطان، وشرهم من لا علاج له إلا حديد السيف والسنان، والمراد به العقاب.

فقوام صلاح العالم بالإيمان بالكتاب الذى يحرّم الظلم وسائر المفاسد، فيجتنبها المؤمن خوفًا من عذاب الله فى الدنيا والآخرة ورجاء فى ثوابه فيهما، وبالعدل فى الأحكام الذى يردع الناس عن الظلم بعقاب السلطان، وبالحديد والمراد به القوة التى تصد الثورات والفتن وتحفظ الأمن.

حظر الظلم فى الإسلام

الشواهد على حظر الظلم ومفاسده وعقابه:

ويؤيد قاعدة إقامة العدل ما ورد فى تحريم الظلم والوعيد الشديد عليه، فقد ذكر الظلم فى مئات من آيات القرآن أسوأ الذكر، وقرن فى بعضها بأسوأ العواقب فى الدنيا والآخرة وبأن الجزاء عليه فيهما أثر لازم له لزوم المعلول للعلة، والمسبب للسبب، وأن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم (ولا يظلم ربك أحدًا) ومن أثره وعاقبته فى الدنيا أنه مهلك الأمم، ومخرب العمران، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] أى ما كان من شأنه ولا من سننه فى نظام الاجتماع أن يهلك الأمم بظلم منه لهم، أو بشرك به يقع منهم[١] وهم مصلحون فى سيرتهم وأعمالهم، وإنما يهلكهم بظلمهم وإفسادهم، كما قال: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]. وقال فى الأحكام ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] ورد هذا فى حكم القصاص.

(١) إشارة إلى قولين للمفسرين.

وحسبنا هذه الشواهد القليلة من الآيات الكثيرة المكررة فى نوعى الظلم ظلم الأفراد وظلم الأمم، ومن الأول ظلم الإنسان لنفسه وظلمه لغيره، ومنه الظلم فى الحكم والظلم فى القول والعمل من إيذاء بدنى أو مالى أو غيرهما. وفاقًا لحكمة التكرار التى بيناها من قبل(١).

قواعد مراعاة الفضائل فى الأحكام والمعاملات:

من استقرأ الأحكام الشرعية فى الكتاب والسنة بأنواعها من شخصية ومدنية وسياسية وحربية يرى أن الغرض منها كلها قاعدة مراعاة الفضائل فيها من الحق والعدل والصدق والأمانة والوفاء بالعهود والعقود، والرحمة والمحبة والمواساة والبر والإحسان، واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والعقود والكذب والخيانة والقسوة والغش والخداع وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والرشوة والسحت، وشره وأضره التجارة بالدين والرياء فيه وهو أساس النفاق الدينى الذى هو شر الكفر وأحقره.

وأما العقوبات فى الإسلام فهى قسمان (أحدهما) الحدود وهى أقلها وهى ما فرض من عقاب معين على جرم مبين بالنص كالقتل لحفظ الأنفس والزنا لحفظ العرض والنسل، والسرقة لحفظ المال، والفساد فى الأرض بقطع الطرق لحفظ الأمن، والسكر لحفظ العقل، وبعض العلماء لا يجعل عقابه حدًا لعدم النص فى القرآن ولا فى السنة فى تحديده، والحكمة فى هذه الحدود المعينة إرهاب الأشقياء والفساق، واشترط فى إثبات الزنا شروط قلما تتحقق إلا بإقرار الفاعل. ورد فى السنة أمر الزانى بالستر على نفسه وترغيبه عن الإقرار، مع الأمر بدرء الحدود بالشبهات، فقد روى فى الأحاديث المشتهرة مرفوعًا من طرق فيها مقال بلفظ قوله ﷺ: **«ادرؤا الحدود بالشبهات»** وبلفظ **«ادرؤا الحدود عن عباد الله»** وبلفظ **«عن المسلمين ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلم مخرجًا فخلوا سبيله فإن الإمام لأن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة»** وروى الأخير عن عمر (رضى الله عنه) وهو مشهور وعليه عامة الفقهاء.

(١) من أراد التفصيل فيه فليراجع خاتمة سورة هود عليه السلام.

وقالوا: إن إقامة الحدود من حق الإمام الأعظم (الخليفة) دون غيره من الحكام.

(وثانيهما) التعزير، وهو مفوض إلى اجتهاد الحكام مع وجوب العدل وحفظ المصالح العامة والخاصة وهو الأعم الأشمل.

والعبرة فى كل هذه القواعد التى فضل بها الإسلام جميع شرائع الأنبياء وقوانين الحكماء والعلماء، أنها قد جاءت على لسان نبى أمى ﷺ نشأ بين أميين ليس عندهم شرع منزل، ولا قانون مدون، فهل يعقل أن يكون إلهامًا فجأة فى سن الكهولة منبجسًا من نفسه، ولم يؤثر عنه قبله شيء من مثله؟ كيف يكون هذا وهو مخالف لاستعداد البشر من قبله ومن بعده؟ أم المعقول أنه وحى من ربه؟ ألا إنه لهو وحى ربه كما قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١- ٤].

●●●

المقصد السابع من مقاصد القرآن

الإرشاد إلى الإصلاح المالى

تمهيد:

بينا مقاصد القرآن أو أصول فقهه فى إصلاح البشر من طريق التدين والإيمان والعمل والإذعان ومن طريق العقل والبرهان والفكر والوجدان ومن طريق الحكم العادل والسلطان، ومن طريق إكمال نوع الإنسان، ما يتعلق منه بالأفراد، وما يتعلق منه بوحدة الجماعات والأجناس، وبقى ما يتعلق بفقهه فى إصلاح المفاسد الاجتماعية الكبرى الذى يتوقف كماله على ما تقدم كله وهى:

١- طغيان الثروة ودولتها.

٢- عدوان الحرب وقسوتها.

٣- ظلم المرأة واستباحتها.

٤- ظلم الضعفة والأسرى وسلب حريتهما، وهو الرق المطلق -ذلك بأن جميع حظوظ الدنيا منوطة بها، ولا يتم الإصلاح فيها إلا بتعاون الدين والعقل، والعلم والحكمة والحكم، وإننا نتكلم عليها بالإجمال، مبتدئين بإرشاده فى مسألة المال، والآيات فيها تدور على سبعة أقطاب، وهاك البيان:

القطب الأول: القاعدة العامة فى المال كونه فتنة واختباراً في الخير والشر:

القاعدة الأساسية للقرآن في المال أنه فتنة أى اختبار وامتحان للبشر فى حياتهم الدنيوية من معايش ومصالح؛ إذ هو الوسيلة إلى الإصلاح والإفساد، والخير والشر، والبر والفجور وهو مثار التنافس فى كسبه وإنفاقه، وكنزه واحتكاره، وجعله دولة بين الأغنياء وتداوله فى المصالح والمنافع بين الناس.

وقد كان وما زال مثيراً للعداوات بين الأفراد والجماعات من الأقوام والدول وحلال المشكلات وشفاء المعضلات فيها، حتى ذهب بعض علماء الاجتماع إلى جعله هو السبب لجميع الانقلابات السياسية والاجتماعية، وكذا الدينية حتى الإسلامية، كما بينت هذا في التفسير ونقضته بما يعلم برهانه مما هنا وناهيك من المبالغة في إكبار أمر المال قول الحريري في قصيدة الدينار من المقامة الدينارية: (لولا التقى لقلت جلّت قدرته).

وقد قصر علماء الفقه والأدب والتربية من أمتنا في إعطاء المال حقه من المباحث المختلفة المناحي والمقاصد التي دونت في هذا العصر في عدة علوم ولكن هذه العلوم ما زادت البشر إلا فساداً، ولا يجدون علاجًا لهذا الفساد إلا في القرآن.

قال الله عز وجل: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقال حكاية عن نبيه سليمان عليه السلام حين رأى عرش ملكه سبأ مستقرا عنده ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ... الآية﴾ [النمل: ٤٠] وقال: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا... الآية﴾ [سبأ: ٣٧] وقال: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩] وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ... الآية﴾ [آل عمران: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] ومثلها في سورة التغابن [٦٤: ١٥] ويليها الترغيب في الإنفاق وقصر الفلاح على الوقاية من شح النفس، وقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٦] انظر هذا مع قوله تعالى

في أول هذه السورة وهي الكهف ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الكهف : ٧] والمراد من العمل ما يتعلق بما على الأرض من العمران، وأحسنه أنفعه للناس وأرضاه لله بشكره، ثم ما ضربه فيها من المثل بصاحبي الجنتين. والمثل للحياة الدنيا بنبات الأرض(١).

وقال تعالى في تعليل قسمة الفيء بين مستحقيه ﴿ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر : ٧] والدولة -بضم الدال- المال المتداول أي لئلا يكون المال محصوراً في الأغنياء متداولاً بينهم وحدهم (وهذا يسمونه اليوم بالرأسمالية).

والشواهد في فتنة المال في القرآن كثيرة تجد الكلام عليها في مواضع من تفسير المنار ولا سيما الجزء العاشر منه(٢).

فمن الآيات في ارتباط السعادة والفلاح بإنفاق المال، والشقاء بمنعه ما هو للترهيب وما هو للترغيب، وجمع بين الترغيب والترهيب في قوله : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ... الآية ﴾ [البقرة : ١٩٥] (٣) أي إن منع إنفاق المال في سبيل الله من أسباب التهلكة. ثم قال في الترغيب ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وكذا قوله تعالى في سورة الليل : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ [الليل : ٥- ١١].

هذا كله تفصيل لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ ومعناه بالإجمال والإيجاز إن سعيكم في الكسب والإنفاق مختلف مبدأ وصفه وغاية وثمرة (فأما من أعطى) ما عليه من الحقوق الشخصية والقومية والمصالح الواجبة والمندوبة (واتقى) سوء عاقبة منعها وضرره في الأفراد وفي الأمة (وصدق بالحسنى) وهي ما وعد الله من الجزاء على

(١) راجع فيها الآيات ٣٨- ٤٦.

(٢) راجع في الفهرس كلمة - المال : فتنته.

(٣) ص ٢٠٩ ج ٢ تفسير.

الإحسان بما هو أحسن منه من مضاعفة الثواب بمثل قوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] وهو شامل لجزاء الدنيا والآخرة (فسنيسره) بمقتضى سنتنا فى تأثير صفات النفس من الأعمال، وتأثير الأعمال فى الأحوال الخاصة والعامة ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ أى الخطة أو الطريقة الفضلى فى اليسر والسهولة والمنفعة له وللناس فيحبه الناس ويحبه الله ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بما عليه من هذه الحقوق ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ بما له عن حب الناس وحمدهم، وعن حب الله ومثوبته ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ التى بيناها آنفًا بعدم طلبها وتحريها بالإعطاء والإنفاق، وإن اعترف بها باللسان ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ بمقتضى سنتنا المبينة آنفًا ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ من الخطتين، وسوءى الطريقتين فيكون سببًا لعسر البشر وعدوًا لهم ولربهم، ويكون له شر الجزاء منهم ومنه عز وجل فى الدارين.

ويؤيد ذلك شواهد القطب الثانى من آيات المال وهى:

القطب الثانى: ذم طغيان المال وغروره وصده عن الحق والخير:

قال تعالى فى سورة العلق: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦] أى حقًا إن الإنسان ليتجاوز حدود الحق والعدل والفضيلة برؤية نفسه غنيًا بالمال، مستغنيًا بعينه وكنزه أو قصره على شهواته عما فى إنفاقه من نفع الناس ومرضاة الله تعالى وثوابه فى الآخرة، وقد نزلت هذه وما بعدها فى أبى جهل أشد أعداء النبى ﷺ والإسلام من أول ظهوره وهى أول ما نزل فى ذلك. ومثلها فى سورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١، ٢] إلخ[1]

---

(١) «تب»: خبر أو دعاء بالتباب وهو خسران يفضى إلى الهلاك، ومعنى تبت يداه: خسر ما جمعه بهما من المال، ومعنى «وتب» وخسر نفسه بعد خسر ماله «ما أغنى عنه ماله» أى ما منع التباب عنه ماله «وما كسب» من النتائج والأرباح والجاه والولد الذى ظن أنه ينفعه وكان أمر ابنه بفراق بنت النبى ﷺ بعد النبوة عداوة له وما كان أسوأ ما أصابه من التباب: افترس ابنه عتبة أسد فى طريق الشام وقد أحدقت به العير تحمل التجارة. ومات هو بعده بالعدسة بعد غزوة بدر التى ساعد المشركين عليها بماله، وترك ميتًا حتى أنتن، ثم=

ومثلها في سورة الهمزة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ١-٣].

نزلت في الوليد وأميّة بن خلف وكذا قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا... الآيات﴾ [المدثر: ١١-١٧]، وقد نزلت في الوليد بن المغيرة. وكذا آيات سورة (ن ٦٨) من قوله: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ﴾ -إلى قوله- ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ وكان هؤلاء أغنى زعماء قريش الذين عادوا النبي ﷺ واستكبروا عن اتباعه بغتاهم من أول عهده بتبليغ الدعوة، ثم قال تعالى فيهم إذ كان يجمع المال منهم أبو سفيان لقتاله يوم بدر ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦] وكذلك كان، وفيهم وفي أمثالهم من مترفي أقوام الأنبياء نزل قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

ومن الآيات العامة في غريزة البشر قوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] وقوله من سورة المعارج ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩، ٢٠] الخير المال الكثير، وأكثر الأغنياء مناعون للمال إلا من استثنى الله بعد هذه الآيات بقوله: ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ إلخ.

= استأجروا بعض السودان حتى دفنوه. اهـ ملخصًا من البيضاوي. قال وهو إخبار عن الغيب طابق وقوعه.

بمثل هذه الآيات ينفر الوعاظ الناس ويزهدونهم فى المال والدنيا فيبالغون وإنما المذموم الغرور والطغيان والبطر والاستكبار عن الحق افتتانًا بالمال؛ ولذلك قرنه فى بعض الآيات بالأولاد، وكذا البخل به والشح وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والرشوة والسحت، وشواهده فى آيات القطب الثالث وهى:

القطب الثالث: ذم البخل بالمال والكبرياء به والرياء فى إنفاقه:

قال تعالى: ﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٠] قال فى سياق الترغيب فى الإنفاق فى سبيل الله من طيبات الكسب والإخلاص فيه والنهى عن الرياء والمن والأذى فيه ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ**.... الآية ﴾ [البقرة: ٢٦٨] . فسروا الفحشاء بالبخل أى الشيطان يصدكم عن الإنفاق فى سبيل الله بتخويفكم من الفقر ويأمركم بالبخل الذى فحش شره وضرره، وقال بعد الأمر بالإحسان بالوالدين وبذى القربى واليتامى والمساكين والجيران ﴿ **وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ** ﴾ [الحديد: ٢٣، ٢٤] وقال فيمن عاهد الله: لئن آتاه من فضله مالاً وخيرًا ليصدقن منه ﴿ **فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾ [التوبة: ٧٦، ٧٧] وقال: ﴿ **هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** ﴾ [محمد: ٣٨] أى وإن تتولوا عن الإنفاق فى سبيل الله يهلككم بزوال دولتكم ويستبدل بكم قومًا آخرين ينفقون أموالهم فى المصلحة العامة من الدفاع عن الملة، وإقامة الحق والعدل فى الأمة. وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً**[1] **عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ** ﴾ [النساء: ٢٩] وقال: ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا**

---

(١) الباطل ما ليس له مقابل ومن التجارة ما لا ربح فيه، ويحل بالتراضى.

بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨] وقال في اليهود ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء: ١٦١] وقال فيهم ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢] مبالغون في أكل أموال الناس بالباطل وهو يشمل كل ما ليس له مقابل صحيح مشروع ويدخل فيه الغش والحيل والخداع الدنيوى والدينى والرشوة، والسحت- بالضم-الحقير الذى يلزم صاحبه العار ويوصف بالخسة فهو يسحت مروءته أي يذهب بها وقد قلت في وطن الحكام الظالمين من المقصورة الرشيدية:

وكيف لا يسحته الله وهم للسحت أكالون فيه والرشا

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥] الوعيد على كنز المال بمنع تداوله والانتفاع العام به وبمنع الحقوق منه[1].

القطب الرابع: مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزائه على الإيمان والعمل الصالح:

قال تعالى في سورة نوح عليه السلام (٧١) حكاية عنه ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٠- ١٢] وفي معناه ما حكاه عن هود عليه السلام في سورته (١١: ٥٢) بل قال تعالى في بيان نعمته على آدم وحواء وذريتهما بهداية الدين في آخر قصته من سورة طه ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا .... الآيات ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

---

(١) راجع تفسيرها في ص (٣٩٥- ٤١٠) من جزء التفسير العاشر.

فجزاء اتباع هداية الدين الحفظ من شقاء الدنيا والفوز بنعمة المعيشة الراضية فيها، وجزاء من أعرض عنها الشقاء ومعيشة الضنك فيها، وفي معناه قوله تعالى من سورة الجن ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا ﴾ [الجن: ١٣] أي لا يهضم حقه، ولا يظلم بذل يرهقه؛ لأن عزة الإيمان تمنعه وتحفظه، وهذا يشمل الدنيا والآخرة، ثم قال في أمر الدنيا منها ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾[1] [الجن: ١٦، ١٧].

ومن الشواهد على هذه الحقيقة التي غفل عنها المفسرون وغيرهم قوله تعالى عطفًا على الأمر بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [التوبة: ٢٨] أي وإن خفتم فقرًا يعرض لكم بحرمان مكة مما كان ينفقه فيها المشركون في موسم الحج وغيره فسوف يغنيكم الله تعالى بالإسلام وفتوحه وغنائمه[2] وكذا قوله تعالى للذين أعطوا الفداء من أسرى بدر ﴿ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧٠] وكذلك كان، فقد أغنى الله العرب الفقراء بالإسلام فجعلهم أغنى الأمم والأقوام[3].

وقد امتن الله تعالى على نبيه الأعظم ﷺ بالغنى بعد الفقر بقوله: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى: ٨] وامتن على قومه بتوفيقهم للتجارة الواسعة برحلة الشتاء والصيف في سورة خاصة بذلك (هي سورة قريش ١٠٦) وسمى المال الكثير خيرًا بقوله في صفات الإنسان ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨] وقوله فيمن يحضره الموت ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ... الآية ﴾ [البقرة: ١٨٠].

---

(١) هذا معطوف على ما قبله من أول السورة (قل أوحي الله) أي وأوحي إلي أنهم لو استقاموا على الطريقة المثلى التي جاءهم بها الإسلام لوسعنا عليهم الرزق وأصله الماء الغدق أي الكثير الذي ينبت به الزرع ويدر الضرع؛ (لنفتنهم) أي لنمتحنهم فيه أيشكرون النعم أم يكفرونها، ومن يعرض منهم عن هداية ربه بالقرآن يدخله في عذاب صعد (بفتحتين) أي شديد المشقة فتكون النعم سببًا لتعبه وشقائه.

(٢) راجع تفسير الآية في ص ٢٧٧ ج ١٠ تفسير.

(٣) راجع ص ١٠٠ منه.

وإنما كان المؤمنون المتقون لله الشاكرون لنعمه أحق بنعم الدنيا من الكافرين لنعمه والفاسقين الظالمين؛ لأنهم أحق وأجدر بالشكر عليها، والشكر استعمال النعمة فى الحكمة التى منحت لأجلها من الحق والعدل والإحسان والبر والعمران، وهو الذى يرضى الله تعالى فيها، ومن سننه تعالى فيها أن الشكر لها بهذا المعنى سبب للمزيد منها، وأن الكفر لها بسوء استعمالها سبب لسلبها أو سلب فوائدها كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧] وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فالمؤمنون والكافرون يشتركون فى أسباب سعة الرزق وكسب المال من زراعة وصناعة وتجارة؛ لأن هذه الأسباب دنيوية لا تختلف باختلاف الأديان كما قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠] أى ما كان ممنوعًا عمن يريد به لذات العاجلة، ولا عمن يريد به سعادة الآخرة، وإنما يفضل بعضهم بعضًا فى استعمال المال، فاستعماله فى الفسق والشر والظلم والسرف والخيلاء كفر للنعمة وسبب لمحقها نفسها أو محق بركتها، بكثرة الضرر والفساد المترتب عليها، فمن المشاهد أن أكثر الأغنياء المسرفين الفاسقين يفتقرون أو يصابون بالأدواء أو المصائب المنغصة، وأما الأمم المترفة المسرفة الظالمة فتضعف وقد تفقد استقلالها، واستعماله فى البر والخير سبب للمزيد فيها. وقد حققنا هذا الموضوع فى مواضع أخرى، ومنه قوله تعالى فى الزينة والطيبات من الرزق ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢] أى هى لهم فى الدنيا بالاستحقاق ويشاركهم فيها غيرهم بمقتضى الأسباب، ولكنها تكون فى الآخرة خالصة لهم[1] لأنهم يتوسلون بالشكر لله عليها إلى سعادتها الكاملة الدائمة. ولولا ذلك لجعل زينة الدنيا خاصة بالكافرين كما قال: ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن

(١) راجع تفسيرها فى ص ٢٩٨ ج ٨ تفسير.

فضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣- ٣٥].

أى ولولا كراهة أن يكون الناس كلهم كفارًا بجعل نعيم الدنيا وزينتها للكافرين وحدهم لجعلنا لبيوتهم سقفًا وأبوابًا من فضة وسلالم من فضة يصعدون عليها إلى غرفات قصورهم وجعلنا لهم فيها سررًا كذلك وزخرفًا أى ذهبًا، وما كل ذلك إلا متاع الدنيا وهو قليل زائل، بالنسبة إلى نعيم الآخرة العظيم الدائم. ولكن الإنسان يفتتن بالحاضر المشاهد؛ ولذلك جعل الله سعة الدنيا وزينتها بالأسباب الكسبية المشتركة، وجعل المؤمنين أحق بها وأكثر انتفاعًا لشكره تعالى عليها بالاعتدال والقصد فى أنفسهم، والتوسعة على غيرهم، كما قررناه آنفًا. ويؤيده ما فى القطب الخامس من إرشاد القرآن إلى حفظ المال والاقتصاد فيه.

وهذا التشريع والتثقيف والأدب العالى فى الحضارة الإسلامية يعلو بها على حضارات جميع الأمم المسرفة الفاسقة، فهل كان هذا وما قبله وما يذكر بعده مما نبع من نفس محمد الأمى ﷺ فى العقد الخامس من عمره خلافًا لطبائع البشر؛ إذ لم يعهد قط أن يفيض من عقولهم فى هذه السن، ما لم يكونوا فكروا فيه وزاولوه فى سن الصبا والشباب، أم الأقرب إلى عقل المؤمن أن يكون وحيًا من الله تعالى- كلا الأمرين من الخوارق والعجائب فمن يؤمن بالله يجب عليه أن يقول إنه وحى من الله تعالى إذ لا يقدر عليه غيره. ومن لا يؤمن به لا يجد أمامه إلا أن يقول إن محمدًا أفضل من جميع البشر بنفسه؛ إذ صدر عنه ما لم يصدر مثله عن غيره، ولا هو من شأن طبيعتهم وغريزتهم فى هذا السن.

القطب الخامس: ما أوجب الله من حفظ المال من الضياع بالإسراف والاقتصاد فيه:

قال تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥]؛ قيام الشىء وقوامه -بالكسر والفتح- ما يستقيم به ويحفظ ويثبت أى جعلها قوام معايشكم ومصالحكم، والسفهاء هم المسرفون المبذرون لها لصغر سنهم دون الرشد أو

لفساد أخلاقهم وضعف عقولهم ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٥) وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ.... الآية ﴾ [النساء: ٥ -٦]. الابتلاء التجربة والاختبار، أمر باختبارهم وألا تدفع إليهم أموالهم بعد ظهور الرشد فى أعمالهم، وهو الصلاح والاستقامة فى معاملاتهم؛ لئلا يضيعوا الأموال فيما يضر أو فيما لا ينفع.

وقال تعالى فى صفات المؤمنين ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧] الإسراف التبذير والإفراط، والقتر والقتور والإقتار: الإقلال والتضييق فى النفقة، يقال قتر على عياله، ومثله قدر له بالدال مكان التاء ومنه ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ [العنكبوت: ٦٢] وهو مكرر فى عدة سور.

وقال تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ [الطلاق: ٧] وهذا نزل فى النفقة على المرأة المطلقة فى العدة، وهو إرشاد عام، والقاعدة فى الأصول أن العبرة بدلالة العموم. لا يقيد بخصوص سبب النزول. وقال فى النفقات العامة ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٣] و«من» للتبعيض فكل من الغنى ذى السعة، والفقير ذى العسرة، مأمور بأن ينفق مما آتاه الله لا كل ما آتاه الله، وهذا أعظم أصول الاقتصاد، فمن أنفق بعض ما يكتسب قلما يفتقر.

وتقدّم فى وصايا سورة الإسراء الحكيمة (ص ١٤٥) ذكر آيات النهى عن التبذير والمبالغة فى بسط اليد والمبالغة فى قبضها، وما لكل منهما من سوء العاقبة ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦].

ولولا اقتران تلك الوصايا بحكمها وعللها ومنافعها لما سميت حكمة، ألا ترى أنه قال عقب النهى عن التبذير ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾

[الإسراء: ٢٧] لأنهم يفسدون نظام المعيشة بإسرافهم، ويكفرون النعمة بعدم حفظها ووضعها فى مواضعها بالاعتدال؛ ولذلك قال عقبه ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧] ثم قال: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] فعلل الإسراف فى الإنفاق بأن عاقبة فاعله أن يكون ملومًا من الناس ومحسوراً فى نفسه، والمحسور من حسر عنه ستره فانكشف منه المغطى، ويطلق على من انحسرت قوته وانكشفت عن عجزه، والمحسور المغموم أيضًا، وكل هذه المعانى تصح فى وصف المسرف فى النفقة، يوقعه إسرافه فى العدم والفقر إلخ، وحسير البصر كليله وقصيره. ويكنى به عمن لا يفكر فى عواقب الأمور.

ولو أن المسلمين تدبروا هذه الآيات الحكيمة فى الاقتصاد واهتدوا بها لاستغنوا بإرشادها عن جميع الكتب والوصايا فى حفظ ثروتهم، ولندر أن يوجد فيهم فقير ولو كان هذا القرآن نابعًا من غريزة محمد ﷺ ورأيه وشعوره لما وجدتها فيه، فقد كان حب البذل والإحسان هو الغالب على طبعه، وصاحب هذه الخليقة قلما يفكر فى الاقتصاد، وإنما هى وصايا رب العباد.

القطب السادس: إنفاق المال فى سبيل الله آية الإيمان والوسيلة لحياة الأمة وعزة الدولة وسعادة الإنسان:

هذا هو القطب التهذيبى الأعظم من أقطاب الآيات المنزلة فى المال وأكثرها فيه وما ذكر قبله فهو وسائل له، وما يذكر بعده فهو بيان للعمل به، وأظهر الشواهد فيه أن الله تعالى جعله هو الفصل بين الإسلام الصحيح المقترن بالإذعان، المبنى على أساس الإيمان، وجعل دعوى الإيمان بدون شهادته باطلة، وإن كانت دعوى الإسلام تقبل مطلقًا لأن أحكامه العملية تبنى على الظواهر، والله تعالى هو الذى يحاسب على السرائر، وعليها مدار الجزاء فى اليوم الآخر، فالإسلام عمل قد يكون صوريًا غير صادر عن إخلاص وإذعان، والإيمان يقين قلبى يستلزم الإسلام، ولكن الإسلام الصورى الصادر عن استحسان لا عن نفاق، يكون

أقرب الوسائل إلى يقين الإيمان، والأصل فى هذه المسألة قول الله عز وجل: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ[1] آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٤ - ١٥] فقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس فى تحقيق صحة الإيمان وصدق مدعيه، وقوله (لا يلتكم) معناه لا ينقصكم.

ويلى هذا الشاهد آية البر الناطقة بأن بذل المال على حبه بالاختيار، أول آيات الإيمان ويليه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة التى يجبيها إمام المسلمين وسلطانهم بالإلزام ويليهما سائر أمهات الفضائل ومعالى الأخلاق، وهى قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وفى قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] قولان:

(أحدهما) أعطى المال وبذله على حبه إياه كقوله: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

(الثانى) أن الضمير فى حبه لله تعالى كقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨] أى حب الله تعالى. وتجد بيان الذروة العليا من تفضيل حب الله ورسوله ﷺ على المال وغيره من متاع الدنيا فى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ

(١) الأعراب اسم لسكان البوادى دون سكان المدائن والقرى. والآيات نزلت فى قبيلة بنى أسد أسلموا عن قحط ومجاعة ليتصدق عليهم المسلمون ثم حسن إسلامهم.

كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[التوبة : ٢٤].

ومن الآيات فى تفضيل المؤمنين المنفقين على غيرهم وتفاوتهم فى ذلك قوله تعالى: ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [النساء: ٩٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ.... الآية ﴾ [الحديد: ١٠].

وقد ذكر إنفاق المال فى وجوه البر والخير من أمر ونهى ووصف فى عشرات من آيات الذكر الحكيم، وكذلك الصدقة وما تصرف منها من فعل ووصف، وكذلك الزكاة وأبلغ من ذلك التعبير عن التصدق والإنفاق بإقراض الله تعالى ووعد مقرضه بالمضاعفة له فى مثل (٢: ٢٤٥) و (٥٧: ١١) و (٦٤: ١٧).

ومن الآيات البليغة فى الترغيب فيه ومضاعفة ثوابه. وبيان آدابه: عشرون آية من أواخر سورة البقرة هى من أواخر ما نزل من القرآن يتخللها الوعيد الشديد على أكل الربا فراجعها من آية ٢٦١ - ٢٨١ - مع تفسيرها من جزء التفسير الثالث[(١)].

ومن البلاء المبين أن نرى الشعوب الإسلامية فى هذه القرون الأخيرة قد قصرت عن جميع الشعوب القوية فى بذل المال للجهاد فى سبيل الله الذى يحفظ استقلالهم ويعتز به ملكهم، وتعلو به كلمة الله تعالى فيهم، ثم فى غيرهم، وفى طرق البر التى ترتقى بها أمتهم وتكون حجة على سائر الأمم فى تفضيل دينهم على سائر الأديان وحاجة الأمم إليه لإنقاذ الحضارة من جشع عباد المال واستذلالهم للملايين من البشر به، وما أفضى إليه من فوضى الشيوعية الدينية والأدبية المشار إليهما فيما يلى:

(١) وراجع كلمة المال فى الجزءين ١٠ و ١١ وغيرهما منه.

القطب السابع: في الحقوق المفروضة والمندوبة في المال والإصلاح المالي في الإسلام:

قد عقدت لتفسير قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] فصلا في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والإصلاح المالي للبشر وامتياز الإسلام بذلك على جميع الأديان. بينت فيه مكانة المال من حياة الناس، وما له من التأثير في الثورات والحروب والسياسة والعمران، وغلو بعض الجماعات في جمعه وادخاره وأنظمته واستغلاله، واستعباد الألوف وألوف الألوف من البشر به، ويدعون في عرف هذا العصر بالرأسماليين، وقيام جماعات أخرى بالدعوة إلى إبطال النظام الدولي العام في المال، ووضع نظام آخر لاشتراك جميع الناس فيه ويلقبون بالبلشفيين والشيوعيين، وما بين هذين الفريقين من الجماعات من التعادي والخصام.

ثم بينت أن هذه الفتن وما تنذر العالم به من الخراب والدمار لا علاج لها إلا اتباع هداية الإسلام في الإصلاح المالي، ولخصت أصول هذا الإصلاح في أربعة عشر أصلاً هي:

١- إقرار الملكية الشخصية وتحريم أكل أموال الناس بالباطل.

٢- تحريم الربا والقمار.

٣- منع جعل المال دولة بين الأغنياء.

٤- الحجر على السفهاء في أموالهم حتى لا يضيعوها فيما يضرهم ويضر أمتهم.

٥- فرض الزكاة في أول الإسلام وجعلها اشتراكية مطلقة باعثها الوجدان لا إكراه الحكام، وإنما تكون كذلك حيث لا حكومة ولا دولة للإسلام.

٦- نسخها بعد وجود الدولة والحكومة بالزكاة المحدودة بربع العشر في النقدين والتجارة في كل عام ما دام النصاب تامًا، وبالعشر ونصف العشر في غلات الزراعة التي عليها مدار الأقوات أو مطلقًا. وزكاة الأنعام المعروفة، وفاتني هنالك ذكر الخمس في الركاز وهو ما ينبش من المال المكنوز القديم والمعدن.

٧- فرض نفقة الزوجية والقرابة.

٨- إيجاب كفاية المضطر من كل جنس ودين وضيافة الغرباء.

٩- بذل المال فى كفارات بعض الذنوب.

١٠- ندب صدقات التطوّع للمحتاجين.

١١- ذم الإسراف والتبذير، والبخل والتقتير.

١٢- إباحة الزينة والطيبات من الرزق بشرطهما، لتوقف ترقى الصناعة والحضارة عليها.

١٣- مدح القصد والاعتدال بل إيجابه.

١٤- تفضيل الغنى الشاكر على الفقير الصابر اهـ باختصار، وكنت قد شرحت قبله مصارف الزكاة فى تفسير آيتها [التوبة: ٦٠].

ثم عقدت فصلاً آخر فى خلاصة السورة «وهى سورة التوبة» المشتملة على هذه لآيات فى أحكام الأموال فى الإسلام يدخل فى ثلاثة أقسام:

(١) المسائل الدينية والاجتماعية فى الأموال.

(٢) أنواع الأموال ومصارفها.

(٣) فوائد إصلاح الإسلام المالى للبشر، فالرجوع إلى هذه المباحث فى ذلك من التفسير يغنينا عن إعادتها هنا.

وخلاصة القول فى هذه القواعد العلمية فى إصلاح ثروة البشر وجعلها خيراً عامًا كما سماها الله تعالى فى كتابه، واتقاء شرور التنازع عليها - بالوازع الدينى، والتشريع الدولى، إنها هى التى يصلح بها أمر البشر على اختلاف أحوالهم واستعدادهم، فيكونون سعداء فى دنياهم وفى دينهم، ولن تجد مثلها فى دين من الأديان، ولا شىء من كتب القوانين والحكمة البشرية، وإن البشر لعلى خطر عظيم مما سقطوا فيه من التعادى على المال حتى أعيتهم الحيل وسبيل النجاة ممهدة معبّدة أمامهم وهم لا يبصرونها وهى الإسلام وهداية القرآن ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وموضوع بحثنا فى هذا المقصد وهو دلائل الوحى المحمدى أنه لا يعقل أن يكون محمد النبى الأمى ﷺ الذى عرفنا خلاصة تاريخه قد اهتدى بوحى من نفسه لنفسه فى العقد السادس من عمره «أى بعد هجرته» إلى هذه الحقائق التى قامت وعلت جميع الكتب الإلهية والبشرية والنظم الدولية فى أرقى عصور العلم والحكمة والقوانين، وإنما المعقول عند من يؤمن بأن للعالم ربًا حكيمًا رحيمًا مدبرًا أن يكون هذا بوحى منه عز وجل أفاضه على خاتم النبيين ﷺ عند استعداد البشر له لا يحتاجون بعده إلى وحى آخر.

●●●

المقصد الثامن من مقاصد القرآن

إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وقصرها على ما فيه الخير للبشر

نظرة عامة فى فلسفة الحرب والسلم والمعاهدات:

التنازع بين الأحياء فى مرافق المعيشة ووسائل المال والجاه غريزة من غرائز الحياة وإفضاء التنازع إلى التعادى والاقتتال بين الجماعات والأقوام سنة من سنن الاجتماع. .

فإن كان التنازع بين الحق والباطل كان الغلب للحق. . وإن كان بين الصلاح والفساد كان الغلب للصلاح، كما قال تعالى فى الحق والباطل ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وأما التنازع والتعادى والتقاتل على الشهوات الباطلة، والسلطة الظالمة، واستعباد القوى للضعيف، والاستكبار والعلو فى الأرض، فإن ضرره كبير، يزيد ضراوة البشر بسفك الدماء ويورث الحقد والبغضاء. . وقد اشتدت هذه المفاسد فى هذا الزمان حتى خيف أن تقضى على العمران العظيم فى وقت قصير بما استحدثه العلم الواسع من وسائل التخريب والتدمير. . وقد حارت الدول الحربية فى تلافى هذا الخطر. . . ولو طلبوا المخرج والسلامة من هذا الخطر لوجدوهما فى دين الإسلام، فهو دين الحق والعدل والسلام، وهاك بعض قواعد الحرب والسلم فى القرآن:

أهم قواعد الحرب والسلام فى دين الإسلام، وشواهده من القرآن:

قد استنبطنا من آيات سورة الأنفال (٢٨) قاعدة من القواعد الحربية والعسكرية والسياسية فى القتال والصلح والمعاهدات أجملناها فى الباب السابع من خلاصة تفسير

السورة وأحلنا في تفصيلها على تفسير الآيات المستنبطة منها، ثم استنبطنا من آيات سورة التوبة (١٣) قاعدة حربية أكثرها في المعاهدات ووجوب الوفاء بها وشرط نبذها، وفي الهدنة وتأمين الحربي للدخول في دار الإسلام- و٢٠ حكمًا من أحكام الحرب والجزية سردناها في خلاصة تفسير هذه السورة[1] نكتفي هنا ببضع قواعد منهما ومن غيرهما من السور؛ لأن المقام مقام إيراد الشواهد المجملة على أنواع الإصلاح الإسلامي من القرآن للاستدلال به على أن جملة هذه العلوم لا يعقل أن تكون كلها من آراء محمد النبي الأمي ﷺ الذي عاش قبل النبوة عيشة العزلة والانفراد، إلا قليلاً من رعي الغنم في الصبا والتجارة في الشباب وقد قصرت عن كل نوع منها كتب الأديان الإلهية، وكتب الحكمة والقوانين البشرية، فنقول:

القاعدة الأولى: في الحرب المفروضة على الأعيان:

ورد الأمر بقتال المعتدين لكف عدوانهم ولما سيأتي من درء المفاسد وتوطيد المصالح مقترنًا بالنهي عن قتال الاعتداء والبغي والظلم، والشاهد عليه قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩] وتعليل النهي عن قتال الاعتداء بأن الله تعالى لا يحب المعتدين مطلقًا، دليل على أن هذا النهي محكم غير قابل للنسخ. ومن ثم بينا في تفسير هذه الآية من جزء التفسير الثاني أن حروب النبي ﷺ للكفار كانت كلها دفاعًا ليس فيها شيء من العدوان، ثم فصلت في تفسير آية السيف من سورة التوبة: أن قتال مشركي العرب ونبذ عهودهم بعد فتح مكة كان جاريًا على هذه القاعدة. مع كون سياسة الإسلام في العرب غير سياسته في سائر الأقوام، من حيث إرادة إسلامهم باختيارهم وإبطال ما كانوا عليه من الشرك غير المقيد بشرع متبع، وإرادة جعل جزيرتهم معقلاً للإسلام وحده على اتساع سياسته مع غيرهم بإقرارهم على أوطانهم وأديانهم.

---

(١) تراجع في ص ١٢٣ و ١٣٩- ١٤٤ ج ١٠ من التفسير.

وبيّنت فيه أن بعض الصحابة كان قد ثقل عليهم نبذ عهود المشركين المقتضى لقتالهم مع سبقهم لنقض العهد مع النبى ﷺ حتى بين الله لهم ذلك بأنهم إنما نقضوا عهده ونكثوا أيمانهم؛ لأنهم لا عهود لهم يلتزمونها بعقيدة وجدانية، ولا نظام متبع، وقال: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣] أى بالقتال ثم بنقض العهد فهم المعتدون[١].

وإنما اشتبه على الغافلين الأمر بما كان فى بعض الغزوات والسرايا من بدء المسلمين بها ذاهلين عن حالة الحرب بينهم وبين المشركين باعتداء المشركين الأول واستمراره، فالدفاع لا يشترط أن يكون فى كل معركة وكل حركة.

وهذا الذى كان فى آخر أحكام القتال معهم يؤيد ما نزل فى أول الإذن للمسلمين بالقتال وهو قوله تعالى فى سورة الحج ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠] وتتمة الآيات فى القاعدة الثانية.

ولما نقضوا العهد الذى عقده النبى ﷺ معهم فى الحديبية فى أواخر سنة ست للهجرة وعزم على فتح مكة سنة ثمان نزلت سورة الممتحنة (٦٠) فى النهى عن ولاية المشركين، وفيها التصريح بأن النهى خاص بالذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من وطنهم لأجل دينهم، فهو نهى عن موالاتهم ومودتهم دون البر والعدل إلى كل مشرك، فتأمل الآيات ٧ و٨ و٩ منها.

القاعدة الثانية: فى الغرض من الحرب ونتيجتها:

- هى أن تكون الغاية الإيجابية من القتال–بعد دفع الاعتداء والظلم واستتباب الأمن –حماية الأديان كلها من الاضطهاد فيها أو الإكراه عليها، وعبادة المسلمين لله وحده–

(١) راجع تفسير هذه الآيات من أوائل سورة التوبة فى جزء التفسير العاشر.

وإعلاءهم كلمته، وتأمين دعوته، وتنفيذ شريعته، وهى فى مصلحة البشر كلهم، وإسداء الخير إليهم، لا الاستعلاء عليهم والظلم لهم، والشاهد الأول قوله تعالى بعد ذلك الإذن لهم بالقتال الذى تلوناه آنفا ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤٠ ، ٤١].

ذكر فى تعليل إذنه لهم بالقتال المذكور ثلاثة أمور:

أولها: كونهم مظلومين معتدى عليهم فى أنفسهم، ومخرجين نفيًا من أوطانهم وأموالهم لأجل دينهم وإيمانهم، وهذا سبب خاص بهم بقسميه الشخصى والوطنى، أو الدينى والدنيوى.

وقد جعلنا هذه الغاية للقتال قاعدة مستقلة من قواعد سورة الأنفال معبرين عنها «بحرية الدين ومنع فتون أحد واضطهاده لإرجاعه عن دينه» واستدللنا عليها بقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩] وقد كان المشركون يضطهدون المسلمين بكل ما قدروا عليه من الإيذاء والتعذيب لأجل ردهم عن دينهم، وأما المسلمون فلم يفعلوا ذلك فى الصدر الأول ومن عساه شذ عن ذلك قليلاً بعده فقد خالف حكم الإسلام الذى حرم الفتنة والاضطهاد والإكراه فى الدين وشرع فيه الاختيار، بل جعله شرطًا لصحته.

ثانيها: أنه لولا إذن الله للناس بمثل هذا الدفاع لهدمت جميع المعابد التى يذكر فيها اسم الله تعالى اتباع الأنبياء كصوامع العباد وبيع النصارى وصلوات اليهود «كنائسهم» ومساجد المسلمين-بظلم عباد الأصنام، ومنكرى البعث والجزاء، وهذا سبب دينى عام صريح فى حرية الأديان فى الإسلام، وحماية المسلمين لها ولمعابد أهلها. وكذلك كان.

(فإن قيل) ولماذا لم يقر الإسلام المشركين على دينهم كما أقر اليهود والنصارى والمجوس؟ (قلت) إن الشرك الذى كان عليه العرب لم يكن دينًا مبنيًا على عبادة الله ومصلحة عباده كسائر الأديان حتى التى خالطها الشرك. فإنهم لم يكونوا يؤمنون بالبعث والجزاء على الأعمال عند الله تعالى على قاعدة «إن خيراً فخير، وإن شراً فشر» ولا كانوا يدينون الله تعالى بعمل الصالحات وتحريم المنكرات؛ فأصول الدين العامة قوله تعالى: ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢].

ثالثها: أن يكون غرضهم من التمكّن فى الأرض والحكم فيها إقامة الصلاة المزكية للأنفس بنهيها عن الفحشاء والمنكر كما وصفها تعالى، والمربية للأنفس على مراقبة الله وخشيته ومحبته -وإيتاء الزكاة المصلحة للأمور الاجتماعية والاقتصادية- والأمر بالمعروف الشامل لكل خير ونفع للناس- والنهى عن المنكر الشامل لكل شر وضرر يلحق صاحبه أو غيره من الناس.

إن جميع الدول الحربية تدعى بعض هذه المقاصد العالية فى حروبها رياء وابتغاء لحسن السمعة، ولكن أفعالها تكذب دعاويها كلها، ولا سيما النهى عن المنكر فهى تبيح للناس -الذين تمكنها القوة الحربية فى بلادهم- جميع المنكرات والفواحش التى تفسد الأخلاق والآداب وروابط الاجتماع بل تحول بينهم وبين العلم والتهذيب والصلاح بقدر الطاقة، إلا تعليم لغاتها وتاريخ عظمتها وديانة شعبها؛ لأجل هدم مقوماتهم الملية والقومية حتى لا يرجى لهم النجاة من رق الاستعمار وذله. لا ليكونوا مساوين للفاتح المستعمر فى العلم والثروة والعزة والقوة-، كما هو معروف فى جميع الممتلكات والمستعمرات الأوروبية خلافًا لما كان عليه المسلمون الأولون فى فتوحهم من العدل المطلق.

القاعدة الثالثة: إيثار السلم على الحرب:

هذه القاعدة مبنية على القاعدتين اللتين قبلها إذ علم بهما أن الحرب ضرورة يقتضيها ما ذكر فيهما من المصالح ودفع المفاسد، وأن السلم هى الأصل التى يجب أن يكون عليها الناس؛ فلهذا أمرنا الله بإيثارها على الحرب إذا جنح العدو لها، ورضى بها، والشاهد عليه قوله تعالى: ﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [الأنفال: ٦١] فراجع تفسيرها «فى ص ٦٩ و١٤٠ من جزء التفسير العاشر».

القاعدة الرابعة: الاستعداد التام للحرب لأجل الإرهاب المانع منها:

إن الذى يجب أن تكون عليه الدولة قبل الحرب هو إعداد الأمة كل ما تستطيع من أنواع القوة الحربية ومن رباط الخيل فى كل زمان بحسبه على أن يكون القصد الأول من ذلك إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدى على بلادها أو مصالحها أو على أفراد منها أو متاع أو مصلحة لها حتى فى غير بلادها؛ لأجل أن تكون آمنة فى عقر دارها على دماء أهلها ومصالحها وأموالها، مطمئنة فى حريتها بدينها، وهذا ما يسمى فى عرف هذا العصر بالسلم المسلحة أو التسليح السلمى، وتدعيه الدول العسكرية فيه زوراً وخداعًا فتكذبها أعمالها، ولكن الإسلام امتاز على الشرائع كلها بأن جعله دينًا مفروضًا فقيد به الأمر بإعداد القوى والمرابطة للقتال، وذلك قوله عز وجل: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ [الأنفال: ٦٠] فراجع تفسيرها فى ص ٦١ ج ١٠ أيضًا.

القاعدة الخامسة: الرحمة فى الحرب:

إذا كان الغلب والرجحان فى القتال للمسلمين المعبر عنه بالإثخان فى الأعداء، وآمنوا على أنفسهم ظهور العدو عليهم، فالله تعالى يأمرهم أن يكفوا عن القتل، ويكتفوا بالأسر، ثم يخيرهم فى الأسارى إما بالمن عليهم بإطلاقهم بغير مقابل، وإما بأخذ الفداء عنهم، وذلك نص قوله تعالى فى سورة محمد ﷺ ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ**

القاعدة الثالثة: إيثار السلم على الحرب:

هذه القاعدة مبنية على القاعدتين اللتين قبلها إذ علم بهما أن الحرب ضرورة يقتضيها ما ذكر فيهما من المصالح ودفع المفاسد، وأن السلم هى الأصل التى يجب أن يكون عليها الناس؛ فلهذا أمرنا الله بإيثارها على الحرب إذا جنح العدو لها، ورضى بها، والشاهد عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١] فراجع تفسيرها «فى ص ٦٩ و١٤٠ من جزء التفسير العاشر».

القاعدة الرابعة: الاستعداد التام للحرب لأجل الإرهاب المانع منها:

إن الذى يجب أن تكون عليه الدولة قبل الحرب هو إعداد الأمة كل ما تستطيع من أنواع القوة الحربية ومن رباط الخيل فى كل زمان بحسبه على أن يكون القصد الأول من ذلك إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدى على بلادها أو مصالحها أو على أفراد منها أو متاع أو مصلحة لها حتى فى غير بلادها؛ لأجل أن تكون آمنة فى عقر دارها على دماء أهلها ومصالحها وأموالها، مطمئنة فى حريتها بدينها، وهذا ما يسمى فى عرف هذا العصر بالسلم المسلحة أو التسليح السلمى، وتدعيه الدول العسكرية فيه زورًا وخداعًا فتكذبها أعمالها، ولكن الإسلام امتاز على الشرائع كلها بأن جعله دينًا مفروضًا فقيد به الأمر بإعداد القوى والمرابطة للقتال، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] فراجع تفسيرها فى ص ٦١ ج ١٠ أيضًا.

القاعدة الخامسة: الرحمة فى الحرب:

إذا كان الغلب والرجحان فى القتال للمسلمين المعبر عنه بالإثخان فى الأعداء، وآمنوا على أنفسهم ظهور العدو عليهم، فالله تعالى يأمرهم أن يكفوا عن القتل، ويكتفوا بالأسر، ثم يخيرهم فى الأسارى إما بالمن عليهم بإطلاقهم بغير مقابل، وإما بأخذ الفداء عنهم، وذلك نص قوله تعالى فى سورة محمد ﷺ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ

﴿الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وبلغ من تأكيد الوفاء بالعهود أن الله تعالى لم يبح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين غير الخاضعين لحكمنا على المعاهدين لنا من الكفار كما قال فى غير المهاجرين منهم ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢][1] فهل يوجد وفاء بالعهود أعظم من هذا فى حكومة دينية بأمر الله تعالى؟

القاعدة السابعة: الجزية وكونها غاية للقتال لا علة:

قلت فى تفسير قوله تعالى فى قتال أهل الكتاب من آية الجزية ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] ما نصه:

هذه غاية للأمر بقتال أهل الكتاب ينتهى بها إذا كان الغلب لنا، أى قاتلوا من ذكر عند وجود ما يقتضى وجوب القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم، أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم، أو تهديد أمنكم وسلامتكم وحرية دعوتكم، كما فعل الروم فكان سببًا لغزوة تبوك، حتى تأمنوا عدوانهم بإعطائكم الجزية فى الحالين اللذين قيدت بهما فالقيد الأول لهم: وهو أن تكون صادرة عن يد أى قدرة وسعة فلا يظلمون ولا يرهقون. والثانى لكم: وهو الصغار المراد به خضد شوكتهم، والخضوع لسيادتكم وحكمكم، وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام بما يرونه من عدلكم وهدايتكم وفضائلكم التى يرونكم بها أقرب إلى هداية أنبيائهم منهم، فإن أسلموا عم الهدى والعدل والاتحاد، وإن لم يسلموا كان الاتحاد بينكم وبينهم بالمساواة فى العدل، ولم يكونوا حائلاً دونهما فى دار الإسلام. والقتال لما دون هذه الأسباب التى يكون بها وجوبه عينيًا أولى بأن ينتهى بإعطاء الجزية، ومتى أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم وحريتهم فى دينهم بالشروط التى تعقد بها الجزية، ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين، ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون كالمسلمين، ويسمون أهل الذمة لأن كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة

(١) راجع تفسيرها فى صفحة ١٠٨ ج ١٠ تفسير.

رسوله ﷺ وأما الذين يعقد الصلح بيننا وبينهم عهد وميثاق يعترف به كل منا ومنهم باستقلال الآخر فيسمون بأهل العهد والمعاهدين[1].

حكمة الجزية وسببها وما تسقط به:

هذا - وإن الجزية فى الإسلام لم تكن كالضرائب التى يضعها الفاتحون على من يتغلبون عليهم فضلاً عن المغارم التى يرهقونهم بها، وإنما هى جزاء قليل على ما تلتزمه الحكومة الإسلامية من الدفاع عن أهل الذمة وإعانة للجند الذى يمنعهم أى يحميهم ممن يعتدى عليهم كما يعلم من سيرة أصحاب رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة وأعدلهم فى تنفيذها. والشواهد على ذلك كثيرة أوردنا طائفة منها فى تفسير الآية بعد ما تقدم آنفًا.

«منها» ما كتبه خالد بن الوليد رضى الله عنه لصلوبا بن نسطونا حينما دخل الفرات وهو «هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه، إنى عاهدتكم على الجزية والمتعة فلك الذمة والمتعة، وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا، وكتب سنة اثنتى عشرة فى صفر» اهـ وهو صريح فى أن الجزية جزاء على المتعة والحماية تدوم بدوامها، وتمتنع بزوالها.

ويؤيده بالعمل ما ذكره البلاذرى فى (فتوح البلدان) والأزدى فى (فتوح الشام) من رد الصحابة (رضى الله عنهم) لما كانوا أخذوه من أهل حمص من الجزية حين اضطروا إلى تركهم لحضور وقعة اليرموك بأمر أبى عبيدة «رضى الله عنه» وقد صرحوا لهم أنهم قد أخذوها جزاء متعتهم فوجب ردها للعجز عن هذه المتعة. فعجب أهل حمص نصاراهم ويهودهم أشد العجب من رد الفاتحين أموالهم إليهم ودعوا لهم بالنصر على الروم.

فظهر بما ذكرنا أن الإسلام حرّم حرب الاعتداء والظلم، وقصر حرب الدفاع على دفع المفاسد وتقرير المصالح العامة للبشر فجعلها ضرورة تقدر بقدرها، وأن السلام

---

(١) راجع القواعد فى ٦ -٩ ص ١٤٠ و ١٤١ ج ١٠ تفسير وما تحيل عليه من الآيات.

الصحيح الشريف لا يمكن تمتع العالم به إلا بهداية الإسلام، ووضع قوانين الحرب على قواعده.

ومن تأمل هذه القواعد رأى أنه لم يسبق الإسلام إلى مثلها دين من الأديان ولا قانون دولى، ولا إرشاد فلسفى أو أدبى، ولا تبعته بها أمة بتشريع ولا عمل عرفى، أفليس هذا وحده دليلاً واضحًا لدى من يؤمن بوجود رب للبشر عليم حكيم، بأن محمداً العربى الأمى ﷺ قد تلقاها بوحى منه عز وجل، وأن عقله وذكاءه لم يكن ليبلغ هذه الدرجة من العلم والحكمة فى هذه المعضلات الاجتماعية بدون هذا الوحى؟ فكيف إذا أضفنا إليها ما تقدم وما يأتى من المعارف الإلهية والأدبية والاجتماعية والأنباء الغيبية وغير ذلك من دلائل نبوته ﷺ؟

●●●

المقصد التاسع من مقاصد القرآن

إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية

كانت النساء قبل الإسلام مظلومات ممتهنات مستعبدات عند جميع الأمم وفى جميع شرائعها وقوانينها حتى عند أهل الكتاب، إلى أن جاء الإسلام، وأكمل الله دينه ببعثة خاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فأعطى الله النساء الذى أنزله عليه، وبسنته التى بين بها كتاب الله تعالى بالقول والعمل، جميع الحقوق التى أعطاها للرجال إلا ما يقتضيه اختلاف طبيعة المرأة ووظائفها النسوية من الأحكام، ومع مراعاة تكريمها والرحمة بها والعطف عليها، حتى كان النبى ﷺ يقول: «**ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم**» رواه ابن عساكر من حديث على كرم الله وجهه.

كان كبار العقول من الصحابة رضى الله عنهم يرون ما أصلحه الإسلام من فساد وظلم ورذيلة فى الأمة العربية فيكبرونه إكبارًا ويعدونه من دلائل نبوة محمد ﷺ إذ لم يكن يمتاز عليهم قبل النبوة بشىء من العلم ولا البلاغة، بل بالأخلاق وسلامة الفطرة فقط، ولذلك كان عمر بن الخطاب المصلح الكبير والمنفذ الأعظم لسياسة الإسلام وهدى محمد ﷺ من بعده فى الفتوح والعدل وإدارة شئون الشعوب يقول: «**إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية**» ولو كان رضى الله عنه واقفًا على تواريخ الأمم والشعوب لعلم أن ما جاء به الإسلام إنما هو إصلاح لشئون البشر كافة، وثنيهم وكتابيهم همجيهم وحضريهم، لا فى شىء واحد بل فى كل شىء، وإننى أشير هنا إلى أهم أصول الإصلاح النسوى التى بسطتها فى كتاب وسيط فى حقوق النساء فى الإسلام سميته (نداء للجنس اللطيف) بينت فى مقدمته حالهن قبل البعثة المحمدية عند أمم الأرض إجمالاً بقولى:

كانت المرأة تُشترى وتباع، كالبهيمة والمتاع، وكانت تكره على الزواج وعلى البغاء وكانت تورث، ولا ترث، وكانت تملك ولا تملك، وكان أكثر الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل، وكانوا يرون للزوج الحق فى

التصرف بمالها من دونها، وقد اختلف الرجال فى بعض البلاد فى كونها إنسانًا ذا نفس وروح خالدة كالرجل أم لا؟ وفى كونها تلقن الدين وتصح منها العبادة أم لا؟ وفى كونها تدخل الجنة أو الملكوت فى الآخرة أم لا؟ فقرر أحد المجامع فى رومية أنها حيوان نجس لا روح له ولا خلود، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة، وأن يكم فمها كالبعير والكلب العقور لمنعها من الضحك والكلام لأنها أحبولة الشيطان، وكانت أعظم الشرائع تبيح للوالد بيع ابنته، وكان بعض العرب يرون أن للأب الحق فى قتل بنته بل فى وأدها «دفنها حية» أيضًا. وكان معهم من يرى أنه لا قصاص على الرجل فى قتل المرأة ولا دية».

وكتبت فى مقدمة الكلام على حقوق النساء المالية فى الإسلام ما نصه:

«قد أبطل الإسلام كل ما كان عليه العرب والعجم من حرمان النساء من التملك أو التضييق عليهن فى التصرف بما يملكن، واستبداد أزواج المتزوجات منهن بأموالهن. فأثبت لهن حق الملك بأنواعه والتصرف بأنواعه المشروعة، فشرع الوصية والإرث لهن كالرجال، وزادهن ما فرض لهن على الرجال من مهر الزوجية والنفقة على المرأة وأولادها وإن كانت غنية، وأعطاهن حق البيع والشراء والإجارة والهبة والصدقة وغير ذلك. ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها بالتقاضى وغيره من الأعمال المشروعة، وأن المرأة الفرنسية لا تزال إلى اليوم مقيدة بإرادة زوجها فى جميع التصرفات المالية، والعقود القضائية» وأننى ألخص من ذلك الكتاب المسائل الآتية بالإيجاز ولمن شاء مراجعتها فيه بطولها:

١- كان بعض البشر من الإفرنج وغيرهم يعدون المرأة من الحيوان الأعجم أو من الشياطين لا من نوع الإنسان وبعضهم يشك فى ذلك فجاء محمد ﷺ يتلو عليهم أمثال قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] الآية: وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

٢- كان بعض البشر فى أوربة وغيرها يرون أن المرأة لا يصح أن يكون لها دين حق؛

فكانوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة رسميًا فجاء الإسلام يخاطب بالتكاليف الدينية الرجال والنساء معًا بلقب المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، والآيات فى ذلك معروفة.

كان أول من آمن بمحمد خاتم النبيين ﷺ امرأة وهى زوجه خديجة بنت خويلد (رضى الله عنها) وقد ذكر الله تعالى مبايعته ﷺ للنساء فى نص القرآن ثم بايع الرجال بما جاء فيها -ولما جمع القرآن فى مصحف واحد جمعًا رسميًا وضع عند امرأة هى حفصة أم المؤمنين وظل عندها من عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق إلى عهد الخليفة الثالث عثمان (رضى الله عنهم) فأخذ من عندها واعتمدوا عليه فى نسخ المصاحف الرسمية التى كتبت وأرسلت إلى الأمصار لأجل النسخ عنها والاعتماد عليها.

٣- كان بعض البشر يزعمون أن المرأة ليس لها روح خالدة فتكون مع الرجال المؤمنين فى جنة النعيم فى الآخرة -وهذا الزعم أصل لعدم تدينها- فنزل القرآن يقول: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤] ويقول: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ.... الآية﴾ [آل عمران: ١٩٥]. وفيها الوعد الصريح بدخولهم جنات تجرى من تحتها الأنهار.

٤- كان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعدونها أهلاً للاشتراك مع الرجال فى المعابد الدينية، والمحافل الأدبية، ولا فى غيرهما من الأمور الاجتماعية والسياسية، والإرشادات الإصلاحية، فنزل القرآن يصارحهم بقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

فأثبت للمؤمنات الولاية المطلقة مع المؤمنين ، وتدخل فيها ولاية النصرة فى الحرب ، ولكن الشرع أسقط عنهن فريضة القتال فكان حظهن من النصرة تهيئة الطعام الشراب للمقاتلين ومداواة جرحاهم ، وكن يصلين الجماعة مع الرجال ويحججن معهم ، ويأمرن بالمعروف وينهين عن المنكر ، حتى إن بعضهن كن ينكرن على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قوله جهراً ، فيرجع عنه إذا كان خطأ ، وهو الذى كان يهابه الرجال كالنساء .

وقد قفى الله تعالى على هذه الآية بأعظم آية فى جزاء الفريقين جمعت بين بيان النعيم الجثمانى والنعيم الروحانى وهى ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [التوبة : ٧٢] .

٥ - كان بعض البشر يحرمون النساء من حق الميراث وغيره ، وبعضهم يضيق عليهن حق التصرف فيما يملكن ، فأبطل الإسلام هذا الظلم ، وأثبت لهن حق التملك والتصرف بأنفسهم فى دائرة الشرع ، قال الله تعالى : ﴿ **لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا** ﴾ [النساء : ٧] .

ونحن نرى أن دولة الولايات المتحدة الأميركية لم تمنح النساء حق التملك والتصرف إلا من عهد قريب فى عصرنا هذا ، وأن المرأة الفرنسية لا تزال مقيدة بإرادة زوجها فى التصرفات المالية والعقود القضائية ، وقد منحت المرأة المسلمة هذه الحقوق منذ ثلاثة عشر قرنًا ونصف قرن .

٦ - كان الزواج فى قبائل البدو وشعوب الحضارة ضربًا من استرقاق الرجال للنساء فجعله الإسلام عقداً دينيًا مدنيًا لقضاء حق الفطرة بسكون النفس من اضطرابها الجنسى بالحب بين الزوجين وتوسيع دائرة المودة والألفة بين العشيرتين واكتمال عاطفة الرحمة الإنسانية وانتشارها من الوالدين إلى الأولاد ، على ما أرشد إليه

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

٧- القرآن ساوى بين المرأة والرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف مع جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل لأنه أقدر على النفقة والحماية بقول الله عز وجل في الزوجات: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقد بين هذه الدرجة بقوله تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤] فجعل من واجبات هذه القيامة على الزوج نفقة الزوجة والأولاد لا تكلف الزوجة منه شيئًا ولو كانت أغنى منه، وزادها المهر، فالمسلم يدفع لامرأته مهرًا عاجلاً مفروضًا عليه بمقتضى العقد حتى إذا لم يذكر فيه لزمه مهر مثلها في الهيئة الاجتماعية، ولهما أن يؤجلا بعضه بالتراضي، على حين نرى بقية الأمم حتى اليوم تكلف المرأة دفع المهر للرجل.

وكان أولياء المرأة يجبرونها على التزوج بمن تكره أو يعضلونها بالمنع منه مطلقًا وإن كان زوجها وطلقها، فحرم الإسلام ذلك، والنصوص في هذا معروفة في كلام الله وكلام رسوله وسنته ﷺ.

٨- كان الرجال من العرب وبني إسرائيل وغيرهم من الأمم يتخذون من الأزواج ما شاءوا غير مقيدين بعدد، ولا مشترط عليهم فيه العدل، فقيدهم الإسلام بأن لا يزيدوا على أربع، وأن من خاف على نفسه أن لا يعدل بين اثنتين وجب عليه الاقتصار على واحدة، وإنما أباح الزيادة لمحتاجها القادر على النفقة والإحصان؛ لأنها قد تكون ضرورة من ضرورات الاجتماع في أحوال. منها أن تكون الأولى عقيمًا أو تدخل في سن اليأس من الحمل. أو تكون ذات مرض مانع منه أو من إحصان الرجل، وقد يكون التعدد من مصالح النساء خاصة إذا كثرن في أمة أو قبيلة كما يكون في أعقاب الحروب، أو هجرة كثير من الرجال لأجل الكسب.

وناهيك بأمة تحرم شريعتها الزنا وتعاقب عليه، فهل من مصلحة النساء أو الإنسانية

أن تبقى الزائدات على عدد الرجال محرومات من الحياة الزوجية وحصانتها وكفالة الأزواج ومن نعمة الأمومة؟ وهل من المصلحة أو المنفعة العامة أو الخاصة أن يباح لهن الزنا وما يترتب عليه من المصائب البدنية والاجتماعية التى نراهن مرهقات برجسها فى بلاد الإفرنج والبلاد التى ابتليت بسيطرتهم عليها أو تقليدها لهم؟

وقد فصلنا ذلك فى تفسير آية التعدد من سورة النساء ثم زدنا عليه فى كتاب «حقوق النساء فى الإسلام» ما هو مقنع لكل عاقل منصف بأن ما شرعه الإسلام فى التعدد هو عين الحق والعدل ومصلحة البشر كافة والنساء خاصة، فهو قد أباح ذلك بشرطه ولم يوجبه، وهن فى شريعته مخيرات فى قبول العقد على رجل متزوج وعدمه، بل تجيز الشريعة للمرأة أن تشترط فى عقد نكاحها جعل عصمتها بيدها لتطلق نفسها إذا شاءت بناءً على ما ذهب إليه بعض أئمة الفقه فى صحة كل شرط يتعاقد عليه الناس غير مخالف لنص قطعى فى الكتاب والسنة ولا سيما شروط الزوجية عملاً بحديث: «**أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج**» رواه البخارى فى مواضع من صحيحه وأصحاب السنن.

٩- الطلاق قد يكون ضرورة من ضروريات الحياة الزوجية إذا تعذر على الزوجين القيام بحقوق الزوجية من إقامة حدود الله وحقوق الإحصان والنفقة والمعاشرة بالمعروف، وكان مشروعًا عند أهل الكتاب والوثنيين من العرب وغيرهم، وكان يقع على النساء منه وفيه ظلم كثير وغبن يشق احتماله فجاء الإسلام فيه بالإصلاح الذى لم يسبقه إليه شرع ولم يلحقه بمثله قانون، وكان الإفرنج يحرمونه ويعيبون الإسلام به، ثم اضطروا إلى إباحته، فأسرفوا فيه إسرافًا منذراً بفوضى الحياة الزوجية وانحلال روابط الأسرة والعشيرة، ومما نقلته الصحف من أسباب حكم القضاة بالطلاق عندهم مسائل شعر رأس المرأة ووجه الرجل فى إرساله أو قصة وحلقه، وشكوى المرأة من اشتغال الرجل عنها بمطالعته للكتاب أو الصحف فى الدار، وشكواها من نتن رائحته لعدم استحمامه، وشكوى الرجل من كثرة كلام المرأة حتى بالمسرة (التليفون) ومثله كثير[1].

(١) نشرت جريدة الأهرام فى هذا الشهر (المحرم سنة ١٣٥٤هـ- ١٩٣٥م) اعتقاداً للقاضى لندسى أشهر قضاة الطلاق فى (لوس أنجلوس) من ولاية (كليفورنية) خلاصته أن الحياة الزوجية ستزول من بلادهم =

جعل الإسلام عقدة النكاح بيد الرجال ويتبعه حق الطلاق لأنهم أحرص على بقاء الزوجية بما تكلفهم من النفقات فى عقدها وحلها وكونهم أثبت من النساء جأشًا وأشد صبرًا على ما يكرهون، وقد أوصاهم الله تعالى فوق هذا بما يزيدهم قوة على ضبط النفس وحبسها على ما يكرهون من نسائهم فقال: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ [النساء: ١٩] وأعطت الشريعة المرأة حق طلب فسخ عقد الزواج من القاضى إذا وجد سببه من العيوب الخلقية أو المرضية كالرجل، وكذا إذا عجز الزوج عن النفقة. وجعلت للمطلقة عليه حق النفقة مدة. العدة التى لا يحل لها فيها الزواج، وذم النبى ﷺ الطلاق بأن الله يبغضه للتنفير عنه -إلى غير ذلك من الأحكام التى بيناها فى تفسير الآيات المنزلة فيها وفى كتابنا الجديد فى حقوق النساء فى الإسلام (نداء للجنس اللطيف).

١٠- بالغ الإسلام فى الوصية ببر الوالدين فقرنه بعبادة الله تعالى، وأكد النبى ﷺ فيه حق الأم فجعل برها مقدمًا على بر الأب، ثم بالغ فى الوصية بتربية البنات وكفالة الأخوات. بأخص مما وصى به من صلة الأرحام، بل جعل لكل امرأة قيمًا شرعيًا يتولى كفايتها والعناية بها، ومن ليس لها ولى من أقاربها وجب على أولى الأمر من حكام المسلمين أن يتولوا أمرها، وقد أثبتنا فى ذلك الكتاب طائفة من تلك الوصايا.

وجملة القول: إنه ما وجد دين ولا شرع ولا قانون فى أمة من الأمم أعطى النساء ما أعطاهن الإسلام من الحقوق والعناية والكرامة، أفليس هذا كله من دلائل كونه من وحى الله العليم الحكيم الرحيم، إلى محمد النبى الأمى المبعوث ﷺ فى الأميين؟ بلى وإنا على ذلك من الشاهدين المبرهنين، والحمد لله رب العالمين.

●●●

= (أمريكة الشمالية) وتحل محلها الإباحة والفوضى فى العلاقة بين النساء والرجال فى زمن قريب وهى الآن كشركة تجارية ينقضها الشريكان لأوهى الأسباب خلافًا لهداية جميع الأديان إذ لا دين ولا حب يربطهما، بل الشهوات والتنقل فى وسائل المسرات - الطبعة الثالثة.

خلاصة البحث

فى تحرير الدلالة على إثبات الوحى وحجة الله به على جميع الخلق

راجع ما تقدم من الكلام على الوحى والنبوة وآيات الأنبياء عندنا وعند النصارى، ومن الكلام فى تفنيد شبهة الوحى النفسى، والكلام فى إعجاز القرآن اللغوى والعلمى وما أحدثه من الثورة العالمية والانقلاب الإنسانى من كل وجه، ثم أضف إليها تلك العشرة الأنواع من مقاصد القرآن، فى إصلاح البشر وتكميل نوع الإنسان، من جميع نواحى التشريع الروحى والأدبى والاجتماعى والمالى والسياسى، وهى التى اشتدت حاجة الشعوب والدول إليها فى هذا العصر، موضحة بما بيناه من أصول وقواعد فى الإسلام، هى أصح وأكمل وأكفل للمصالح العامة، ودفع المفاسد القديمة والطارئة، من كل ما سبقها من تعاليم الأنبياء، وفلسفة الحكماء وقوانين الملوك والحكام، على اختلاف الأعصار، مع العلم القطعى من تاريخ محمد ﷺ أنه كان أميًا يؤثر بطبعه عيشة العزلة، فلم يتفق له الاطلاع على كتب الأنبياء ولا غيرها من الكتب والقوانين، وأنه لم يعرف عنه أنه كان يبحث فى شىء من العلوم، ولا أنه نطق بشىء من مسائلها، ولا أنه عرف بالبلاغة والفصاحة، أو عنى بالشعر أو الرجز أو الخطابة، والعلم القطعى بأنه إنما جاء بها فى هذا القرآن بعد استكمال سن الأربعين وهى سن لم يعرف فى استعداد أنفس البشر ومدركات عقولهم ولا فى تاريخهم أن صاحبها يأتنف مثلها ائتنافًا لم يسبق له البدء بشىء منه فى أنف عمره وآنفة شبابه وشرخه.

راجع هذا كله وتأمله جملة واحدة تجد عقلك مضطرًا إلى الجزم بأن هذا فى جملته وتفصيله فوق استعداد بشر أمى أو متعلم ﷺ، وأنه لا يعقل إلا أن يكون وحيًا من الله تعالى اختصه به.

فإذا فرضنا أنه يحتمل أن يكون شىء منها من تأثير الوراثة والبيئة والتربية، وأن يكون قد تسرب إلى ذهنه بعض مسائلها من أفواه عقلاء قومه أو غيرهم ممن لقى فى

أسفاره القليلة، أو أنه فكر فى حاجة البشر إلى مثلها بما أدركه بذكائه الفطرى من سوء حالهم، فهل يعقل أن تكون تلك الفلتات الشاردة، وهذه الخطرات الواردة، تبلغ هذا الحد من التحقيق والوفاء بحاجة الأمم كلها، وأن تظل كلها مكتومة من سن الصبا وعهد حب الظهور إلى أن تظهر فى سن الكهولة بهذه الروعة من البيان، وسلطان البلاغة على القلوب، وقوة البرهان فى العقول، فتحدث هذه الثورة العربية المغيّرة لطباعها، المبدلة لأوضاعها، بحيث تسود بها شعوب المدنية كلها، ويتلو ذلك ما قصّه التاريخ من الانقلاب فى العالم كله بها؟

وأعجب من هذا كله أن يظهر فى هذا العصر أن أمم العلم والفنون الواسعة والحضارة العجيبة أشد حاجة إليها ممن قبلهم؟ كلا. إن هذا لم يعرف مثله فى البشر، فلم يبق إلا أنه علم موحى به من الله عز وجل مفروض على كل عاقل بلغته دعوته أن يتبعه ويدعو إليه.

وإذ قد ثبت هذا فالواجب على كل من بلغه من البشر أن يتبعه ويهتدى به لتكميل إنسانيته، وهداية أمته، وإعدادها لسعادة الدنيا والآخرة. فإن اعترضته شبهة عليه فليبحث عنها أو لينبذها، فما كان لعاقل ثبت عنده نفع علم الطب أن يترك مراعاته فى حفظ صحته، أو مداواة مرضه؛ لشبهة فى بعض مسائله، أو خيبة الأطباء فى بعض معالجاتهم للمرضى. فهو أعظم أطباء الأرواح والاجتماع فيهم ﷺ.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

«رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً»..

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وأنه خاتم النبيين، ورحمته العامة للعالمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

●●●

الخاتمة

فى تجديد التحدى، بتعاليم الوحى المحمدى
ودعوة شعوب الحضارة إلى الدين الإسلامى

تلك عقائد دين محمد ﷺ وقواعد تشريعه، وأصول إصلاحه الدينى والاجتماعى والمالى والسياسى، مسرودة بالإجمال، مؤيدة بشواهدها من آيات القرآن، مجردة من حلل المبالغات الخطابية، وعاطلة من حلى الخلابة الشعرية، ونحن المسلمين نتحدى الفلاسفة والمؤرخين من جميع الأمم، ولا سيما أحرار الإفرنج، بأن يأتونا بمثلها أو بما يقرب منها من تاريخ أعظم الأنبياء، وأشهر الحكماء، وأبلغ الأدباء، وأنبغ ساسة الأولين والآخرين مع صرف النظر عن كونه ﷺ كان (كما بينا أولاً وآخرًا) أميًا، وجاء بذلك كله بعد استكمال السن التى صرح علماؤهم بأن الإنسان يستحيل أن يبتدئ أو يبتدع فيها علمًا أو فنًا، أو يسن فيها شرعًا أو يضع قانونًا، أو ينهض فى العالم بانقلاب عظيم أو عمل خطير، كما لم يكن قد ظهر استعداده له وأخذ بمقدماته فى ريعان الصبا، وشرخ الشباب، وقد بينا الفرق العظيم بينه وبين موسى وعيسى أعظم أنبياء بنى إسرائيل صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

نتحداهم بهذا القرآن تحديًا علميًا إصلاحيًا سياسيًا فى أرقى عهد للبشر فى العلم الكسبى، مع صرف النظر عما كان من تحدى سلفنا بإعجاز عبارته وأسلوبها وبلاغتها العربية فى أرقى عصورها، ونتحداهم به تحديًا عمليًا من حيث إن تنفيذ محمد ﷺ لإصلاحه فى تأثيره وسرعته وعمومه من أكبر المعجزات التى تفوق استعداد البشر، فكيف وقد اجتمع العلم والعمل.

وبيانه أن العلم مما يصلح به حال البشر فى أفرادهم وجماعاتهم وشعوبهم علم واسع يقل فى الأذكياء من يتقن المدون منه فى الكتب الذى يلقن فى المدارس، ثم يقل من يستطيع تنفيذ ما يتعلمه منه فى أمة يتولى أمر سياستها وإدارة الأحكام فيها، فهل فى

الإمكان أن يوجد إنسان يضع هذا العلم ذا الشعب الكثيرة، بل العلوم العالية، ثم يكون هو الذى يتولى تنفيذها وإصلاح أمة كبيرة بها، ويتم له النجاح فى ذلك بنفسه فى عصره؟

إن هذا ليس فى استطاعة أحد من البشر، ولم يقع من أحد منهم فيما غبر، وأصول هذا الإصلاح وفروعه محفوظة إلى اليوم وقد فسد أكثر البشر لتركهم الاهتداء بها!!

وأما تنفيذ محمد ﷺ لهذه التعاليم فقد تم فى عشر سنين من تاريخ الهجرة الذى كان بدء حياة الحرية له ولمن آمن به، وقد ظل قبلها يدعو إلى أصولها المجملة عشر سنين أولاً بالسر، ثم بالجهر مع احتمال الاضطهاد والإيذاء والتعذيب والتهديد بالقتل والنفى الذى اضطر المؤمنين إلى هجرة بعد الهجرة، وبعد الهجرة العامة بالتبع له ﷺ صار لهم قوة فكان المشركون يعتدون عليهم ويقاتلونهم فى دار هجرتهم فكانوا فى حالة حرب وقتال مع المشركين كافة، وكذا أهل الكتاب المجاورين له، وكان ﷺ عقد لليهود معاهدة بتأمينهم على دينهم وأنفسهم وأموالهم بشرط ألا يظاهروا المشركين عليه، فنقضوا عهده المرة بعد المرة وظاهروهم بل أغروهم بقتاله، فاضطر إلى قتالهم وإجلائهم من جواره فى الحجاز، وظل المسلمون فى نضال مع المشركين مدة ست سنين، مدافعين عن أنفسهم فى كل قتال دفاع الضعيف-المؤيد من الله- للأقوياء المخذولين، وفى أواخر السادسة عقد معاهدة الحديبية مع المشركين على وضع القتال عشر سنين، ثم غدر المشركون ونقضوا العهد، فعادت حالة الحرب، وفتح المسلمون مكة عاصمة قريش الدينية والدنيوية، ومثابة جميع الأمة العربية، فى سنة ثمان من الهجرة، وحج النبى ﷺ حجة الوداع فى آخر سنة عشر، وأنزل الله تعالى عليه فى يوم عرفة منها ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

ففى عشر سنين تم توحيد الأمة العربية التى كانت أعرق أمم الأرض فى الشقاق والتفرق والعداء، وإنما كان ذلك بتأثير كتاب الله وتأييده عز وجل لرسوله ﷺ كما قال:

﴿ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣] وبما أعده الله تعالى له من إتمام مكارم الأخلاق، وما وفقه وأرشده إليه من حسن السياسة المبينة فى قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ.... الآية ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وذلك أن العرب كانت أعصى خلق الله على الخضوع والطاعة والانقياد؛ لعراقتهم فى الحرية وشدة بأسهم وعدم ابتلائهم بالملوك المستبدين القاهرين، والرؤساء الروحيين المسيطرين الذين يذللون الأمم ويخضعونها لكل ذى سلطان قوى.

فليدلنا علماء التاريخ العام على نبى من الأنبياء أو حكيم من الحكماء، أو ملك من الملوك الفاتحين والمشترعين، ربى أمة من الأمم فى عشر سنين أو عشرين، فجعلها أهلاً لفتح الأمصار، والسيادة على الأمم الحضرية، وسياستها بالعدل والرحمة، وتحويلها عن أديانها ولغاتها بالإقناع وحسن القدوة، ولا نشترط أن تكون هذه الأمة التى علمها وهذبها ووحدها رجل واحد كالأمة العربية فى عتوها ولا أن يكون هذا الرجل أميًا كمحمد ﷺ.

فأين الوحدة الجرمانية والوحدة الطليانية فى عصر العلوم والفنون والفلسفة والحضارة والقوانين ونظم الاجتماع والحرب، من الوحدة العربية المحمدية فى عهد الأمية والجاهلية؟ بل أين الوحدة الإسرائيلية، فى عهد الآيات والعجائب الكونية، من الوحدة العربية الخاصة، ثم الوحدة الإسلامية العامة فى عهد آيات القرآن وعلومه الإلهية؟

ثم نفذ ذلك التشريع الأعلى، والهداية المثلى، خلفاء محمد ﷺ الراشدون، وكثير من ملوك المسلمين الصالحين، بما شهد لهم به تاريخهم، واعترف لهم به المؤرخون المنصفون من الإفرنج وغيرهم، بالجمع بهما بين العدل والرحمة، وبأنهم جددوا بهما الحضارة الإنسانية ورقوها، وأحيوا العلوم والفنون الميتة وهذبوها واستثمروها، وكانوا أساتذة العالم فيها.

ثم كان من قوة هذا الدين فى الحق والفضائل أن عادته جميع أمم الإفرنج وحاربته بجميع قواتها الصليبية، الهمجية منها والمدنية، ثم بعلومها وفنونها ونظمها المدهشة، ولا تزال تحاربه وتبذل الملايين من الدنانير لتحويل أهله عنه، بعد زوال قوة دوله، وغلبة الجهل على شعوبه، بجميع أساليب الدعوة المسماة بالتبشير، وبجميع وسائل القوة والنظام، وبمساعدة الملحدين فيه كالقاديانية، وتقترف دولهم وجمعياتهم الدينية فى ذلك من رذائل الظلم والبغى والكذب ما يتبرأ من مثله شرار المجرمين، ولم يستطيعوا له هدمًا، ولا أن ينصّروا مسلمًا واحدًا عرف الإسلام(١).

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

نتيجة التحدى بالوحى المحمدى

دعوة شعوب المدينة: أوربة وأمريكا واليابان، بلسان علمائها إلى الإسلام لإصلاح فساد البشر المادى وتمتيعه بالسلام، والإخاء الإنسانى العام

إذا عجز حكماء هذا العصر وعلماء الحياة والاجتماع والأخلاق والمؤرخون من أحرار الإفرنج وغيرهم عن إخبارنا بوجود رجل مثل محمد ﷺ فيما علم من تاريخه المعروف المشهور جاء بمثل هذا القرآن فى خصائصه ولا سيما التعاليم التى لخصنا كلياتها فى هذا الكتاب، وقدر أن ينفذها ويربى بها أمة كالأمة العربية حتى كان لها بها من الأثر الدينى والمدنى فى العالم مثل أثرها -وأنهم لعاجزون عن ذلك قطعًا- أفلا يكون عجزهم هذا برهانًا على أن دين محمد وكتاب محمد ﷺ وهدى محمد وتربية محمد للأمة العربية، بما قلب به نظم العالم الإنسانى كلها، وحولها إلى ما هو خير منها - كل أولئك من خوارق العادات، وما لا يقبل المراء الظاهر من المعجزات؟ بلى.

(١) هذا ما نقله الدكتور مارديس المستشرق الفرنسى فى مقدمة تفسيره عن إجماع المبشرين كما تقدم فى مقدمة الطبعة الأولى (راجع ص ٢١).

وإذ كان حقًا واقعًا ما له من دافع، فما المانع من عد هذه التعاليم وحيًا من رب العالمين، العليم الحكيم، وما معنى كونها وحيًا إلا أنها علم أفاضه الله تعالى على روح محمد ﷺ وقلبه، بطريقة خفية غير طرق العلم الكسبية المعروفة للبشر عامة، وفوق الإلهامات النفسية القليلة التى تؤثر عن بعض الخاصة؟ وما معنى كونها معجزة إلا أنها جاءت على غير المعهود فى علم البشر الكسبى والنفسى، وخلاف المقرر فى علم النفس والفلسفة العقلية وسنن الاجتماع، وتواريخ الأمم، وسير الحكماء والعلماء والملوك، وفوق المعروف عن الأنبياء أيضًا وإن كانت من جنسها، فالأنبياء قد أنبأوا ببعض الغيوب الحاضرة فى عصرهم والعصور التى أتت بعدهم -وأنبأ محمد ﷺ بما هو أصرح منها وأظهر وأكثر، وبغيوب سابقة كانت قبل نبوته بقرون، ولكن لم يجئ أحد منهم بمثل ما تقدم إجماله فى المقاصد العشرة العالية من العلم والحكمة والتشريع.

قد بينا لكم أيها العلماء الأحرار، بطلان ما اخترعته عقول المنكرين لنبوة محمد ﷺ من العلل والآراء؛ لجعل ما جاء به من العلم الإلهى الأعلى، والتشريع المدنى الأسمى، والحكمة الأدبية المثلى، نابعًا من استعداده الشخصى، وما اقتبسه فى بيئته وأسفاره من أقوال بعض الأعراب، وهى شوارد ما كان يعنى مثله بحفظها، وآراء أهل الكتاب، وهى أوابد ما كان يثق بها فيحفل بقيدها، ولا كان هذا من شأنه، وعلمتم أن بعض ما قالوه افتراء على التاريخ، وأن ما قد يصح منه عقيم لا ينتج ما ادعوه، وعلمتم أنه فى جملته مخالف للعلم والفلسفة وطباع البشر وسنن الاجتماع ووقائع التاريخ.

ونحن نتحداكم الآن بالإتيان بعلل أخرى لما عرضناه على أنظاركم من وحى الله تعالى وكتابه لمحمد ﷺ مع القطعى من تاريخه - علل يقبلها ميزان العقل المسمى بعلم المنطق، وسنن الإنسان وعلم الاجتماع.

فإن لم تستطيعوا -ولن تستطيعوا- أن تأتونا بعلل تقبلها العقول، وتؤيدها النقول فالواجب عليكم أن تؤمنوا بنبوة محمد ﷺ ورسالته، وبكتابه المنزل عليه من عند الله تعالى لإصلاح البشر، وأن تتولوا الدعوة إلى هذا الإيمان، ومعالجة أدواء الاجتماع الحاضرة به، بعد أن عجزت علومكم الواسعة، وفلسفتكم الدقيقة أن توقف عدوى

فساد الإباحة وعبادة الشهوات وفوضى الأفكار فى الأمم، وعجزت عن منع دول حضارتكم أن تنفق معظم أموالها المنتزعة من شعوبها ومستعمراتها فى الاستعداد لحرب البغى والعدوان المدمرة، وتأريث العداوات بين شعوب الأرض كافة، بل زادوا شعوبهم عداوة وشنآنًا وبغيًا وعدوانًا، بما هو شر مما عليه قبائل الهمج وسباع الوحش والطير والسمك: فقد كان غاية شوط هذه العلوم الواسعة عند هذه الدول أعظم نكبة على البشر، فإن أبيتم وتوليتم أيها العلماء عن دعوة الإسلام إلى السلام، فعليكم إثم شعوبكم ودولكم وسائر الناس.

لقد كتب النبى ﷺ لكل ملك وزعيم قوم دعاه إلى الإسلام: «**فإن توليت فعليك إثم من وليت أمرهم**» ونقول لكم اليوم: فإن توليتم فعليكم إثم البشر كلهم؛ لأنكم إذا أظهرتم الإيمان وتواطأتم على نشر الدعوة إليه، لا تلبث جميع الشعوب أن تستجيب لكم، وترغم حكوماتها على الأخوة الإنسانية والسلام، بهداية الإسلام.

علوم البشر لا تستقل بهدايتهم لأنهم لا يدينون إلا لوحى ربهم:

ألا إنه قد ثبت بالحس والعيان، أن العلم البشرى وحده لا يصلح أنفس الناس؛ لأنهم لا يخالفون أهواءهم وشهواتهم الشخصية والقومية إلى اتباع آراء أفراد منهم، وإنما يدينون بوازع الفطرة لما هو فوق معارفهم البشرية، وهو ما يأتيهم من ربهم (راجع ص ٤٢) ولا يوجد فى الأرض دين عام كامل صحيح ثابت إلا دين الإسلام، وقد بينا لكم أصول تشريعه الروحى والسياسى والاجتماعى الصالح لكل زمان ومكان، وأنه دين السلام والحق والعدل والمساواة التى تعطى كل شعب وكل فرد حقه، فيه وحده يمكن البرء من الأدواء المالية والسياسية والحربية والاجتماعية كلها، فاليهودية دين مؤقت خاص غير عام وانتهى زمانها، والمسيحية إصلاح روحى لليهودية ليس فيها تشريع، ولا تصلح وصاياها الزهدية التواضعية لحضارة هذا العصر، وإنما كانت موقوتة لإصلاح غلو اليهود والروم فى الطمع الدنيوى والشهوات كما

تقدم، والبرهمية والبوذية والمجوسية، على ما تعلمون فيهن من وثنية وخصوصية، وخرافات وعداوات، وتفاوت طبقات يدينون الله بجعل بعض من كرمهم من البشر أخساء بالفطرة كالحشرات، أو رجسًا من عمل الشيطان، فلا يصلح شيء منها لتثقيفهم بالتوحيد والعرفان. والإخاء الإنسانى العام فإذن لا ملجأ ولا وزر، ولا ملتحد للبشر، إلا دين الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩] فلئن اهتدت به أمة قوية منظمة لتصلحن به سائر الأمم، ولتكونن لها السيادة العليا فى جميع الأرض، وليدخلن العالم الإنسانى فى طور جديد من الترقى، الجامع بين منافع القوى المادية، والمعارف الروحية، وهما منتهى السعادة الإنسانية.

الرجاء فى العلماء المستقلين دون السياسيين:

بلغنا أنه دعا بعض العلماء منكم إلى عقد مؤتمر من كبار علماء الشعوب كلها للبحث فى الوسائل التى يمكن أن تقى حضارة العصر من غوائل الشحناء القومية والدولية، ولئن عقد هذا المؤتمر فلن يكون أمثل ولا أرجى من هذه المؤتمرات التى تعقدها الدول فى جامعة الأمم وعواصم السياسة، وهى لم تزد الأدواء القومية إلا إعضالاً والأخطار الدولية إلا تفاقمًا، والشعوب التى تتصرف بثروة العالم إلا فقرًا، وإنما الدواء الواقى المضمون بين أيديهم وهم لا يبصرون، وحجته البينة تناديهم ولكنهم لا يسمعون ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وأما أنتم أيها العلماء المستقلو العقول والأفكار، فالمرجو منكم أن تسمعوا وتبصروا، وأن تعلموا فتعملوا، فإن كانت دعوة القرآن لم تبلغكم حقيقتها الكافلة لإصلاح البشر، على الوجه الصحيح الذى يحرك إلى النظر، بما ضرب دونه من الحجب، أو لأنكم لم تبحثوا عنها بالإخلاص مع التجرد من التقاليد المسلمة عندكم

والأهواء، ولأن الإسلام ليس له زعامة ولا جماعات تبث دعوته، ولا دولة تقيم أحكامه وتنفذ حضارته، بل صار المسلمون فى جملتهم حجة على الإسلام وحجابًا دون نوره، إلى غير ذلك من الحجب والأسباب، التى بينتها فى مقدمة هذا الكتاب (ص ١٩) فأرجو أن يكون هذا الكتاب كافيًا فى بلوغ الدعوة إليكم بشرطها المناسب لحال هذا العصر، فإن ظهر لكم بها الحق فذلك ما ينبغى ونرجو لخير الإنسانية كلها، وإن عرضت لكم شبهة فيها، فالمرجو من حبكم للعلم، وحرصكم على استبانة الحق، أن تشرحوها لنا لنعرض عليكم جوابنا عنها، والحقيقة بنت البحث كما تعلمون.

ولا أراكم تعدون من الشبهات الصادرة عن الإسلام (بعد أن ثبتت أصوله بما ذكرنا) أن فيه أخبارًا عن عالم الغيب الذى وراء المادة لا دليل عليها عندكم، فإنما مصدر الدين عالم الغيب، ولو كان مما يعلمه البشر بكسبهم ويدينون به لما كانوا فى حاجة إلى تلقيه من الوحى، وقد بينا أن تعاليم القرآن قد أثبتت أنه وحى من عالم الغيب، وقامت برهانًا على وجود الله وعلمه وحكمته، فوجب أن تؤخذ أخباره بالتسليم، وحسبكم أنه ليس فيه منها ما يقوم البرهان على استحالته، وإن منها ما كان يعد من وراء إدراك العقل، ثم كان من ثمرات العلم أن أثبت وجود مثله بالفعل، كتخاطب أهل الجنة وأهل النار وترائيهم وهم فيهما على ما بينهما من البعد، ولا تكونوا ممن قال الله تعالى فيهم ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٦].

معجزات القرآن الطبيعية والفلكية:

وأما أخبار القرآن عن عالم الغيب المادى من تكوين وتاريخ، فمن معجزاته الإيجابية أنه جاء فيه كثير من التعبيرات التى كشف العلم والتاريخ فى القرون الأخيرة من معانيها ما لم يخطر فى بال أحد من أهل العصر الذى نزل فيه. ومن معجزاته السلبية: أنه لم يثبت على توالى القرون بعد نزوله شىء قطعى ينقض شيئًا من أخباره القطعية، على أن أخباره هذه إنما جاءت لأجل الموعظة والعبرة والتهذيب، ويكفى فى مثل هذا أن تكون الأخبار على المألوف عند الناس، ولا ينتقد عليها إذا لم تشرح

الحقائق الفنية والوقائع التاريخية لأنها ليست مما يبعث الرسل لبيانه، ومنها ما لا يمكن الوقوف عليه إلا بالتعمق فى العلم أو الاستعانة بالآلات التى لم تكن معروفة عند المخاطبين الأولين بالوحى، بل لا يصح أن يأتى فيها ما يجزمون بإنكاره بحسب حالتهم العلمية لئلا يكون فتنة لهم، وقد قال نبى الإنسانية العام ﷺ «أنتم أعلم بأمور دنياكم» رواه مسلم فى صحيحه.

ومن دقائق تعبير القرآن فى النوع الأول (التكوين) التى اختلف فى فهمها الناس أن مادة الخلق «دخان» وهو عين ما يسمى السديم، وأن السموات والأرض كانتا رتقًا، أى مادة واحدة متصلة، ففتقهما الله وجعل كلا منهما خلقًا مستقلا[1]، وبث فيهما أنواع الدواب، ولم يكن أحد يعتقد أو يتصور أن فى شىء من هذه الأجرام السماوية حيوانًا، وأنه جعل من الماء كل شىء حى، وأنه خلق جميع الأحياء النباتية والحيوانية أزواجًا، فجعل فى كل منهما ذكرًا وأنثى، وأنه جعل كل نبات موزونًا، يعنى أن عناصره متوازنة على نسب مقدرة، وأنه أرسل الرياح لواقح، وأنه «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» والتكوير هو الملف على الجسم المستدير، وهو صريح فى كروية الأرض ودورانها اللذين كانا موضوع الجدال والنضال بين العلماء إلى عهد قريب بعد الإسلام، وأمثال هذا فيه كثير حتى إن بعض آياته فى الشمس والقمر والنجوم وسبحها فى أفلاكها وجريانها إلى أجل مسمى، وفى تناثر الكواكب عند خراب العالم لا تفهم فهمًا صحيحًا إلا فى ضوء علم الفلك الحديث.

وأعجب منه إثباته أن للخلق سننًا لا تتبدل وبيانه لكثير منها، ومن سنن الاجتماع التى لم يهتد البشر إليها بالبحث العلمى إلا بعد بيان القرآن لها بقرون. ولم أوردها فى هذا البحث؛ لأنها قد يقال إنها مما يعرف بالعقل، وليس من موضوع الوحى.

---

(١) يقول الدكتور مهندس محمد الحسينى: (يتبين لنا مما نشاهده فى مجال الفيزياء العامة أن كل متحرك له محرك إلى أن نصل بالضرورة إلى محرك أول لا يحركه محرك آخر، وهذا المحرك الأول هو (الله) تعالى... ويرى أن نظرية (الانفجار العظيم) -والتى تلقى الآن قبولاً فى الأوساط العلمية حول نشأة الكون، إلا خير دليل على هذا المحدث لهذه الحركة أى وجود المحرك الأول، الذى سبب هذا الانفجار العظيم) ص ١٣٩ كتابه بعنوان (الله والدين والإنسان) مطابع الأهرام بمصر سنة ١٩٩٥م.

وسأفصلها فى الجزء الثانى المتمم لهذا الكتاب، وأختم دعوتى هذه بتلاوة قول الله عز وجل (فى آخر سورة ٤١ حم - فصلت):

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ [فصلت: ٥٢- ٥٤].

اللهم إنى قد بلغت، اللهم إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، اللهم اشهد فأنت خير الشاهدين، والحمد لله رب العالمين.

●●●

الفهرس

الفصل الرابع:

فى إعجاز القرآن بأسلوبه وبلاغته، وتأثيره وثورته

الفصل الخامس:

فى مقاصد القرآن، فى تربية نوع الإنسان وحكمة
ما فيه من التكرار فى الهداية وإعجازه بالبيان

●●●











وصف الأستاذ محمود شاكر هذا الكتاب بقوله :

(قام الأستاذ الجليل الشيخ محمد رشيد رضا فأخرج للناس كتابه هذا الذى بين أيدينا عن الوحى ، وعن الوحى الذى نزل على محمد ﷺ خاصه ليثبت أن الوحى صدق ولا يشك فيه ، وأن القرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ..... وأنه من الخير لكل من يطلب الحقيقة أن يدرس الوحى فى هذا الكتاب فلعله يجد الحق فينتفع به ويتعلق بآياته) (١)

(١) كتاب جمهرة مقالات الاستاذ محمود شاكر صـ ٦٥٢ ج٢
جمعها وقدم لها د/ عادل سليمان جمال - مكتبة الخانجى بالقاهرة ط٢ سنة ٢٠٠٢ م



٣ شارع منشا محرم بك الإسكندرية ت/ ٣٩٠٧٩٩٨

E-mail : eldarelarabia900@gmail. com